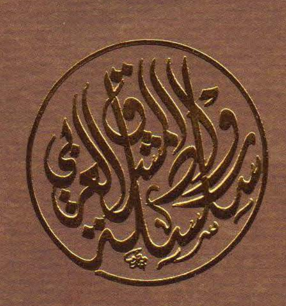


رحلات في برّ الشام

في القرن السّابع عشر الميلادي



نصوص منتقاة

لمجموعة من الرحّالين الأوروبيين

ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

رحلات في برّ الشام

في القرن السّابع عشر الميلادي

نصوص منتقاة

لمجموعة من الرحّالين الأوروپيين

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS94 . V6912 2012

رحلات في بر الشام في القرن السابع عشر الميلادي/ نصوص لخمسة رحالين أوربيين؛ ترجمة وتعليق أحمد إيبش.

ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص ؛ سم. (رواد المشرق العربي)

العنوان الفرنسي بمعرفة المترجم: Voyages en Syrie au XVIIe siecle

تدمك: 1 -159 -17 -9948- 978

1. سوريا -- وصف ورحلات -- القرن السابع عشر. أ. إيبش، أحمد.



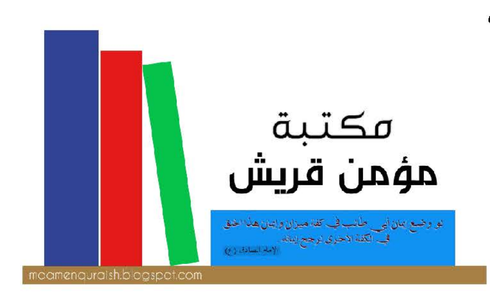


دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1434هـ 2012م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae



رحلات في برّ الشام

سلسلة

روّاد المشـرق العربـي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، هذا الكتاب الجديد ضمن نتاجها من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة التي تصدرها تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

* * *

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة، ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي بوجه الإجمال.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 196 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة.

أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها. وكانت الحصيلة أن تركوا لنا عدداً كبيراً من النصوص الشائقة والمثيرة، تروي أحداث رحلاتهم ومغامراتهم.

* * *

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» اليوم بمتابعة نشر أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

* * *

هذا الكتاب

تُعدّ رحلات الأثريين والسيّاح الأوروپيين في بلادنا مصدراً هاماً لدراسة تاريخ مدننا وآثارها، وأحوالها الاجتماعية والعمرانية. وتتميز هذه الرحلات عن مصادرنا التاريخية الأصليّة بتدوينها لبعض النواحي التي أغفلها مؤرّخونا، وبخاصة ما يتعلق بالحياة الاجتماعية لعامة الناس، إذ نجد فيها ملامح عن حياة بلادنا قديماً وعادات شعوبها وتقاليدها وأزيائها وحياة أهلها اليومية في أحيائهم وأسواقهم ومقاهيهم، ووصفاً للمناسبات الخاصة كالأعياد ومواكب الحج ومواكب الولاة والحكام.

اهتم الأوروپيون أيضاً بآثار بلادنا، فدرسوا تاريخها القديم وبحثوا نشأتها وقدّموا لها أوصافاً ومخططات دقيقة. ولا ريب أن المؤلفات الثمينة التي وضعها الآثاريون الأوروپيون في العهد العثماني وما تلاه، تؤلف مرجعاً واسعاً مفيداً لدراسة آثارنا عموماً. فضلاً عن أن الرّسامين والمصوّرين الأوروپيين قاموا برسم وتصوير بعض مناظر بلادنا الطبيعية والعمرانية، فقدمت لنا ريشاتهم وعدساتهم سجلاً حياً خالداً لمشاهد مدننا العريقة وأوابدها.

ويندرج اهتمام الأوروپيين ببلدان المشرق الإسلامي تحت عدة مقاصد: فمنهم من قدم لدراسة الآثار الشرقية بشكل علمي جاد، ومنهم من جاء كسائح أغراه عبير الشرق فجاء يبحث فيه عن مواطن المال والخيال الساحر، أو حتى لمجرد التجارة، وصنف أخير ممن أوفد من قبل حاكم أو إرسالية دينية لتقصّي أخبار الشرق.

وكائنةً ما كانت رغبات أولئك القوم، فقد سجّلوا لنا من تاريخ بلادنا صفحات، يجدر بنا أن نمعن فيها النظر ونتدارسها لدعم تراثنا بمصادر جديدة ومفيدة.

* * *

نتناول في هذه النشرة مجموعة رحلات منتقاة، قام بها خمسة رحّالين عبر برّ الشام بأواسط العهد العثماني في القرن السّابع عشر، وقد عمدتُ فيها إلى تنويع الاختيار ما بين ثلاثة فرنسيين، وواحد برتغالي، وآخر إنكليزي:

- جان باتيست تاڤرنييه Jean Baptiste Tavernier ، زار حلب 1638 م.
- سيباشتياو مانريك Sebastião Manrique ، زار دمشق عام 1640 م.
- لوران دارڤيو Laurent d'Arvieux ، زار دمشق عام 1660 م.
- جان دى تيڤنو Jean de Thévenot ، من دمشق إلى حلب عام 1664 م.
- هنري موندرل Henry Maundrell ، زار دمشق عام 1697 م.

أشير أخيراً إلى ورود وصف لدمشق لدى رحالة إنكليزي آخر هو جورج سانديز George Sandys ، زار دمشق بُعيد عام 1610، لكننا نرجئه الآن لكون كتابه قيد الترجمة حالياً ضمن سلسلة «روّاد المشرق العربي».

ولله الحمد على ما وفّق وأعان.

بيروت، 21 مايو 2011 **د. أحمد إيبش**

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والتعابير الأجنبيّة، يواجه القارئ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر نقطتين:

1- بخصوص حرف الجر الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق.

2- أمّا عقدة الترجمة الكبرى إلى العربيّة فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي الخليج: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بـ 3 نقاط، وفي تونس: ڤوڤل. هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن الجيم المشبعة (الجيم الشجريّة)، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّه في لهجات العربيّة القديمة جيم (بقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى اتباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً (لكن بثلاث نقاط ڠ تمييزاً له عن الغين)، كطريقتهم في تعريب الأسماء: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: غاغا أم جاجا أم قاقا؟ لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز، دائرة أو جيم بقلم المُسند فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى نفعل؟!

* * *

حلب في القرن السابع عشر

نص للرحالة الفرنسي «جان باتيست تاڤرنييه»

Jean Baptiste Tavernier

1638 م

جان باتيست تاڤرنييه (1605-1689 م) رحّالة فرنسي كبير ورائد من روّاد التجارة مع الهند، ولد في پاريس لأسرة تعود أصولها إلى آنتڤيرپن (آنڤير) في بلجيكا، وكان أبوه وعمّه يمتهنان رسم الخرائط ونقش الصور بطريقة الحفر gravure ممّا نمّى لديه منذ طفولته حبّ الجغرافيا والرّحلات، فباشر في سنّ السّادسة عشرة بزيارة إنكلترا وهولندا وألمانيا. وبعد عدّة جولات بين بلاطات قصور ملوك أوروپا، طفق جان باتيست يرتحل عبر إيطاليا وسويسرا وپولونيا وهنغاريا، إلى أن شعر برغبة عارمة في زيارة أقطار الشرق.

وفي مدينة راتيزبون Ratisbon بألمانيا (اليوم ريغِنزبورغ Regensburg) انضمّ إلى حملة فرنسية توجهت مطلع عام 1631 إلى إستانبول، حيث أمضى تاڤرنييه 11 شهراً ثمّ تابع طريقه عبر طوقات وأرضروم ويريڤان إلى بلاد فارس، حتى وصل أصفهان. ثم عاد عبر بغداد فحلب فالإسكندرونة فجزيرة مالطة ثم إيطاليا حتى بلغ پاريس عام 1633 فمكث فيها 5 سنوات.

ثم في سبتمبر من عام 1638، شرع تاڤرنييه في رحلة ثانية، من أصل ست رحلات قام بها في حياته، ودامت هذه الرحلة 5 سنوات (1638-1643)، انطلق فيها من حلب إلى بلاد فارس، ومنها تابع إلى الهند وصولاً إلى أكرا، فزار بلاط خان المغول الأكبر شاه جهان، وركّز اهتمامه على مناجم الماس التي غدت غاية رحلاته القادمة كلّها.

وفي هذه الرحلات التالية، سافر تاڤرنييه كتاجر من أعلى التجار شأناً، يتعاطى تجارة الجواهر والبضائع الفاخرة الثمينة، وكان بين زبائنه كبار الأمراء وحكّام الشرق. وفي رحلته الثالثة (1643-1646) وصل جان باتيست إلى جزيرة جاوة، وقفل عائداً عن طريق مدينة الكاپ في هولندا.

وفي غضون رحلتيه الأخيرتين (1657-1662، 1664-1668) لم يتجاوز الهند. ورغم أن مجرياتها تبقى غامضة، فلقد قدّمتا معلومات ثمينة حول طرق تجارة الشرق، وعزّزتا من علاقات تاڤرنييه بكبار أباطرة الشرق، فصار تاجراً مرموقاً وجمع ثروة كبيرة وعلا صيته في فرنسا. أدّى ذلك إلى طلب الملك لويس الرابع عشر لقاءه ووضعه في خدمته، وأمره بتدوين وقائع رحلاته الست، فطبعت للمرّة الأولى في باريس بجزأين عام 1676، ثم توالت طبعاتها في 1680 ثم 1681، كما طبعت في كولن بألمانيا 1676، وميلانو 1687 وأمستردام 1678، 1679، وجنيف 1681.

أنقل فيما يلي وصفه لمدينة حلب، التي زارها عام 1638 في مطلع رحلته الثانية، وقد صادف ذلك مجيء السّلطان العثماني مُراد خان الرّابع متوجهاً إلى بغداد لحرب شاه الصّفويين. ورجعتُ إلى الطبعة الأولى 1676 في المكتبة الوطنية بپاريس، وطبعة درايفوس عام 1881 (ص67-74):

لدى وصولنا حلب، نزلنا في بادئ الأمر بدارة القنصل الفرنسي الذي كان آنذاك مسيو دى بريمون[1] De Bremon، ثمّ أتى جُباة المكوس لتفحّص أمتعتنا، وبعد ذلك مضينا إلى النّزل Quaisserie، وهو مكان ينزل فيه الأغراب لقاء نصف ريال écu في اليوم، وربع ريال عن الخدم. لقينا هنا معاملة مقبولة، ولم يكن سوى بعض الأفراد الأوروپيين الذين جاؤوا لزيارتنا.

* * *

(1) كذا كتابة الاسم في طبعة پاريس 1676، والأصح: Bremond، وقد خرج من عائلة دى بريمون المرسيليّة في القرن السّابع عشر عدّة قناصل لفرنسا في المشرق، وخاصة في القاهرة.

LES SIX

VOYAGES

DE JEAN BAPTISTE

TAVERNIER,

ECUYER BARON D'AUBONNE,

QU'IL A FAIT

EN TURQUIE, EN PERSE, ET AUX INDES.

Pendant l'eſpace de quarante ans, & par toutes les routes que l'on peut tenir ; accompagnez d'obſervations particulières ſur la qualité, la religion, le gouvernement, les coûtumes & le commerce de chaque païs ; avec les figures, le poids, & la valeur des monnoyes qui y ont cours.

PREMIERE PARTIE,

Où il n'eſt parlé que de la Turquie & de la Perſe.



A PARIS,

Chez { GERVAIS CLOUZIER, ſur les degrez en montant pour aller à la Ste Chapelle, à l'Enſeigne du Voyageur. ET CLAUDE BARBIN, ſur le ſecond Perron de la ſainte Chapelle. } au Palais

M. D. C. LXXVI.

AVEC PRIVILEGE DU ROY.

نموذج عن طبعة باريس 1676، الجزء الأول

si renommée qui est encore sur pied. Les Francs qui vont à Alep se détournent d'ordinaire pour aller voir ce lieu-là. Ce que je trouve de plus entier & de plus beau entre les ruines de ces monasteres, ce sont des cisternes voûtées de pierre de taille, & que le temps n'a guere endommagées.

De Chaquemin ont vient dîner à un village appellé *Angare*, où on est traité pour chacun sa piastre comme aux gistes precedens. Il y a dix heures de marche d'un village à l'autre, & trois heures seulement d'Angare à Alep. Nous fûmes descendre au logis du Consul François qui estoit alors Monsieur de Bremon. Les Doüaniers vinrent d'abord visiter nos hardes, aprés quoy nous fûmes à la *Quaisserie*, qui est un lieu où les étrangers se mettent en pension à demi-écu par jour, & un quart pour le valet. On y est raisonnablement traité, & on n'y est pas plûtost arrivé que les autres Nations vous viennent rendre visite.

CHAPITRE II.

Description d'Alep, qui est aujourd'huy la ville capitale de la Syrie.

ALEP est une des plus celebres villes de la Turquie, tant pour sa grandeur & sa beauté, que pour la bonté de son air accompagnée de l'abondance de toutes choses, & pour le grand commerce qui s'y fait par toutes les nations du monde qui y abordent. Elle est au 71. d. 45. min. de longitude, & au 36. d. 15. minutes de laditude, dans un assez bon terroir. Quelque recherche que j'aye pû faire, je n'ay pas bien sceu comme elle s'appelloit anciennement. Les uns veulent que ce fût *Hierapolis*, & les autres *Beræa*: & les Chrestiens du pays sont de cette derniere opinion. Les Historiens Arabes qui marquent sa prise la nomment *Aleb*, sans faire mention d'aucun autre nom. Surquoy il faut remarquer que si les Arabes appellent cete ville Aleb, & les autres Alep, cela peut venir de ce que les Arabes n'usent point de la lettre *P* dans leur langue, & qu'elle manque dans leur Al-

وصف حلب من الكتاب، الجزء الأول، ص 134

وصف مدينة حلب

التي هي اليوم المدينة الرئيسية في سوريا

تُعدّ حلب واحدة من أشهر المدن التركيّة[1]، سواء لاتساعها وبهائها، أو لطيب هوائها المصحوب بالوفرة في كلّ ما يخطر بالبال، وكذلك نظراً للحركة التجاريّة العظيمة التي تتداولها جميع شعوب الأرض التي تؤمّها[2]. وهي تقع على خطّ طول 71 درجة و 45 دقيقة، وخط عرض 36 درجة و 15 دقيقة، في كورة خصيبة ممرعة.

من خلال الأبحاث القليلة التي أتيح لي القيام بها، لم أتمكن بدقة من معرفة الاسم القديم لهذه المدينة في سالف العصور. ويرى البعض أن اسمها كان هيرابوليس Hiérapolis، بينما يرى آخرون أنها كانت تسمّى بيوريا Beoraea، والمسيحيون في المدينة يؤيّدون الرأي الثاني، بينما نجد المؤرّخين المسلمين الذين دوّنوا أخبار فتحها يسمّونها حلباً، دون الإشارة إلى أيّ اسم آخر سواه. وتجدر الإشارة إلى أنّ سبب الاختلاف في نطق هذا الاسم Aleb عند العرب و Alep عند غيرهم، إلى عدم وجود الحرف (P) في أبجديّة لغة العرب.

فتحت هذه المدينة على أيدي المسلمين عام 15 هـ بعد هجرة محمّد، أي ما يقارب العام 637 للميلاد، وكانت آنذاك تحت حكم هِرَقل Heraclius إمبراطور القسطنطينية.

---

(1) يعني العثمانية، وسنرى الرحّالين هنا يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السلطنة.

(2) الحقيقة أنّ حلباً كانت واحدة من أهم المراكز والمعابر التجارية بين الشرق والغرب في القرون الوسطى، وخاصة لتجارة التوابل القادمة من الهند عبر طريق الحرير إلى أوروبا بأسرها، وفيها لليوم خان للبنادقة. إنما انحسرت أهميتها بعد اكتشاف خطّ رأس الرجاء الصالح.

وهذه المدينة مشيّدة على أربع هضاب، تربض القلعة على أعلى هضبة فيها، بحيث تكون بمثابة القلب من حلب. والقلعة محمولة على أقباء في بعض المواضع، خشية انجراف التربة من تحتها. والقلعة كبيرة، ولعلّ دائرها يبلغ زهاء خمس أو ست مئة خطوة. أمّا أسوارها وأبراجها، وإن كانت مبنية بالحجارة المقصوبة فهي لا تُعدّ ذات فاعليّة دفاعية كبيرة.

وليس للقلعة من مدخل سوى باب واحد يقع إلى جهة الجنوب، وهو دون جسر متحرك، ويُتوصّل إلى هذا الباب مروراً فوق بضعة قناطر تقطع الخندق، الذي يبلغ عمقه قرابة ست أو سبع قامات[1]. ومن هذا العمق كله لا يصل الماء إلا إلى المنتصف، فضلاً عن أنّ هذا الماء آسن راكد لا يجري البتة. أمّا ما تبقى من الخندق فجاف، وعموماً لا يمكن اعتبار هذا الموضع مكاناً بهياً. ويؤتى بالماء إلى القلعة بواسطة قناة من غدران المدينة، وتتمركز في هذه القلعة عادةً حامية عسكرية كبيرة.

* * *

يبلغ محيط المدينة أكثر من ثلاثة أميال، وأكثر من نصفها ليس له خندق، وأما القواطع التي لها خندق فلا يتجاوز عمقه عندها الثلاث قامات. وبَدَنات السّور في الواقع محكمة ومبنيّة بأكملها بالحجارة المقصوبة، وعليها العديد من الأبراج المربّعة، تبلغ المسافة بين أحدها والآخر سبعين أو ثمانين خطوة، وفيما بينها توجد أبراج أخرى أصغر جُرماً. لكن أسوار المدينة ليست متساوية في جميع أقسامها، حتى أنّ هناك مواضع لا يتجاوز فيها ارتفاع السّور أربع قامات. ويُدخل إلى المدينة من عشرة أبواب ليس لها خنادق أو جسور متحركة، وبأسفل أحد هذه الأبواب مكان يجلّه الأتراك[2] فيحتفظون فيه بقناديل مُنارة، ويقولون إنّ هذا هو المكان الذي أقام فيه النبي إلياس مدّة من الزمان.

---

(1) القامة toise مقياس قديم يساوي ستة أقدام (182,88 سم)، وهي متوسط طول الإنسان.
(2) سنرى أن جميع رحّالي هذا العصر يشيرون إلى جميع رعايا الدولة العثمانية باسم الأتراك.

لا يجري في حلب أي نهر بمعنى الكلمة، اللّهم سوى نهير صغير خارج المدينة يدعوه العرب قُوَيق *Coïc*. ورغم أنّ هذا النهر ليس بالحقيقة أكثر من جدول، فإنه لم يُترك دون استنباط فائدة منه، إذ أنه يستغلّ لسقاية كل البساتين التي تنمو فيها الثمار بوفرة، وبوجه الخصوص الفستق الحلبي، الذي يتميز بأنه أكبر حجماً وألذ طعماً من الفستق الذي يُجلب من نواحي كاشان. ولكن إن كان لا يجري في حلب أنهار فهناك من جهة أخرى العديد من الينابيع والخزانات التي يؤتى إليها بالمياه من مكانين بعيدين عن المدينة.

أمّا المباني، سواء العموميّة منها أو الخصوصية، فليست تتسم بالرّونق إلا في داخلها، ففي الدّاخل تجد الجدران المكسوة بالرّخام الملوّن، والتلبيسات الخشبية المزوّقة بتعريقات نباتيّة وبخطوط منقوشة بالذهب. وفي المدينة، بما في ذلك باطنها وظاهرها، قرابة مئة وعشرين مسجداً، ومن بينها ستة أو سبعة تتميّز بقدر وافٍ من البهاء ولها قباب حسنة، ومن بينها ثلاث قباب مكسوّة بالرّصاص. وأما المسجد الرئيسي - وهو أكبر مساجد البلدة - فكان فيما مضى كنيسة للمسيحيين، وكانت هذه الكنيسة تسمّى *Alhha* أي *Oüye* [الحلويّة] ويقال إنّ القديسة هيلانة هي التي أمرت ببنائها.

وفي بعض أرباض المدينة مسجد كان هو الآخر في السّابق كنيسة مسيحية. وفي هذا المسجد أمر يدعو إلى العجب، ففي الجدار الذي إلى يمين الداخل من الباب بلاطة حجريّة مربّعة الشكل يتراوح ضلعها ما بين القدمين والثلاثة، وفي هذا الحجر رسم متقن يبدو فيه كأس يعلو فوهته قربان، بالإضافة إلى هلال يحيق بالقربان وينحدر رأساه حتى يسامتا حافتي فوهة الكأس. لقد ظننا في البداية أنّ هذه الأشكال مرسومة باليد، على طريقة اللوحات المنزّلة والمطعّمة بالفسيفساء، ولكنني تأكّدت مع بعض الفرنسيين أنها جميعها طبيعيّة لا تشوبها شائبة، بعد أن كشطنا الحجر بمقراض حديدي في غفلة من عيون الأتراك. ولقد رغب بعض القناصل الأجانب ابتياع هذا الحجر، ودفع فيه بعضهم ما وصل إلى ألفي ريال écu، لكن پاشوات حلب لم يرضوا بالتخلّي عنه لقاء أي ثمن.

على بعد نصف فرسخ من المدينة تلعة نضرة[1] يقضي فيها الفرنج أوقات لهوهم ونزهتهم، وفيها مغارة يقول الأتراك إنّ عليّاً بن أبـي طالب أقام فيها بضع ليالٍ، وعلى اعتبار وجود شكل رديء الصنع ليد مطبوعة في الصّخر، يظنون أنّ هذه علامة يد عليّ الذي أراد ترك أثر في هذه المغارة.

* * *

في حلب مدرستان أو ثلاث، إنما بهنّ قلّة من الطلاب، وعدد من الأدباء المعيّنين بالأجرة لتدريس قواعد اللغة وشيء من الفلسفة، بالإضافة إلى الشؤون المتعلقة بدينهم، وهي العلوم التي يصرفون إليها جلّ اهتمامهم ودأبهم.

دروب المدينة مرصوفة جميعها، ما خلا البازارات التي تتألّف من شوارع تقوم عليها دكاكين التجّار والصنّاع، كما أسلفت. وأهمّ الصنّاع، وهم يؤلفون الغالبية العظمى، نسّاج الحرير وحيّاك العباءات الصنوعة من وبر الماعز.

وفي المدينة وأرباضها مجتمعة قرابة الأربعين خاناً، وخمسين حمّاماً للرّجال والنساء على حدّ سواء، كلّ بدوره المخصوص. ودخول الحمّام بالنسبة للنساء متعة كبرى، فتراهنّ يجمعن فضل أموالهنّ طوال الأسبوع كيما يدفعن كراء الحمّام ويذهبن فيقمن في غاية اللهو والانبساط.

وضواحي المدينة كبيرة ومأهولة بالسكّان، وجميع مسيحيي البلد تقريباً يقيمون في هذه الضواحي، ولهم فيها كنائس وبيوت. وبحلب أربعة أصناف من المسيحيين المشارقة، هم: الرّوم، والأرمن، واليعاقبة أو السّريان، والموارنة. وللرّوم هنا مطران ويعدّون ما يقارب خمسة عشر أو ستة عشر ألفاً، وكنيستهم مكرّسة باسم القديس جورجيوس. أمّا الأرمن فلهم أسقف يسمّونه *Vertabet* «ورتابِت» ويقارب عددهم الألفي شخص، وكنيستهم مكرّسة باسم السيّدة العذراء. أمّا اليعاقبة فلهم أيضاً أسقف ولا يتجاوزون العشرة آلاف، وكنيستهم مكرّسة أيضاً ككنيسة الأرمن باسم السيّدة العذراء.

---

(1) أي جبل الجوشن الذي كان يقصده أهل حلب للنزهة.

أمّا الموارنة فيتبعون للبابا ولا يتجاوزون بالكاد ألفاً ومئتي شخص، وكنيستهم مكرّسة باسم مار إلياس. وللكاثوليك اللاتين كذلك ثلاث كنائس يقوم على سدانتها رجال الإكليروس من الكبوچيين أو الكرمليين الحفاة أو اليسوعيين. وللقنصل الفرنسي راهب فرنسيسكانـي بمثابة كاهن له.

ويبلغ المجموع العام للسكّان في حلب، بما في ذلك المدينة والأرباض، قرابة مئتين وخمسين ألف نسمة.

* * *

تقوم في حلب حركة تجاريّة مزدهرة[1] ترتكز على تجارة المنسوجات الحريريّة والشمائل المحاكة من وبر الماعز، وأيضاً تجارة عفوص البلّوط وألحية الدّباغة المتخذة من قشارة السّنديان، التي لا يمكن للدبّاغين من دونها تعطين جلودهم. وتتمّ في حلب أيضاً صفقات الصّابون والعديد من البضائع الأخرى، ويقصد المدينة تجّار من جميع أقطار المعمورة. وناهيك عن الأتراك والعرب والفرس والهنود، هناك في حلب على الدّوام أعداد غفيرة من الفرنسيين والطليان والإنكليز والهولنديين، ولكلّ طائفة من هؤلاء قنصليتها الخاصة التي تقوم على رعاية مصالحها وضبط شؤونها.

وهذه التجارة ليست تتمّ، كما كتب البعض، بالاستفادة من نهري دجلة والفُرات، اللذين قيل بأنّ البضائع يتم نقلها عبرهما صعوداً وهبوطاً. فلو كان ما ذُكر صحيحاً لما اضطررتُ أنا نفسي للقدوم من بغداد إلى حلب عبر الصحراء، ومرّة أخرى حينما ذهبت من حلب إلى البصرة، لم أكن لأضطر كذلك إلى اجتياز الصحراء، أو عندما مررتُ بمخاطرة سأتكلم عنها فيما بعد، قضيتُ فيها على الطريق خمسة وستين يوماً. أمّا عن نهر الفُرات، فمن الثابت أنّ العدد الكبير من الطواحين المشيّدة عليه لجرّ المياه بغرض سقاية الأراضي تعيق حركة الملاحة وتجعلها محفوفة بالمخاطر.

---

(1) من المعروف في سوريا إلى يومنا الحاضر أنّ تجار حلب هم الأكثر خبرة ومقدرة وشغفاً بالاتجار.

ولكنني مع ذلك أشير إلى أنني شاهدت في عام 1638 فرقة من جيش السّلطان تنزل في الفُرات، ومعها كميات من الأعتدة والذخائر الحربيّة، وذلك عندما تعيّن النزول على بغداد لمحاصرتها. غير أنّ هذا لم يتم إلا بعد قطع كافة الطواحين المشيّدة على النهر، الأمر الذي لا يتيسّر دون كبير عناء وتكاليف باهظة.

وأمّا عن نهر دجلة فليس يصلح للملاحة إلا بالكاد في مرحلة ما بين بغداد والبصرة، حيث يمكن سلوكه صعوداً ونزولاً بواسطة المراكب. ولدى الاتجاه هبوطاً، يلزم عادةً تسعة أيام أو عشرة، وهناك مشقة تتبدّى في أنه لدى أدنـى قرية أو مضارب للبدو يصادفها المرء على الشاطئ ينبغي التوقف لطلب الإذن بالمرور بالإضافة إلى دفع بعض المال. صحيح أنّ تجّار الموصل وبغداد، وبقيّة التجار الآخرين الآتين من أعالي العراق للاتجار في البصرة، يرسلون بضائعهم صعوداً حتى بغداد، ولكن بوجود صيّادي الأموال، فإنّ المراكب تضطرّ للمكوث في الطريق لمدّة تصل أحياناً إلى سبعين يوماً.

على هذا المنوال يمكن قياس المدّة والنفقات اللازمة لنقل البضائع عبر الفُرات حتى بير Bir، حيث يتمّ تفريغها وتُنقل من ثمّ إلى حلب. ولولا العقبة التي تقع على دجلة على بعد يومين أدنـى الموصل، لكان من الممكن الصعود من بغداد إلى هذه المدينة، لكن هذا مُحال كما سأذكر في موضع آخر.

وأخيراً، عندما يكون بالإمكان الاستفادة من مُراد صو Morat-Sou «نهر مُراد» (وهو الاسم الذي يطلقه الأتراك على نهر الفُرات) ويصبح بالإمكان نقل البضائع جميعها عبر هذا النهر، فسوف لن يعود التجّار يسلكون طريق البرّ، هذا لأنّ القوافل التي لا تسير عادةً إلا في الصيف يمكن أن تصادف غالباً المشايخ، الذين ينتجعون في ذلك الحين بضواحي ضفاف الفُرات ومعهم سائر ربعهم وحلالهم وكُراعهم، طلباً للماء والكلأ اللذين يعوزانهم في البادية آنذاك، وليس بينهم من لا يُلزم التجّار بدفع الجزيّة التي تحلو له.

أذكر هنا على سبيل المثال ما شاهدتُه إذ كنتُ قادماً في بعض الأيام من بابل إلى حلب. لم نصادف لى طول الطريق سوى واحد من هؤلاء المشايخ وكان يقيم في عانة، فألزم الشيخ القافلة بدفع أربعين قرشاً عن كل حِمل جمل. إلا أنّ الطامّة الكبرى كانت في أنه استبقانا في مكاننا ما يزيد على الخمسة أسابيع بغية أن يترك المجال لقومه لكسب بعض المال منا عن طريق اضطرارنا للابتياع من أقواتهم. ثمّ في آخر مرّة اجتزتُ البادية، قابلنا هناك أحد هؤلاء المشايخ الأعراب وكان معه أخوه وهما شابّان يافعان، ولم يرض الشيخ بتركنا نمضي إلا بأن ندفع له مئتي ألف قرش نقداً بعملة *Larins*، وهي من عملات البلاد وسأتكلم عنها لاحقاً. وأصرّ الرّجل علينا بدفعها، على الرّغم من كلّ ما جهد به التجّار الذين لم يجدوا في حوزتهم ما يفي بتأدية هذا المطلب وفشلوا بالتملّص منه. دام الخلاف دونما جدوى اثنين وعشرين يوماً، لم يكن بدٌّ من قضائها هناك، إلا أنّ شُرعة الحقّ لم تُجدِ فتيلاً حيث سادت شُرعة القوّة. ويمكن من خلال هذا المثال تصوّر ما قد يفعله باقي المشايخ الذين ليسوا ألين جانباً من هذا المذكور، وكذلك يمكن تصوّر ما قد ينعم به التجّار من فائدة عظمى إن هم سلكوا نهر الفُرات في تنقلاتهم.

أظنّ أنّ فيما ذكرتُ حتى الآن بخصوص تجارة حلب بعض الكفاية، وأنتقل الآن إلى ذكر الشؤون المتعلقة بالحكومة.

* * *

تؤول سلطة المدينة إلى يد پاشا يحكم الإقليم برمّته، من الإسكندونة إلى نهر الفرات. ويتألف حرسه غالباً من ثلاث مئة جندي، ولقد نال لقب الوزارة منذ بضعة سنوات. وهناك أيضاً «الآغا» أو مقدّم الخيّالة في داخل نطاق المدينة وخارجها، الذي يترأس حوالي أربع مئة ضابط صف. وثمّة آغا ثالث لديه سبع مئة من الإنكشاريّة يتولى حراسة أبواب المدينة، وتُحمل إليه مفاتيحها عشيّة كل يوم، وهو لا يأتمر البتّة بأوامر الپاشا.

أمّا القلعة فهي أيضاً بيد مقدّم آخر موجّه من إستانبول مباشرة، وتحت إمرته مئتا خيّال، وضمن ملاكه سلاح المدفعيّة بأسره. ويبلغ عدد مدافعه خمسة وعشرين أو ثلاثين مدفعاً، ثمانية منها كبار والأخريات ذوات حجم صغير جداً. كما أنّ هناك «آغا» آخر[1]، أو متسلّم المدينة (كتخُدا) يرأس ثلاث مئة تفكجي (بواردِيّة)، وهناك أيضاً «الصّوباشي» بمثابة ناظر الحسبة أو مقدّم حرس المدينة، الذي يعسّ بالليل ومعه ضبّاطه في أجناب المدينة والأرباض. ومن المهام المنوطة به أيضاً تنفيذ الأحكام الصّادرة عن الباشا بإعدام أحد ما.

أمّا فيما يخصّ القضاء والأنظمة المدنيّة، فهناك «القاضي» أو رئيس المحكمة الذي ليس له محلّفون، بل يفصل وحده في جميع القضايا سواء كانت مدنيّة أم جنائية. وهو حينما يصدر حكم الإعدام بحقّ أحد ما يقوم بإرساله إلى الباشا مع دعواه، فيتصرّف هذا الأخير عندئذ كما يرتئي. وهذا القاضي يُبرم جميع عقود الزواج والطلاق، كما أنّ جميع صكوك البيع والشراء لا تكتب إلا في حضوره، وهو أيضاً الذي يعيّن مشايخ الحرف جميعاً، المكلّفون بالإشراف العام على الحرف درءاً لتفشي الزّغل في العمل.

وأمّا جباية الضرائب العائدة إلى خزينة السّلطان فيقوم بها «الدّفتردار» Tefterdar أو الخازن العام، الذي يعمل تحت إمرته محصّلون (تحصلداريّة) مخصّصون في عدّة دوائر رسميّة.

وأخيراً، فيما يتعلّق بالأمور الدّينية، فإنّ «المفتي» هو رأس الشريعة والقائم بأمورها، سواء فيما يختصّ بالشرائع الدّينية أو الدّعاوى المدنيّة التي قد تطرأ. ونذكر أيضاً بين رجال الدّين «الشّيخ»، وهو الدّاعية المكلّف بتلقين جميع الدّاخلين حديثاً في الإسلام، وبتعليمهم المبادئ والأعراف.

* * *

(1) هذه التفصيلات التي يذكها تافرنييه دقيقة، وتنطبق على ما نجده في المصادر التاريخية العربية عن أحوال ولاية حلب وغيرها من ولايات الشام. أمّا دمشق فلم يزرها تافرنييه.

لدى بلوغنا حلب، كان الشغل الشاغل للقنصل الفرنسي إعلان البشائر العامّة احتفاءً بالنبأ الذي قمنا بنقله إليه، وهو مولد الملك. ولقد قام بطلب الإذن من الپاشا لإجراء هذه الاحتفالات وفق ما تقتضي الأعراف، وحالما تمّ له استحصال الإذن، أقام القنصل مأدبة عظيمة دعا إليها أعيان الطوائف الإنكليزية والهولندية، وبعد تبادل الأنخاب تمّ الاحتفال بهذه المناسبة السّعيدة وفق ما تسمح به الظروف في هذا المكان الذي نحن فيه.

* * *

ثمّ بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا حلب، صادف دخول السّلطان مُراد المدينة[1]، وذلك في طريقه لملاقاة جيشه الزّاحف إلى حصار بغداد. ولا أرى هنا من كبير داعٍ للإطالة في وصف موكب السّلطان، حيث لم ألحظ فيه شيئاً غير اعتيادي، لكنّني سأحوّل انتباهي إلى أمر آخر يتميّز بالغرابة ويدعو إلى العجب. وذلك أنّه على مقربة من حلب إلى جهة الشرق منها رباط للصّوفيّة (الدّراويش) كان فيما مضى ديراً مؤنقاً على رسم القديس باسيل. ولا يزال البناء بوضع حسن، وجميع قاعاته وحجراته وأروقته مكسوّة بالرّخام.

ولقد خفّ هؤلاء الدّراويش جميعهم لاستقبال السّلطان عندما صار على مسافة نصف فرسخ من المدينة عند جبل Ozelet، وبعد أن قام شيخ المتصوّفة على رأس جماعته بإلقاء خطبة أمام جلالة السّلطان، تقدّم اثنان من الدّراويش لتحيّته بشكل مخصوص. وبعد ذلك، اعتباراً من هذا الموضع ووصولاً إلى قلعة حلب، مشى الدّراويش أمام حصان السّلطان خلال نصف ساعة على الطريق، وهم يدورون دون انقطاع بكامل قواهم حتى خرج الزّبد من أفواههم، وزاغت أعين الناظرين إليهم. ومن بين هؤلاء الدّراويش من يدور بهذه الطريقة ساعتين متتاليتين دون توقف، ويزدهون بما نعدّه نحن ضرباً من الخبال.

---

(1) السلطان العثماني مُراد خان الرابع، تولّى السلطنة بين 1612–1640 ولُقّب بفاتح بغداد عندما دخلها عام 1638 منتصراً على الصّفويين.

صادف عند وجود السّلطان بحلب مجيء پاشا مصر وبركابه ألفان من الإنكشاريّة، لا يرى الناظر إليهم أيّ تفاوت من حيث النظام. كان كلّ واحد منهم يلبس سراويل أرجوانيّة تصل إلى رسغ القدم، وفوقها قنبازاً تركياً من الجوخ الإنكليزي وقميصاً من النسيج القطني مرقشاً بعدّة ألوان، ولأكثرهم أزرار ذهبيّة ذوات عُرى مطرزة بالحرير، وسيوف منزّلة بالفضّة.

كان الپاشا يمشي على رأس هذا الموكب بلباس متواضع، ولكن رحائل فرسه كانت على قدر من البهاء بحيث أنه هو ذاته لم يعد محطاً للأنظار. وفي هذه المناسبة الخاصّة لم يألُ الپاشا جهداً للظهور أمام السّلطان بأفره حاشية.

* * *

بعد وصول السّلطان بيومين أو ثلاثة، بعث قناصل الفرنجة يلتمسون المثول بين يدي جلالته، ولدى حصولهم على الإذن كان قنصل فرنسا الأول بينهم، فقابلوه وقاموا بتقديم الهدايا المعتادة إليه.

* * *

من الضروري للمرء الإقامة لبعض الوقت في حلب، سواء لإجراء الأعمال التجريّة أو لانتظار اجتماع القافلة، وذلك عند عدم الرّغبة في المخاطرة بالمضيّ وحيداً صحبة الدّليل، الأمر الذي جرّبتُه مع ذلك مراراً. والحق أنه ليس هناك من شيء يدعو إلى الملل في مدينة بهذا الاتساع والفخامة، وهي دون شك من بعد إستانبول والقاهرة الأعظم في سائر أرجاء الإمبراطوريّة العثمانية. ولكن في الختام لا بدّ للمرء من سلوك طريق فارس، حيث يمكن اتّباع عدّة طرقات، جرّبتُها جميعاً في عدّة أسفار، ذهاباً وقدوماً.

* * *



الرحّالة جان باتيست تاڤرنييه



نُقيشة قديمة تمثل الرحّالة جان باتيست تاڤرنييه



لوحة قديمة للرسّام نيكولا دى لارجيّر Nicolas de Largillère
تعود إلى حوالي عام 1700 م، تمثل تافرنييه في مطلع شبابه





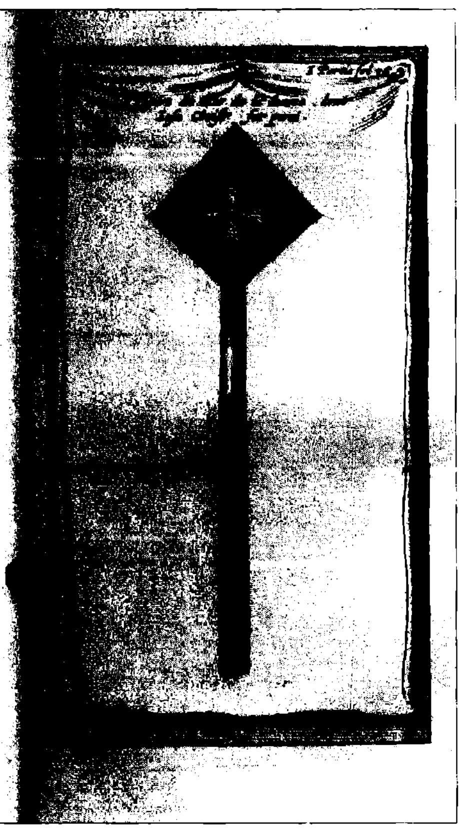
36 VOYAGES DE PERSE.

Le Patriarche fit faire en ſuite les prieres pour le Roy & pour Monſieur le Duc d'Orleans, aprés quoy l'Archevêque prit le livre où il avoit lû l'Evangile qu'il donna à baiſer au Patriarche, aux Archevêques, aux Evêques & à tout le peuple. Sur un des coſtez de la couverture de ce livre il y a des reliques enchaſſées & couvertes d'un cryſtal, & c'eſt le coſté du livre qu'on donne à baiſer. Toute la ceremonie achevée le Patriarche donna la benediction au peuple, & pluſieurs furent luy baiſer les mains, & chacun ſe retira.

Avant que de venir à Erivan je diray un mot de quelques ſingularitez qui ſe trouvent aux environs de cette ville. Il y a un lac vers le nord à dix lieües d'Erivan dans lequel on voit une Iſle où on a bâti un beau convent. Les moines qui y demeurent vivent ſi auſterement qu'ils ne mangent que quatre fois l'année de la viande ou du poiſſon. Ils ne ſe parlent point l'un à l'autre que dans ces quatre jours là, & le reſte de l'année ils ne mangent que des herbes comme on les cüeille au jardin, parce qu'ils diſent, que ce n'eſt pas jeûner que de manger de beure ou de l'huile. Le pain qu'ils mangent leur eſt apporté des villages circonvoiſins, & dans cette petite Iſle il croît toutes ſorte de bons fruits.

Du coſté de ce lac & plus prés d'Erivan on voit une grande plaine dans laquelle il y a ſix monaſteres, l'un deſquels eſt tout entier taillé dans le roc avec l'Egliſe & les piliers qui la ſoûtiennent, eſtant aſſis ſur une roche fort dure. Les Armeniens appellent cette Egliſe *Kickert* en leur langue, & les Turcs en la leur *Guirurghitche*, c'eſt à dire, *Voy & paſſe*. C'eſt dans cette Egliſe où ſelon la Tradition des Armeniens eſt gardé le fer de la lance dont JESUS-CHRIST fut percé, & ils le montrent à ceux qui y vont, pourvû qu'ils s'y trouvent à l'iſſuë du ſervice. *En voicy la figure que j'ay eu la curioſité de tirer ſur le lieu.* Les Armeniens ont cette lance en grande veneration, & diſent qu'elle fut apportée par ſaint Matthieu en ce païs là.

A cinq lieües d'Erivan tirant au Sud-eſt ou à l'orient d'hyver



نماذج لبعض لوحات الطبعات القديمة لرحلات تاڤرنييه



الرّحالة في ثياب مشرقيّة أهداها له الشاه

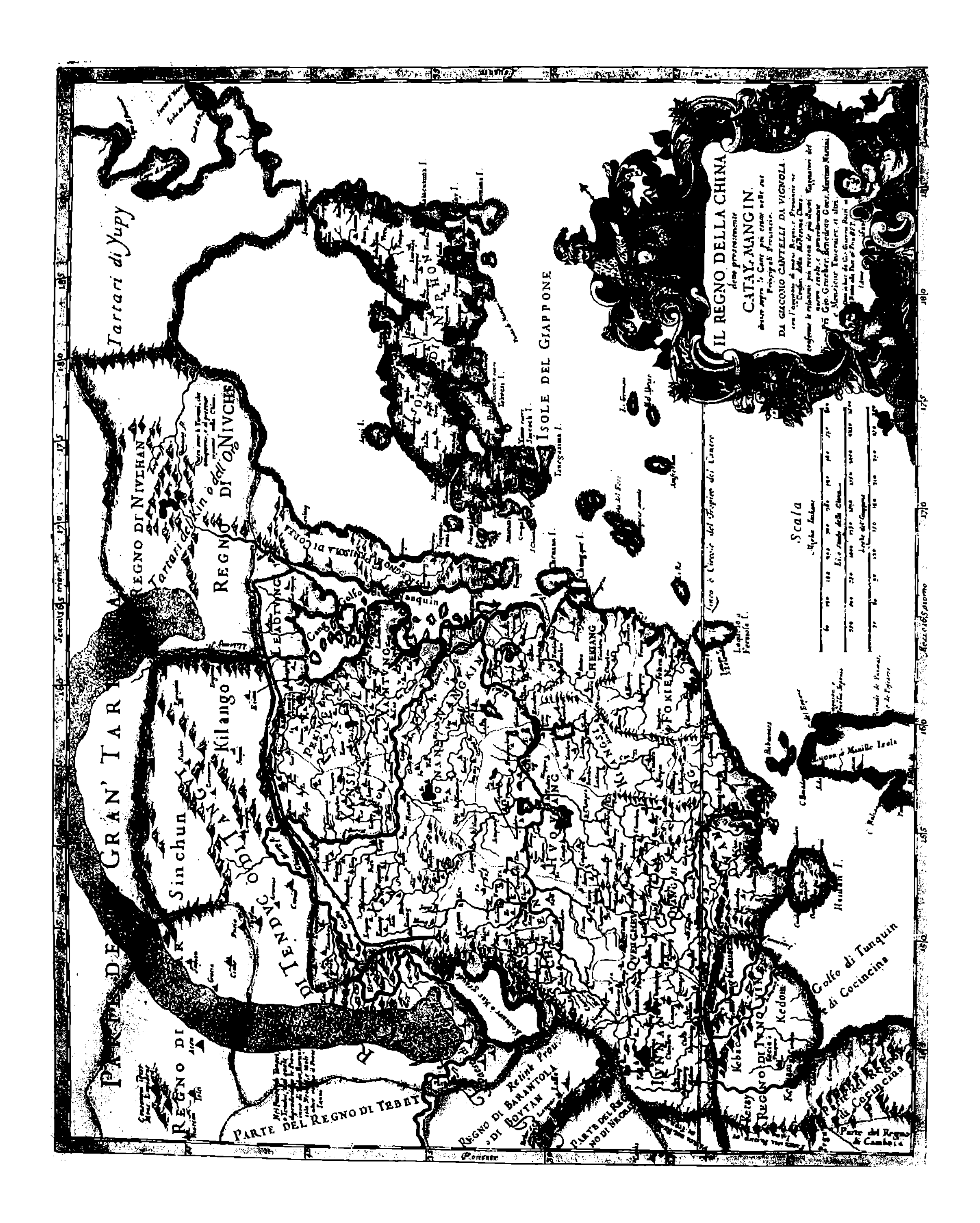


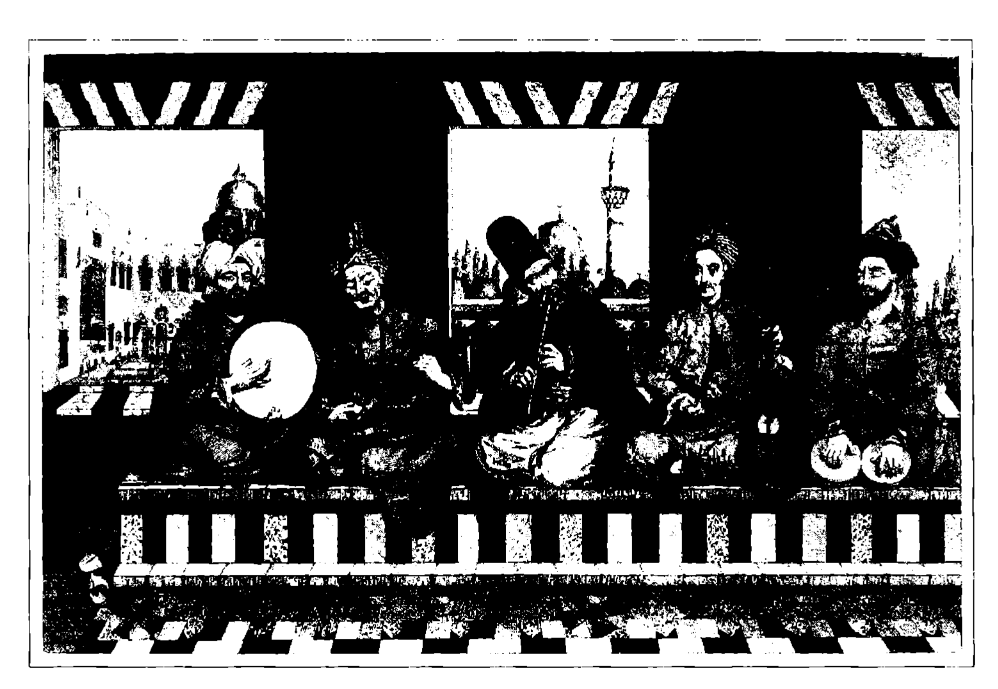
إحدى لوحات طبعة الكتاب القديمة، تمثل النّرجيلة



رسم يبيّن تافرنييه يتصدّر إحدى الطبعات القديمة لرحلاته

خريطة مملكة الصين للإيطالي جاكومو كانتيلّي، استناداً إلى معلومات تافرنييه ⇦

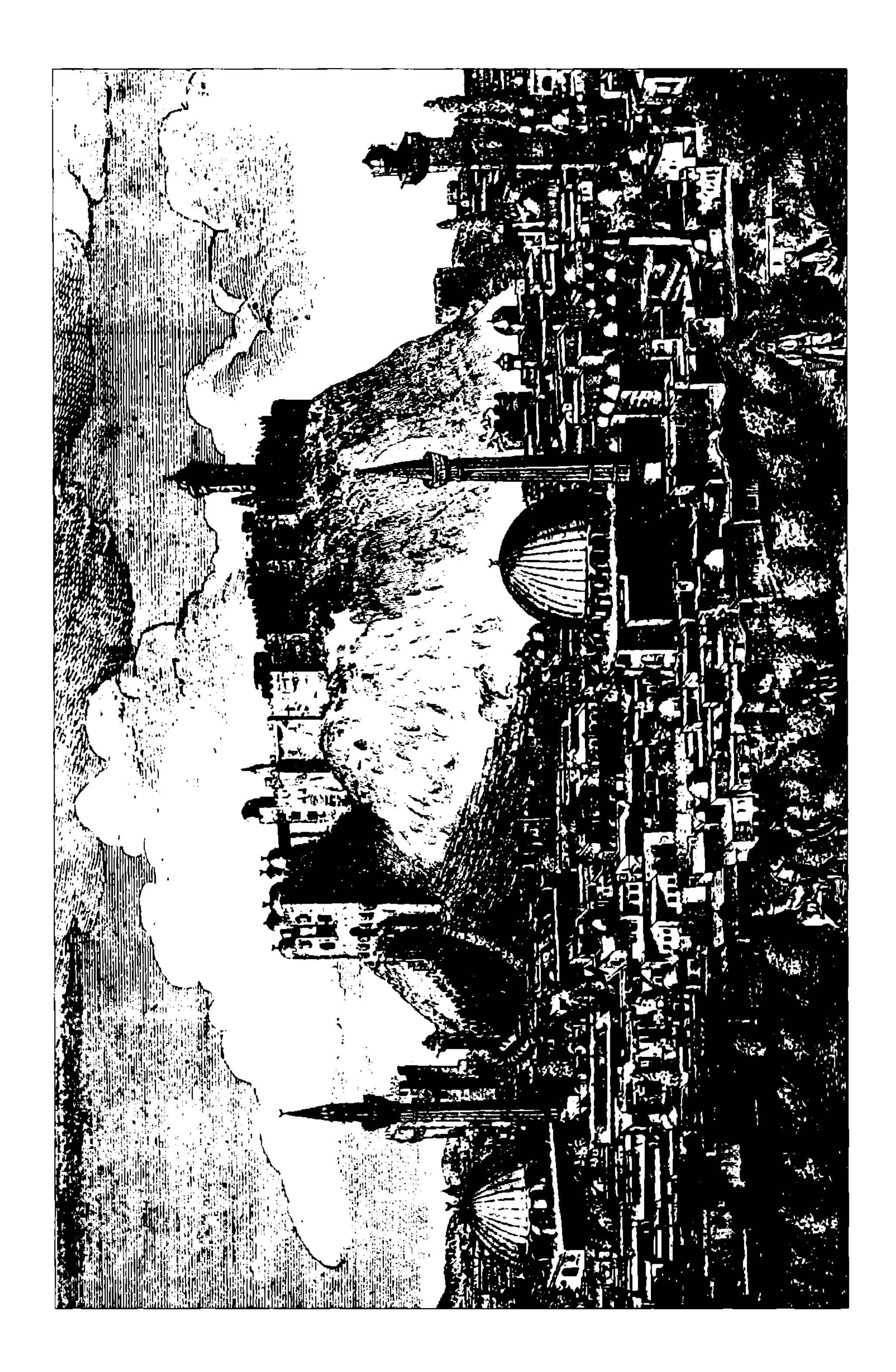

IL REGNO DELLA CHINA
CATAY, MANGIN
ISOLE DEL GIAPPONE
Tartari di Yupy
REGNO DI NIVCHAN
REGNO DI NIVCHE
PARTE DEL GRAN' TARTARIA
REGNO DI TENDVC
PARTE DEL REGNO DI TEBET
REGNO DI BARANTOLA
Golfo di Tunquin
Golfo di Cocincina
Parte del Regno di Cambaia
Scala



نقيشتان قديمتان من القرن الثامن عشر تمثلان مشهدين من المجتمع الحلبي



اليسار: نقيشة من القرن الثامن عشر تمثل مدينة حلب وقلعتها المشرفة عليها ⇦





نقيشة خشبيّة قديمة من عام 1590 للرسّام الإيطالي ڤيتشيليو Vecellio
تمثل القاپجي Kapıcı وهو موفد السّلطان إلى الولاة، عن كتاب:
C. Vecellio: *De gli Habiti antichi et moderni di diverse parti del mondo libri due*, Venezia, 1590

حلب عام 1677، نُقيشة من كتاب الهولندي أولفرت داپر Olfert Dapper ⇦



دمشق في القرن السابع عشر

نص للرحالة البرتغالي «سيباشتياو مانريك»

Sebastião Manrique

1629 - 1643 م

مانريك راهب برتغالي، انطلق من بلاده عام 1629 م في رحلة طويلة إلى بلاد الشرق، فزار بلداناً عديدة في القارّتين الأوروبيّة والآسيويّة، وتوجّه في آخر هذه الرّحلة إلى الشّرق الأقصى، وزار كلاً من الصِّين والهند. وبعد ذلك قفل عائداً إلى بلاده، فعاد إلى الشّرق الأوسط مارّاً ببغداد، ثمّ توجّه منها إلى دمشق التي مكث فيها شهراً ووصفها كما سنرى، وذهب بعد ذلك إلى السّاحل الشّامي وغادر البلاد من مرفأ صيدا إلى قبرص فمالطة، حتى وصل إلى بلده البرتغال، حيث اختتم رحلته عام 1643.

يتّصف أسلوب مانريك بالرواية الشخصيّة، فنجده يهتمّ بذكر ما وقع معه من أحداث أكثر من اهتمامه بوصف ما يرى. وكذلك يشتمل أسلوبه على ازدراء واضح لكلّ الشعوب التي زار بلادها، وعند كلامه على سكّان الشّام ودمشق أبدى كثيراً من التحامل والتعصّب، لكنني حذفت ذلك من النص، وتركت ما يختص بالوصف والرّواية الشخصية.

قامت بنشر كتاب رحلات مانريك جمعيّة «هاكلوت» الجغرافية البريطانيّة The Hakluyt Society المختصّة بنشر الرّحلات الأوروبيّة إلى الشّرق وغيره[1] وطبع الكتاب في لندن عام 1927 ثم في لشبونة عام 1946.

---

(1) نشرت الجمعية من هذه الرّحلات مئات الكتب، التي تؤلف مكتبةً ضخمةً، ولم يُترجم منها إلى العربيّة شيء، لكننا سنعمد إلى اختيار ما يفيدنا منها في سلسلتنا هذه.

WORKS ISSUED BY

The Hakluyt Society

TRAVELS OF
FRAY SEBASTIEN MANRIQUE
1629–1643

VOL. II: CHINA, INDIA, ETC.

SECOND SERIES
No. LXI

ISSUED FOR 1927

صفحة عنوان الطبعة القديمة للكتاب عام 1927

مدينة دمشق

بعد مضيّ سبعة وثلاثين يوماً على مغادرتنا بغداد، حططنا الرّحال في مدينة دمشق العظيمة، أو كما يسمّيها أهلها «الشام» Sciam، عاصمة بلاد الشام قاطبةً، والتي يطلق عليها بعض الكتّاب - نظراً لمكانتها الفائقة - اسم «جنّة الأرض». ولديهم من الأسباب الكثير لإطلاق هذه التسمية، فبالإضافة إلى مناخها الصحّيّ الرائع العائد إلى هوائها اللّطيف النّقي، تنعم المدينة بوفرة عظيمة في المياه الرّقراقة التي تجري في أنحاء المدينة قادمة من عدّة ينابيع.

والمدينة مشيّدة في وسط سهل فسيح على سفح جبل لبنان Libanus، وتبلغ مساحتها فرسخين. ويحيط بها سور مزدوج متين، ترى في بعض جنباته تلك الشّعارات الحربيّة الظّافرة العائدة إلى ذلك القائد الفرنسيّ الشّهير الماجد، الذي خلّد اسمه بشجاعته ومآثره الباهرة، حتى صار اسمه بين أسماء التسعة الأوائل من مشاهير الرجال[1].

ولا زال على السور المذكور بوّابة يُسمّيها المسيحيّون «بوّابة القديس بولس»، وقريباً منها يحدّدون المكان الذي كان يقوم عليه منزل حنانيا التقيّ.

وهذه المدينة محميّة أيضاً بقلعة تقوم في وسطها، وهي مبنيّة بشكل مربّع ومسوّرة بجدران صُلبة ومحاطة بخندق، ولها مدخل واحد فقط في جهتها الشّرقيّة، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعه إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديديّة[2].

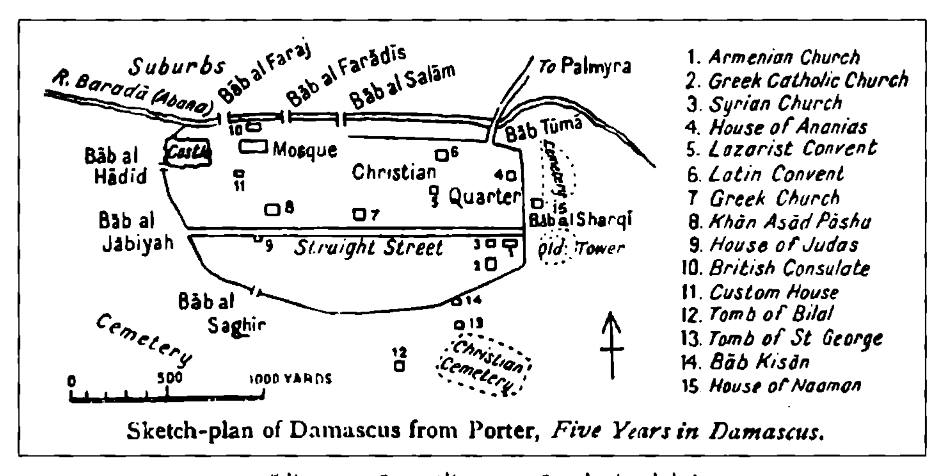
* * *

(1) يلاحظ تمجيد الكاتب لفرنسا، لأنّه على مذهب الكاثوليك الذي كانت فرنسا تعدّ الحامي الأول له. وأخطأ الكاتب أيضاً بنسب شعار زهرة الزّنبق بدمشق إلى فرنسا (رغم أنّه لم يصرّح بذكرها لكنّه يعنيها)، والغالب أنّها شعار نور الدّين الذي رمّم سور دمشق وأبراجه. لكن من هو القائد الشهير الذي يقصده هنا؟ لعله يعني ملك فرنسا لويس السابع الذي كان أحد قادة الصليبيين الثلاثة الذين حاصروا دمشق عام 1148 م، ومنوا بفشل ذريع.

(2) ظهرت ركائز هذا الجسر مؤخراً في حفريات عام 2007 ولم تكن معروفة قبل ذلك.

والمدينة مجمّلة بحدائق غنّاء بهيجة، وكذلك بعدّة مبانٍ فخمة، وأهمّ ما فيها مسجدها الكبير (أي المعبد الإسلامي)، والتكيّة التي ينزل بها الحجّاج[1]، وحمّامات السُّوق، ومنها ساحة فخمة للغاية مربّعة الشّكل ومحاطة بأواوين جميلة ذات أقواس، تمتلئ دائماً بمختلف أصناف الأطعمة.

وهذه المآكل تنمو بكميّات وافرة في ضواحي هذه المدينة الغنيّة، نظراً لخصوبة تربتها وللسِّقاية الثرّة التي توفّرها المياه العذبة لنهري «أبانا» و «فرفر» المنسابَين فيها، وهذا ما دعا النّعمان الآرامي إلى امتداحها في التوراة.



Sketch-plan of Damascus from Porter, *Five Years in Damascus.*

مخطط عام لمدينة دمشق القديمة ضمن السّور
كما يرد في طبعة لندن 1927 نقلاً عن رحلة پورتر 1850-1855

وثمّة سبب آخر لمكانة هذه المياه عدا عن إخصابها للتربة، وهو تميُّزها بخاصيّة معيّنة تفيد الصَّياقل (أتباع ڤولكان Vulcan) - أي صنّاع السّيوف - بإنتاج أجود الشّفرات وأقساها[2]، عبر سقايتها في هذه المياه.

* * *

(1) أي التكيّة السّليمانية في المرج الأخضر، التي بنيت عام 962 هـ / 1554-1555 م.
(2) المقصود سيوف الفولاذ الدمشقي الفائق، الذي انقرض سرّ صناعته مع الأسف. وكان يعرف باسم فولاذ الجوهر، أو: جوهر ضبان (عن التركية Taban التي تعني الشفرة).

وكذلك فإنّ حقول هذه البلاد الخصبة تغلّ زيتوناً طيّباً ذا حبَّة كبيرة، وبعض أشجار الزّيتون هنا تحمل في مواسمها ثماراً أكبر من الزيتون الضّخم الذَّائع الصِّيت الذي ينمو في منطقة «الشّرف» Aexarafe في إشبيلية. ومما لا يقصر عن هذا كلّه أهميّة في زيادة عظمة وغنى مدينة دمشق، وجود مصنع هام بها كبير ومشهور[1]، به أنوال عديدة تُنسج عليها أصناف متعددة من الأقمشة الحريريّة المُقصَّبة، والمنسوجات المطرّزة بخيوط الذّهب والفضّة. وعدا هذا المصنع، هناك في جميع أنحاء المدينة أنوال أخرى عديدة في كثير من الدور الخاصّة.

* * *

بعد أن أتممنا مشاهدة وتفحّص كلّ هذه الأشياء، حصل ما منعنا من متابعة رحلتنا على التوّ، وذلك لأنّ جميع الأقمشة العائدة إلى جمَّالنا ودليلنا احتُجزت بسبب بعض الدُّيون التي استحقّت عليه، وطالما أن أقمشتنا أيضاً كانت معه، فقد وجدنا أنفسنا مجبرين على الانتظار في هذه المدينة ما يزيد على ثلاثين يوماً على حساب وقتنا.

وخلال هذه الفترة، أُتيحت لنا فرصة مشاهدة رحيل قافلة مَحَمَل الحجّ، التي تذهب في كلّ سنة إلى مكّة، حاملةً أصنافاً متنوّعةً من البضائع. وهذه القافلة تتألف من ستة آلاف جمل كما علمنا، ومن جَمع غفير من الناس، منهم تجار ومنهم مكارية، وفضلاً عن عدد كبير من الحجّاج الذين يذهبون بإيمان عميق إلى مكّة.

ولقد كان من عادة هؤلاء البرابرة عندما يحين موعد انطلاق قافلة الحج تشكيل موكب عظيم وفخم، وتسييره عبر الطرقات الرئيسيّة في المدينة. ويرافق هذا الموكب الباشا Baxa - أي والي دمشق - تحفّ به مظاهر الأُبّهة، ومعه مجموعة تمثّل أعيان البلد وأشرافها.

---

(1) هذه معلومة مهمة عن تركّز حرفة النسيج آنذاك بدمشق في مصنع محدّد كبير.

ويسير الجميع مرتدين الحلل النفيسة الزّاهية، ممتطين خيولهم المطهمة ذات الجلائل المزركشة، بينها يسير الباشا وأمامه الشّعار الذي يرمز إلى منصبه[1]، وخلفه ثُلّة من العسكر النّظاميّين بلباسهم الرسميّ التركيّ. وفي وسط كلّ هذه الأُبّهة والأنساق تُحمل على طول الموكب كسوة خضراء من قماش الأطلس المطرّز بالذَّهب، إنّها هديّة سوف تقدّم إلى ضريح الرّسول (ﷺ).

وعند اختتام مسيرة هذا الموكب الجليل تغادر القافلة المدينة. ثم بعد أيام من رحيلها قدّر الله هطول ثلوج كثيفة، ممّا أدّى حسب ما سمعناه من أخبار إلى دفن ثمانية عشر ألفاً من الجمال تحت الثُّلوج، والعديد من الفقراء وعامّة النّاس. وكان ما حدث يتوجّب علينا النظر والتفكير، وتلقَّيناه بوجوم، لأنّه كان نذيراً بالعاصفة التي قد تصيبنا نحن، وكذلك لأنّ الآباء الفرنسيسكان الكپوشيين المقدّسين، الذين حللنا في بيتهم، كانوا يقومون بكل جهد ممكن لتأمين سفرنا. وبخاصّة الأب الرّاهب ميغيل آنخِلو فرانثِس Miguel Angelo Frances الذي فضلاً عن مساعداته لنا، كان يعمل ما بوسعه لتسفيرنا، بما تتميّز به كنيسته من مساعدات كبيرة تلقّتها من أتباع نفس المذهب في سانت أوغسطين ببلاد فارس وبعض المناطق الأخرى في الهند. ولهذا السبب لم يألُ هذا الرجل المخلص أيّ جهد لمساعدتنا.

وهكذا، كنّا أتممنا استعداداتنا للانطلاق عندما صادف وصول قافلة إلى دمشق قادمة من حلب، وكان بين ركّابها رجلان يهوديّان من موظّفي الجمرك. وعندما علم هذان اليهوديّان بقدوم بعض البرتغاليّين إلى دمشق من الهند في القافلة الآتية من بغداد، قاما على الفور بالذّهاب إلى الباشا وإطلاعه على أمرنا، وأخبراه بأنّنا أتينا محمّلين بالأحجار الكريمة، وأنّنا تركنا سلوك الطّريق المعتاد بغية التّهرُّب من دفع المكوس الواجبة علينا في حلب، وأنّنا كذلك أخفينا البضائع التي كانت بحوزتنا، وهي تخصّ ملك البرتغال Grand Señor.

---

(1) هذا الشعار الذي يميّز الباشوات الولاة كان يتألف من السنجق (الراية) العثمانية، ويُعقد في أعلاه عدد من ذيول الفرس (طوغ أو چاليش)، يدل عددها على رتبة الپاشا.

فعندما أُعلم الباشا بهذا الأمر، أرسل على الفور جنديّين من الإنكشارية صحبة اليهوديّين، فقدِما رأساً إلى منزل الآباء الكبوشيّين، علماً منهما أنّنا كنّا هناك. فلم يجدا في المنزل سوى الرّاهب الأب ميغيل آنخِلو وزميلي في السَّفر الرّاهب آسّيْوْمو[1] Anselmo، فأخذاهما فوراً إلى الباشا بعد أن قاما بختم المنزل بختمه. وفي هذه الأثناء سرعان ما وصلتنا الأخبار بما حدث إلى كنيسة الموارنة التي كنت قد ذهبتُ إليها لحضور القُدّاس، مع الراهب الأب أنطونيو نانتانس Antonio Nanetense، وهو شخص فرنسيّ. وعندما علم هذا الأخير بما وقع، اصطحبني على التّو عبر بعض الأزقّة الخلفيّة وأودعني في منزل أحد الموارنة الكاثوليك. تلقّانا هذا بكلّ حفاوة، ومن ثمّ قام بإخفائي في مكان سرّي تحت الأرض، لم يكن فيه من نور سوى ضوء شمعة واحدة.

لبثتُ في هذا المكان تسعة أيام بمشقّة بالغة، بينما قام هذان اليهوديّان الغادران باحتجاز كل ما وصلت إليه أيديهما من أمتعة، ولم يتركا لنا حتى الخرائط والأوراق التي كانت بحوزتنا. ولكنّهما عندما لم يعثرا على ما تصوّرا وجوده معنا، خفتت حدّة تعنُّتهما وأطلقا الرّاهبين بعد معاملة قاسية. وحيال ما حدث، قام الأب آنخِلو بإرسال الأب آسّيْوْمو إلى بيروت، ومن بعده أرسلني إثر بضعة أيام على طريق صيدا التي وصلناها بفضل العناية الإلهية بسلام، بعد مسيرة خمسة أيام. لكننا وصلنا شبه متجمّدين، بسبب الثُّلوج الكثيفة التي أصابتنا على الطريق.

* * *

(1) لفظ الاسم بالبرتغاليّة عسير لمن لا يعرف اللغة، وهي لغة صعبة من حيث النّطق. فهنا لا تلفظ النّون ولا اللام، بل هكذا: آسّيه - و - مو، وحرفا الواو يلفظان هكذا: ou وليس o كما يظن القارئ. أمّا الرّاهب ميغيل آنخِلو فرانِس الذي تقدّم ذكره فاسمه بالإسپانية، ومن الواضح أنه إسپانـي. واسم الرّحالة مانريك له مقابل في الإسپانية بلفظ: مانريكِه.

مصادر البحث:

1- وصف دمشق في القرن السابع عشر، من مذكرات الفارس دارڤيو، نشرها أحمد إيبش، دمشق 1982.

2- روّاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى: نقولا زيادة، مطبعة المقتطف والمقطّم، مصر 1943.

3- دمشق في عهد المماليك: نقولا زيادة، منشورات مكتبة لبنان، بيروت 1966.

4- دمشق في مرآة رحلات العصور الوسطى: د. أحمد إيبش، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي 2009.

5- Wright, Thomas: *Early Travels in Palestine*, London 1848.

6- Broquière, Bertrandon de la: *Le Voyage d'Outremer*, Editeur: Ch. Schefer, Paris, Leroux, 1892.

7- Belon du Mans, Pierre: *Les Observations de Plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Arabie, etc.* Paris, 1553.

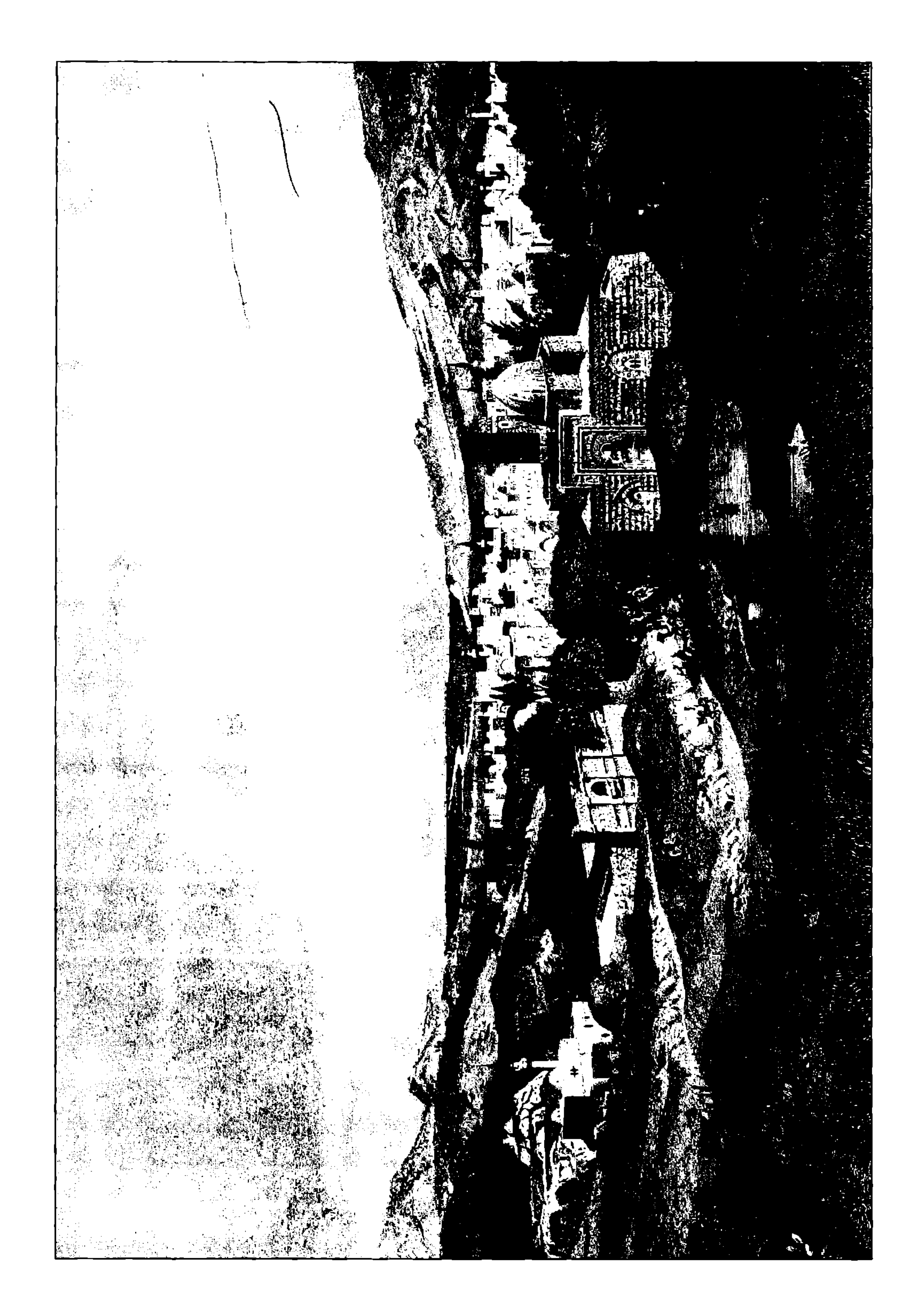
8- Manrique, Sebastien: *Travels of Fray Sebastien Manrique, 1929-1943*, published by Hakluyt Society, London, 1927.

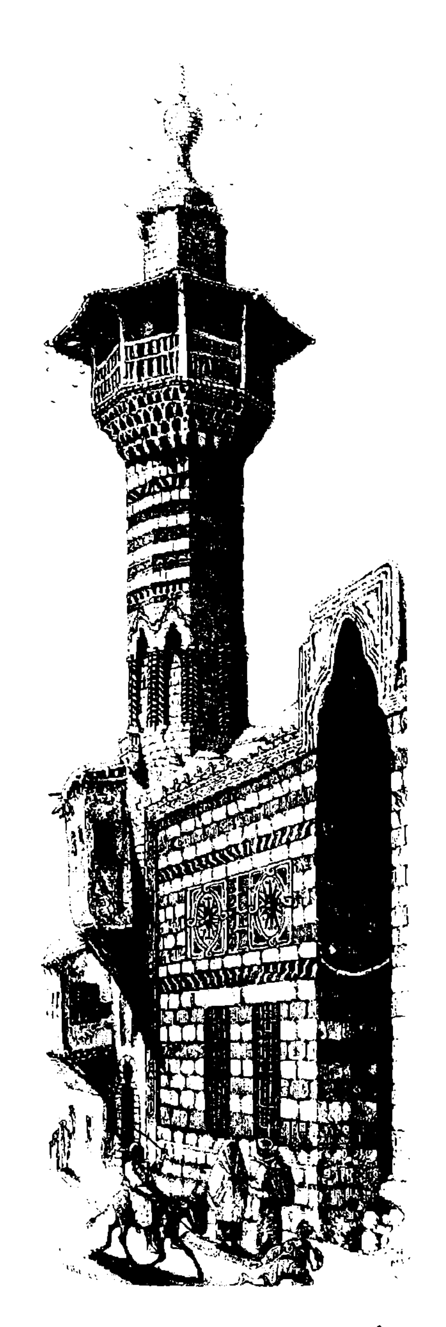
9- *Itinerário de Frei Sebastião Manrique, A.D. 1929-1943*, edição prefaciada e organizada por Luís Silveira, Lisboa, Agência Geral das Colónias, 1946. 2 volumes.

* * *

دمشق عام 1677، نُقيشة من كتاب الهولندي أولفرت داپر Olfert Dapper ⇦







نُقيشة من القرن التاسع عشر
تمثل دار القرآن الصّابونيّة

دمشق في القرن السابع عشر

نص للرحالة الفرنسي «لوران دارڤيو»

Laurent d'Arvieux

1660 م

تندر الإشارة إلى (مذكرات الفارس دارڤيو) في المراجع، وقد لفت انتباهي إليها كتاب الرحّالة البريطانـي جوزاياس لزلي پورتر (خمسة أعوام في دمشق):

Porter, J. L.: *Five Years in Damascus*, 1850-1855, vol. I, p. 25.

يذكر مؤلف الكتاب أن الرّحالين الذين سبقوه بالكتابة عن دمشق لم يذكروا شيئاً ذا أهمية علمية، خلا ملاحظات هامة كتبها الفارس دارڤيو عن دمشق في الجزء الثانـي من مذكراته، وقال إن فيها معلومات دقيقة وأوصافاً لبعض المبانـي الأثرية التي زالت في عصره (أي عصر پورتر)، وقد استفاد منها وأشار إليها مراراً في كتابه المذكور آنفاً. هذا وأشير إلى أنّ كتاب پورتر ذاته ثمين جداً، وسنعمل على نشره في العام القادم ضمن سلسلتنا هذه.

* * *

أما مؤلف هذه المذكرات لوران دارڤيو Laurent d'Arvieux فهو مواطن فرنسي من عائلة عريقة إيطالية الأصل. ولد في مرسيليا عام 1635 م وعاش فيها وتعلّم في مدارسها، ثم دخل جامعتها لدراسة الفلسفة فأظهر نبوغاً وحصّل معرفة واسعة بالعلوم والفنون واللغات. وكان لديه ميل إلى الرياضيات واللغات الأجنبية، فكان يتقن من اللغات المشرقية: العربية والعبرية والتركية والفارسية، بالإضافة إلى اليونانية العاميّة.

بعد وفاة والده عام 1650 قرر دارڤيو السفر إلى الشرق لمزاولة التجارة مع أبناء خاله من آل بِرتانديه Bertandié، فأبحر من مرسيليا في السادس من تشرين الأول عام 1653 وأخذ يجوب بلاد الشرق الإسلامي، فكانت أول مدينة زارها إزمير في تركيا، ثم قضى في صيدا فترة خمس سنوات يعمل بالتجارة بنجاح. وبعدها قام بجولات في البلدان القريبة فزار مصر ومرافئها الشمالية، وزار فلسطين وكثيراً من مدنها الساحلية، والداخلية كالقدس التي أسهب في وصفها وعدّد أسماء الزيارات فيها. وشاهد الأردن والبحر الميت، ثم جال في الساحل اللبناني وذهب برحلة من جبل لبنان إلى دمشق عام 1660 ماراً ببعلبك فحماة ثم حمص حتى وصل إلى دمشق، فسلك طريقاً بعيداً عن الممرّ الجبلي الذي يمرّ عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية، ويبدو أنه آثر ذلك الطريق طلباً للأمان، إذ أن الطريق الجبلي ـ المعروف اليوم ـ كان محفوفاً بالمخاطر لوجود قطاع الطرق ولصعوبة تسلق مراقيه.

وبعد فترة أخذ بالطواف في شمال أفريقية، إلى مواطن البربر (المغرب) وتونس فالجزائر حيث عُيّن قنصلاً. ثم زار الباب العالي بالقسطنطينية موفداً فوق العادة فيها بأمر من ملك فرنسا لويس الثالث عشر. وبعدها سافر إلى حلب فكلّفه الملك بأمور القنصلية الفرنسية فيها عام 1679، وترك لنا في مذكراته عنها وصفاً شائقاً كبير القيمة، وبقي هناك حتى انتهت مدة خدمته عام 1686. وعُيّن الفارس كذلك قنصلاً في طرابلس الشام وغيرها.

وقام دارڤيو برحلة ثانية إلى فلسطين عام 1664 قاصداً الأمير الكبير طراباي الحارثي زعيم الأمراء العرب، وذلك بطلب من الملك لويس الرابع عشر. وطبعت أخبار هذه الرّحلة على حدة.

وأخيراً، عاد دارڤيو إلى فرنسا عام 1687 وتزوّج فيها دون إنجاب، وتوفي في 30 أكتوبر من عام 1702.

كان دارڤيو طوال فترة جولاته يكتب مذكراته (بدأ بكتابتها في أكتوبر عام 1653، واستمر حتى عام 1685)، وكان ينشر بعضها في الصحف الفرنسية. نجد في هذه المذكرات الثمينة أوصافاً مفصلة للبلاد والمدن التي زارها المؤلف، وملاحظات دقيقة عن معالم الحياة والعمران فيها. وكان يخص بالكتابة سكان المناطق التي يزورها، فيصف هيئاتهم وملابسهم وعاداتهم وتصرفاتهم. ولم يكتف دارڤيو بالوصف بل كان يعيش مع أهالي الدّيار حياتهم ويقيم بينهم كأي فرد منهم، وسهّل عليه ذلك معرفته بلغاتهم.

ففي خلال مذكراته تجد في الجزء الثاني فصولاً مطوّلة عن الدّروز في صيدا وساحل لبنان، وعن تاريخهم وتاريخ أمرائهم.

وفي الجزء الثالث وصفٌ وافٍ لحياة البدو الأعراب في جبل الكرمل، لم يترك دارڤيو جانباً من حياتهم إلا وتناوله بالوصف. فذكر ضيافتهم وديانتهم وتقاليدهم وعدلهم ومساكنهم وخيولهم وترحالهم وصناعاتهم اليدوية وملابسهم وطبّهم...

كذلك في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من المذكرات وصف لحياة سكان شمال أفريقية في تونس والجزائر.

لم يقم دارڤيو بنشر مذكراته، وإنما نشرها لاحقاً الأب جان باتيست لابا، فاختصرها ورتبها وصدّرها بمقدمة عن حياة دارڤيو وقيمة مذكراته.

وطبعت المذكرات باللغة الفرنسية في ستة أجزاء بپاريس عام 1735:

MÉMOIRES DU CHEVALIER D'ARVIEUX
Envoyé Extraordinaire du Roy à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, et autres Échelles du Levant.
Par Jean-Baptiste Labat, Paris, 1735.

ومن نافل القول إنّ من واجبنا ضمّها يوماً ما إلى سلسلتنا.

وقد اخترتُ أحد فصول هذه المذكرات في وصف دمشق التي أمضى فيها رحّالتنا الفرنسي ستة أيام بين 7–12 أغسطس 1660 م، وموقع هذا الفصل من المذكرات في الجزء الثانـي، الصحائف 445–464.

ووجدت أن من المفيد أن أضيف إلى النص بعض الصور التي تمثل جوانب مختلفة من الحياة في دمشق قبل حين من الزمان، وقد انتقيتها من مصدر قديمة، بعضها يعاصر زمن الرحلة، وبعضها لاحق له.

وأما كتاب دارڤيو الثانـي، وهو عن رحلته إلى فلسطين، فعنوانه:

رحلة في فلسطين، إلى الأمير الكبير زعيم الأمراء الأعراب في الصحراء.. إلخ، مع وصف عام لبلاد الحجاز كتبه السلطان إسماعيل أبو الفداء.

D'Arvieux, Chevalier Laurent, Voyage dans la Palestine, vers le grand Émir, Chef des princes arabes du desert, etc... (en 1664) Avec la Description générale de l'Arabie faite par le Sultan Ismael Abulfeda. Traduit en français par: M. de la Roque. Paris, 1717. Amsterdam, Steenhouwer, 1718.

وهذا الكتاب نُشر على يد دى لاروك قبل نشر المذكرات، كما تُرجم إلى الإنكليزية وطبع في لندن مرتين، الأولى 1718، والثانية 1732.

ومما يستحق الذكر أن الروائي والمسرحي الفرنسي الشهير جان باتيست پوكلان (موليير) Molière عندما أراد كتابة مسرحيته المشهورة «البورجوازي النبيل» Le Bourgeois gentilhomme عام 1669، استعان بالفارس دارڤيو لإعطائه فكرة عن حياة الأتراك وتصرفاتهم وهيئاتهم وألفاظهم.. فأعطى بعض شخصيات مسرحيته دور نبلاء الأتراك، وبيّن صورة عنهم ضمن قالب مسرحي لطيف وحوار ضاحك مُسلٍّ، وأتمّها عام 1670.

* * *

MEMOIRES

DU

CHEVALIER D'ARVIEUX,

ENVOYÉ EXTRAORDINAIRE DU ROY à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, & autres Echelles du Levant.

CONTENANT

Ses Voyages à Constantinople, dans l'Asie, la Syrie, la Palestine, l'Egypte, & la Barbarie, la description de ces Païs, les Religions, les mœurs, les Coûtumes, le Négoce de ces Peuples, & leurs Gouvernemens, l'Histoire naturelle & les événemens les plus considerables, recüeillis de ses Memoires originaux, & mis en ordre avec des réfléxions.

Par le R. P. JEAN-BAPTISTE LABAT, *de l'Ordre des Freres Prêcheurs.*

TOME PREMIER.

A PARIS,

Chez CHARLES JEAN-BAPTISTE DELESPINE le Fils, Libraire, ruë S. Jacques, vis-à-vis la ruë des Noyers, à la Victoire.

M. DCC. XXXV.

Avec Approbation & Privilege du Roy.

نموذج للجزء الأول من مذكرات دارڤيو، الطبعة الأولى باريس 1735

MEMOIRES

DU

CHEVALIER D'ARVIEUX,

ENVOYE' EXTRAORDINAIRE DU ROY à la Porte, Consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli, & autres Echelles du Levant.

CONTENANT

Ses Voyages à Constantinople, dans l'Asie, la Syrie, la Palestine, l'Egypte, & la Barbarie, la description de ces Païs, les Religions, les mœurs, les Coûtumes, le Négoce de ces Peuples, & leurs Gouvernemens, l'Histoire naturelle & les événemens les plus considerables, recüeillis de ses Memoires originaux, & mis en ordre avec des réfléxions.

Par le R. P. JEAN-BAPTISTE LABAT, *de l'Ordre des Freres Prêcheurs.*

TOME SECOND.

A PARIS,

Chez CHARLES-JEAN-BAPTISTE DELESPINE le Fils, Libraire, ruë S. Jacques, vis-à-vis la ruë des Noyers, à la Victoire.

M. DCC. XXXV.

Avec Approbation & Privilege du Roy.

نموذج للجزء الثانـي من مذكرات دارڤيو، الطبعة الأولى باريس 1735



A

SON ALTESSE SERÉNISSIME

MONSEIGNEUR LE PRINCE

DE CONTI.


MONSEIGNEUR,

J'ai l'honneur de presenter à Votre Altesse Sérénissime les Memoires du Chevalier d'Arvieux Envoyé Extraordinaire

ã ij

تصدير الإهداء لأمير كونتي من مذكرات دارڤيو، الطبعة الأولى باريس 1735

PREFACE.

LEs Memoires que je donne au Public, n'ont besoin d'autre recommandation que du nom de leur Auteur pour être reçûs agréablement.

Le Chevalier d'Arvieux avoit un mérite si distingué, un génie si supérieur, des connoissances si étenduës, un goût si délicat pour les Sciences & pour les Arts, une facilité si extraordinaire pour les Langues, & une probité si reconnuë de tout le monde, qu'il n'y avoit personne à la Cour, à la Ville, dans les Provinces, dans les Païs Etrangers même les plus éloignez, comme l'Asie & l'Afrique, qui ne l'estimassent infiniment, & qui n'entretinssent avec lui un commerce de lettres & d'amitié.

Sa Famille étoit originaire d'Alexandrie de la Paille en Lombar-

ã iiij

مقدمة الجزء الأول من مذكرات دارڤيو، الطبعة الأولى باريس 1735



نقيشة من الطبعة الأولى من مذكرات الفارس دارڤيو
تمثل أحد فرسان العرب في فلسطين



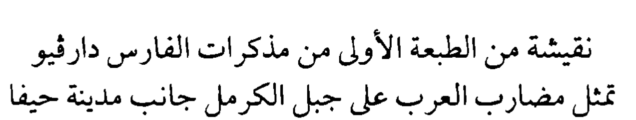
Le Grand Emir des Arabes du Desert

نقيشة من الطبعة الأولى من مذكرات الفارس دارڤيو
تمثل أمير العرب في جبل الكرمل طراباي الحارثي



نقيشة من الطبعة الأولى من مذكرات الفارس دارڤيو
تمثل زوجة الأمير الكبير طراباي الحارثي




نقيشة من الطبعة الأولى من مذكرات الفارس دارڤيو
تمثل مضارب العرب على جبل الكرمل جانب مدينة حيفا

1660.

CHAPITRE XXVI.

De la Ville de Damas.

LA Ville de Damas eſt ſituée dans une grande plaine toute environnée de montagnes, qui a huit à dix lieuës de longueur, ſur cinq à ſix lieuës de largeur. Elle a une colline mediocre à ſon Orient. La plaine eſt d'une fertilité merveilleuſe, parce qu'elle eſt arroſée par ſept petites rivieres, & par quantité de ruiſſeaux dont les eaux ſe perdent dans la même plaine, après avoir porté dans les terres & les jardins qui y ſont répandus de tous côtez une fécondité admirable.

On peut dire que ces jardins quoique ruſtiques, ſont des lieux enchantez. Ils ſont environnez d'arbres fruitiers, qui fourniſſent la Ville & celles des environs de toutes ſortes de fruits, tant pour manger dans leur ſaiſon, que pour être conſervez pendant toute l'année.

Les Caravannes portent de ces fruits à Seïde, à Barut, à Tripoli & aux autres Villes, & comme les Turcs,

الفصل 26 من الجزء الثانـي، في وصف مدينة دمشق

aussi bien que tous les autres Peuples qui y sont établis, aiment extrêmement les fruits, on ne peut s'imaginer la consommation prodigieuse qui s'y fait de pommes, de poires, d'abricots, de grenades, de raisins de plusieurs especes, de prunes, de pruneaux, de citrons, d'oranges, de limons, de figues d'Adam qu'ils appellent *Mauoz*, & de tous les autres fruits que nous avons en France, & de quantité d'autres que nous n'y avons pas.

1660.

Le froment y est excellent. On en fait du pain blanc comme la neige, & des biscuits en forme de gros anneaux, qui se conservent fort longtems. En un mot, on y trouve tout ce qui est necessaire au plaisir de la vie, & à très-bon marché.

Cette Ville passe pour une des plus anciennes du monde, & avec raison. Il seroit difficile de trouver la véritable éthimologie de son nom, cela est d'ailleurs peu important; mais il faut remarquer qu'elle a été autrefois bien plus considérable qu'elle ne l'est aujourd'hui, quoiqu'elle le soit encore beaucoup. Elle a été deux fois ruinée par les Tartares. Elle a été le théâtre de la longue & cruelle guerre qui a

وصف مدينة دمشق، التي زارها دارفيو عام 1660 م

مذكرات الفارس دارفيو

الفصل 26

مدينة دمشق

تقع مدينة دمشق في سهل فسيح مُحاط كليّاً بالجبال، يبلغ طوله من ثمانية إلى عشرة فراسخ (32-40 كيلومتراً)، وعرضه بين خمسة إلى ستة فراسخ (20-24 كيلومتراً). وفي شرقيّه تلّ منخفض[1]. ويتميّز السّهل بخصوبة مذهلة، إذ ترويه سبعة أنهار صغيرة[2]، وعدد من الجداول تنساح مياهها في هذا السّهل بعد أن تكون قد روت الحقول والغياض والبساتين، لتعمّ بها في جميع جنباتها نُضرة خلاّبة.

ينبغي وصف هذه البساتين ذات الطابع الرّيفي بأنها ذات سحر أخّاذ، تحفّ بها أشجار الفاكهة التي تتزوّد منها المدينة والمدن المجاورة بجميع أصناف الفواكه، سواءٌ للأكل في موسمها أو لحفظها على مدار السّنة.

تنقل القوافل من هذه الفواكه إلى صيدا Seïde وبيروت Barut وطرابلُس Tripoli، وغيرها من المدن. هذا وإنّ الأتراك[3] وسواهم من الأقوام الأخرى المتوطّنة هنا، كَلِفون بالفاكهة إلى أبعد حدّ.

---

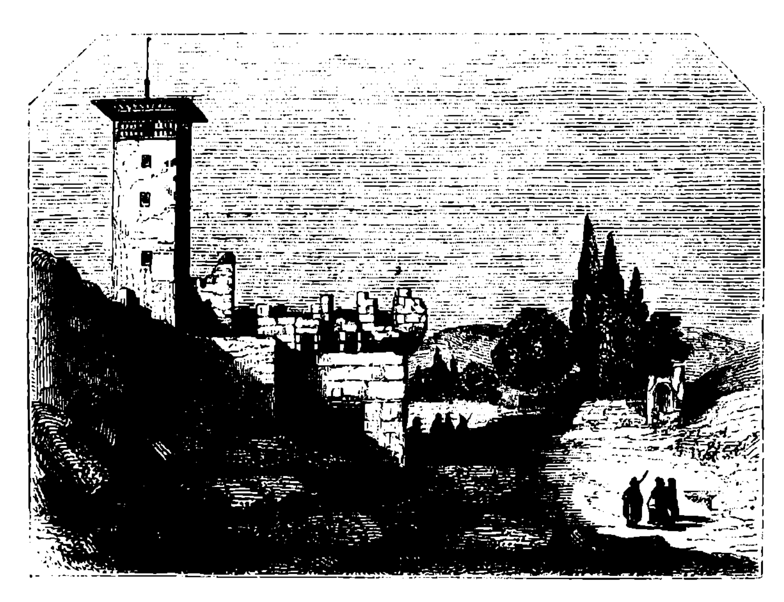
(1) التل الذي يعنيه دارفيو هو مجموعة من الهضاب المخروطيّة تبعد عن دمشق 57 كيلومتراً إلى الشرق، وتدعى «ديرة التلول»، ويمكن مشاهدة أعلاها من حي المهاجرين.

(2) الأنهار السبعة هي بردى وفروعه الستة: يزيد، ثورا، بانياس، القنوات، الدّيراني، المزّاوي. أمّا سهل دمشق عموماً ففيه نهران: بردى والأعوج.

(3) يشير دارڤيو إلى مسلمي الشام باسم: الأتراك les Turcs، سواء كانوا من التّرك أو العرب أو من أي قوميّة عرقيّة أخرى. وقد أترجم العبارة في النص أحياناً: المسلمون.

ولا يسع المرء أن يتخيّل مدى الاستهلاك الهائل هنا للتّفاح، والأجاص، والمشمش، والرّمّان، والعنب بأنواعه العديدة، والخوخ، والبرقوق، والليمون، والبرتقال، والأترج، وتين آدَم figues d'Adam الذي يسمّونه الموز Maouz، وجميع أصناف الفاكهة التي نعرفها في فرنسا، وأصناف أخرى لا نعرفها.

أمّا القمح هنا فممتاز، يُصنع منه خبز أبيض كالثلج، وكعك على شكل أطواق كبيرة يمكن تخزينها لفترات طويلة. وقُصارى القول: يوجد هنا كلّ ما يلزم من مُتع الحياة، وما يفي بإمداد سوق عظيمة.



تشتهر هذه المدينة بأنّها واحدة من أقدم مدن الدّنيا، وهذا صحيح. لعلّه من الشاقّ الاهتداء إلى أصل اشتقاق اسمها، وهذا على أيّ حال لا يهمّ كثيراً، ولكن ما ينبغي ملاحظته هو أنّها كانت في غابر الأزمان على جانب عظيم من الشأن يفوق كثيراً ما هي عليه الآن، رغم أنّها ينبغي أن تكون كذلك اليوم. ولقد دُمّرت المدينة مرّتين على أيدي التّتار، ثمّ أضحت مسرحاً للحرب الطويلة والضارية التي نشبت ما بين سلاطين مصر والأتراك، الذين تمكّنوا من إخضاعها بقيادة سلطانهم سليم الأوّل.

وهي لا تزال تابعة لهم إلى اليوم، وقد جعلوها «بكلربكيّة» Begliarbebit أي ولاية عامّة للإقليم[1]. وهي تقع بين أنطاكية والقُدس، على بُعد مُتساوٍ منهما تقريباً، إذ تبعد عن كلّ منهما بمقدار خمسين، وتبعد عن حلب ثمانين فرسخاً، وعشرين فرسخاً عن بيروت Barut.

الأسوار

ودمشق مُحاطة بأسوار مُحدثة[2]، باستثناء النّاحية التي أُدلي منها مار بولُص في سلّة[3]، حيث لا تزال هناك كما هي على حالها الأصلي، وهي هناك أشد تحصيناً بكثير من الأنحاء الأخرى. وهذه الأسوار مزدوجة في جميع أرجائها تقريباً[4]، ولها أبراج مربّعة ضخمة، تفصل بينها أبراج مدوّرة أصغر حجماً.

---

(1) بكلربكيّة: لفظة مأخوذة من التركيّة Beylerbey، وتعني: أمير الأمراء. والمقصود بها هنا الإيالة أو الپاشويّة Paşalık (وهو التقسيم الإداري الأساسي في الدولة العثمانيّة). وفي بداية القرن السابع عشر كانت الشام مقسّمة إدارياً إلى ثلاث پاشويات: پاشويّة حلب، وپاشويّة دمشق، وپاشويّة طرابلس. وهذا التقسيم قائم منذ عهد السّلطان مُراد خان الثالث، ثم في سنة 1660 م (عند زيارة دارڤيو لدمشق) أحدثت ولاية صيدا. انظر: الإدارة العثمانيّة في ولاية سورية، 62.

(2) ذلك أنّ السّور الرّوماني الأصلي للمدينة أخربه بكامله عبد الله بن علي عندما احتلّ العبّاسيون المدينة ودمّروها عام 132 هـ. ولم يبق من الأصل سوى قطعة تمتدّ بين باب السّلامة وباب توما. وأمّا إعادة بناء السّور فكانت في عهد الدّولة النّوريّة ثم في عهد الدّولة الأيّوبيّة، وكان نور الدّين الشهيد أهم من أعاد بناء السّور ورمّمه. انظر: خطط دمشق، ص 76-77.

(3) أي عند باب كيسان بالزاوية الجنوبية الشرقيّة من السّور.

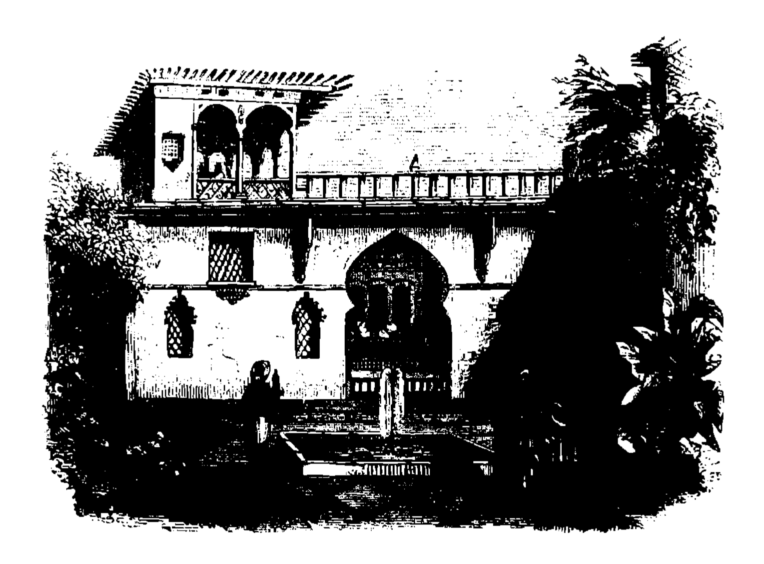
(4) لا تذكر الدّراسات الأثريّة المعاصرة ازدواج سور دمشق إلا في بعض الأماكن، مثل القطعة القائمة بين باب الفرج وباب الفراديس، فهي مزدوجة وبين قسميها يقوم زقاق «بين السّورين» ويذكر بعض الباحثين (مثل هارتمان وسلادان) أنّ السّور كان مزدوجاً من ناحية باب الصغير وباب الجابية، مستدلّين بوجود بوّابات مزدوجة لهذين البابين. ونقد هذا الرأي الأخير الدكتور صلاح الدين المنجّد في كتابه دمشق القديمة، ص 18، ثم عاد في كتابه خطط دمشق، ص 109-110 فأقرّ الرأي ازدواج السّور في تلك الناحية. انظر أيضاً: مدارس دمشق ورُبُطها وجوامعها للإربلي، ص 24. كما يذكر بعض الرحّالين الأجانب أنّ سور دمشق كان مزدوجاً بكامله:
يذكر الرحّالة الإنكليزي سير جون موندڤيل Sir John Maundeville الذي زار دمشق في عام 1322 م: دمشق مدينة كبيرة ومليئة بالسكّان، ومسوّرة بإحكام بسور مزدوج.



انظر رحلته لدى توماس رايت: .Wright, Thomas: *Early Travels in Palestine*, p. 190
ويذكر الرحّالة الإيطالي جورجو غوتشي، الذي زار دمشق عام 1384 م:
إنّ دمشق، أو الجزء المحاط بالأسوار منها، تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة فلورنسا. ويدور بها سوران: أي أنّ هناك أولاً سوراً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو 30 ذراعاً وهو خارج الخندق، وثمّة سور آخر يبعد عن الأول بين 15 و16 ذراعاً ويزيد ارتفاعه عشرة أذرع عن السور الأول. والسّوران محصنان، إذ تقوم عليهما أبراج مدوّرة كثيرة على أبعاد تبلغ خمسين ذراعاً في كلّ مرة. والأبراج أعلى من السّورين. وحول السورين يوجد خندقان، داخلي وخارجي. والمدينة المذكورة حصينة جداً بأسوارها وخنادقها.
انظر: *Viaggio di Giorgio Gucci*, p. 142. وراجع: دمشق في عصر المماليك للدكتور نقولا زيادة، ص 96.
ويذكر الفرنسي پيير بولون دى مان Pierre Belon du Mans الذي زار دمشق في عام 1549 م:
لدمشق أسوار مزدوجة كما هي أسوار القسطنطينيّة. انظر الملحق الثانـي لهذا الكتاب.
ويذكر سيباشتياو مانريك الذي زار دمشق حوالي عام 1640 (كما مرّ أعلاه): مدينة دمشق محاطة بسور مزدوج قوي. انظر: .*Travels of Fray Sebastien Manrique*, vol. 2, p. 377
ويذكر جوزاياس لزلي پورتر الذي زار دمشق بين 1850–1855 م: كانت المدينة في السّابق محاطة بكاملها بسور مزدوج، ولا تزال بقايا السّورين كليهما موجودة في بعض الأماكن التي تتصل فيها الضواحي بالمدينة، وأما على طول الجانب الشرقي فقد زال السّور الخارجي وجفّ الخندق الذي يحيط به ورُدم تدريجياً. Porter, J.L.: *Five Years in Damascus*, vol. I, p. 46
وللاستزادة عن سور دمشق، انظر ما كتبه بول تشڤدن في: دمشق دراسات تاريخيّة وأثريّة، ص 167. وراجع: رحلة سيباشتياو مانريك، ص 378، حاشية 4.

دور دمشق

أمّا الدّور بغالبيّتها العظمى مبنيّة باللّبن، وهي تبدو هزيلة الحجم من الخارج، أمّا في داخلها فالأمر مختلف تماماً، إذ أنّ الشقق فيها كبيرة وجيّدة التّخطيط، وهي أنيقة وحسنة التجهيز بالمفروشات. كما أنّها مليّسة ومزخرفة ومُزدانة بالرّسوم وفق الطابع المحلّي، باستخدام كمّيات وفيرة من الذّهب واللاّزورد. ومن أندر ما يكون أن تجد هنا داراً بلا فسقيّة ماء، تزيد من رونقها وتوفير رفاهيّتها[1].



دار دمشقيّة

* * *

(1) تجد وصفاً لدور دمشق كتب في زمن يعاصر دارڤيو في كتاب موندرل، سندرجه أدناه:
Maundrell, Henry: *From Aleppo to Jerusalem*, pp. 168-9.

وثمّة وصف دقيق وجميل لدور دمشق تجده في كتاب:
Porter, J.L.: *Five Years in Damascus*, vol. I, p. 34.

الأسواق والخانات

في المدينة بزستانات Besestins (أسواق البزّ)، حيث تباع جميع أصناف البضائع الفاخرة كالأحجار الكريمة والمصوغات والأقمشة المقصّبة بالذّهب والفضّة، والحرير، وما شابه ذلك.



دكان في البزستان



وهناك عديد من الأسواق المغطّاة، مبنيّة بمداميك حجريّة ذات سقوف معقودة بإحكام، يتخلّلها بين الحيّز والآخر كوىً تكفل إنارتها بشكل جيّد.

وعلى جانبي هذه الأسواق المغطّاة، كما في الطرقات، توجد أرصفة عالية يسلكها المارّة، وأمّا النّطاق الأوسط المنخفض منها فيُستخدم لسير العربات والدّواب[1]. وهذا التّرتيب غايته إبقاء طريق المُشاة نظيفاً على الدّوام، ولتسهيل إمكانيّة العبور في الأسواق بأيّ وقت، دون التعرّض للهواء الفاسد.

كما ينتشر في المدينة عدد كبير جداً من الخانات، الكبير منها والصّغير، لإيواء التجّار والمسافرين. وهي ممتازة البناء، وجميعها تتبع طرازاً واحداً. وإنّ الخانات التي ذكرتُها في مواضع أخرى تفي بإعطاء فكرة عن مظهر وترتيب الخانات الموجودة هنا[2]. والمستودعات توجد في الطابق الأرضي، أمّا في الأعلى فهناك أروقة تُفضي إلى الحجرات، التي لكلّ واحدة منها قبّة صغيرة مصفّحة بالرّصاص.

قلعة دمشق

أمّا القلعة فهي مضلّع كبير مستطيل الشكل، وهي مبنيّة بالحجارة المنحوتة، المحفّفة بشكل أوجه حجر الألماس. ويحيط بها أربعة عشر برجاً مربعاً: خمسة منها على كلّ من الجانبين الطويلين، واثنان على كلّ من الجانبين القصيرين. كما يحيط بها خندق يقارب عرضه 10 قامات (18 متراً)، وعمقه 3 قامات (5,4 متر). وهذا الخندق يمكن ملؤه بمياه النهر الذي يجتاز المدينة، أو من الجداول التي تحاذيه[3].

---

(1) ويسمّى في عاميّة دمشق آنذاك : الطاروق .

(2) المذكرات، الجزء الأول، ص 278، يصف دارڤيو بدقة الخان الذي بناه ابن معن في صيدا، وهو أكبر خاناتها. كما أن في الجزء الثانـي من المذكرات، ص 353 وما بعدها وصفاً لخانات بيروت.
وانظر وصف خانات دمشق في: Porter: *Five Years in Damascus*, vol. I, p. 33.

(3) لم يبق خندق القلعة طويلاً بعد هذا الوقت، إذ رُدم بسبب تراكم الأتربة وانعدام الحاجة إليه، وقامت مكانه أسواق. وورد معي في وقفية سجّلت بدمشق عام 954 هـ: نهر القلعة، فهل يعني ذلك خندقها أم نهر بانياس الذي يغذيها؟ ويذكر الرحّالة البرتغالي سيباشتياو مانريك حوالي عام 1640 م أنّ القلعة محاطة بسور متين وخندق، رحلته ص 378.

ومدخل القلعة مزخرف من الخارج بسلسلتين حجريّتين مركوزتين في متن الجدار[1]، تتألّف الأولى من ست عشرة حلقة بيضويّة الشكل، ويبلغ قطرها الأكبر قدماً ونصف القدم، وقطرها الأصغر قطره قدم واحد. ويبلغ قطر هذه الحلقات بوصتين (5 سم) على وجه التقريب. ولقد نُحتت متداخلاً بعضها في بعضها الآخر من قطعة واحدة من الحجر. أمّا السّلسلة الأخرى فليس لها سوى أربع عشرة حلقة. والأتراك يعدّون هاتين السّلسلتين عملاً فنيّاً فريداً، ولعلّهما بالفعل عمل فنّي فريد لنحّات ماهر وطويل الأناة، لأنّ هاتين الصفتين لازمتان بالضرورة لإنجاز عمل كهذا. ولقد رأيتُ ما يشابه هاتين السّلسلتين أشياء منحوتة في الخشب بأماكن عديدة، ولكن من باب الحق ينبغي الإقرار بأنّ نحت هاتين السّلسلتين أصعب بكثير.

لا يُسمح للغرباء بدخول القلعة إلاّ بغاية المشقّة، وللحصول على إذن بدخولها ينبغي للمرء أن يتزيّا كأهل البلد، وأن يكون له أصدقاء ويعرف لغتهم. أمّا أنا فكان لدي أصدقاء بدمشق، وأحكي اللغة الدّارجة هنا، كما كنت ألبس ثياباً على الزيّ التّركي. لذا، فلقد تمكّنت من دخول القلعة دون أيّ عناء.

رأيتُ عند دخولي[2] محرساً كبيراً ورحباً، مسقوفاً بإحكام بالعُقود وحسن الترتيب، وكانت جدرانه مغطاة بالكامل بالأسلحة الأثريّة والحديثة بتنسيق جميل وعناية كبيرة. وبالقرب من الباب ثلاث قطع من المدافع المسبوكة، طول كلّ منها اثنا عشر قدماً (3,6 أمتار)، وهي أنيقة جداً وتامّة التجهيز.

* * *

---

(1) لا زال ذلك كله بادياً للعيان: السلسلتان المنحوتتان في الحجر، وبينهما لوح حجري يحمل نقشاً كتابياً من العهد الأيوبي، في الجبهة الشرقية للقلعة من جهة سوق العصرونية.

(2) من الواضح أنّ دارڤيو دخل القلعة من بابها الرئيسي في جهة الشرق. ويذكر مانريك حوالي عام 1640 م أنّ مدخلاً واحداً لقلعة دمشق كان مستعملاً، وهو الشرقي، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعه عند الضرورة بسلاسل حديدية ضخمة. الرحلة، ص 378.
وفي عصرنا إلى ما قبل حوالي 25 عاماً، كانت الواجهة الشرقية للقلعة غير بادية للعيان بسبب وجود بعض الأبنية المحدثة التابعة للسجن الذي كان في القلعة.

وإلى الدّاخل قليلاً يوجد مقسم للسّكن يُدعى «القَصَبة» Cassaba، حيث تُضرب النقود (ولم يكن بدأ العمل بها آنذاك[1]) في ناحية تحت قبّة عظيمة الاتّساع ومفتوحة تماماً، ترتكز على أربع عضائد مُفرطة بالضخامة، أظنّ أنّ بإمكانها حمل قبّة مار بطرس في روما.

أمّا قاعة المجلس فتقع في أقصى فناء القلعة[2]، وهي مسقوفة بالعُقود ومزوّقة برسوم بالذّهب واللاّزورد، مع بعض آيات من القرآن تنصّ على العدل بالقضاء الذي يجري فيها. ولهذا السبب فهي تسمّى «الدّيوان» le Divan.

وعلى جانبي فناء القلعة أبنية فائقة التّرتيب، تفصل بينها ممرّات صغيرة، وتُستخدم لإيواء ضبّاط وعسكر الإنكشاريّة Janissaires الذين تتألّف منهم حامية القلعة منهم. ولمّا كانت هذه الأبنية ذات عُقود وطباق، ويرتكز معظمها إلى بَدَنات القلعة، فهي تقوم أيضاً بدور التّحصينات الدّفاعيّة. وأمّا بقيّة هذه البَدَنات فليست تتجاوز سماكتها ما يقارب القامة الواحدة (1,8 متر)، أمّا أحجار الزّاوية فهي ضخمة ومدبّبة.

هذا كلّ ما أمكنني مشاهدته من القلعة، وأمّا الباقي فلا سبيل إلى الدّخول إليه.

* * *

---

(1) يذكر الرحّالة الفرنسي جان دى تيڤنو Jean de Thévenot الذي زار دمشق في ربيع عام 1664 م وشاهد قلعتها أنّ المكان الذي يُسكّ فيه النقد بالقلعة يعمل به اليهود. انظر:
Thévenot, Jean de: *Relation d'un voyage fait au Levant*, p. 434.
ويُفهم بالمقارنة أنّ سكّ النقود قد بُدئ العمل به آنذاك بين صيف عام 1660 (زيارة دارڤيو) وربيع عام 1664 (زيارة دى تيڤنو) أي بين 1071-1075 هـ.
ويبدو أنّ يهود دمشق كانوا يشرفون على سكّ النقود منذ زمن غير يسير، بدليل ذكر ابن طولون الصالحي (عام 922 هـ): صدقة اليهودي، معلّم دار الضرب بدمشق. مفاكهة الخلاّن، 2: 16.

(2) أي بالجهة الغربية منها ، وهو يقصد الزاوية الجنوبية الغربية ، لأنّ فيها كان القصر الأيّوبي الذي اكتشفه المرحوم نسيب صليبي. وتقابله بظاهر القلعة دار السّعادة، التي بناها نور الدّين محمود بن زنكي، ثم أعاد بناءها الملك العادل أبو بكر بن أيوب.

الظاهريّة والجَقْمَقيّة

لدى الخروج من القلعة، ذهبنا للفرجة على مسجد تبلغ مساحته عشرين خطوة مربّعة (15x15 قدماً)، تعلوه قبّة مصفّحة بالرّصاص، وجدرانه منزّلة بالفُسيفساء مع زخارف بالذّهب واللاّزورد تضفي عليه أعلى درجة من الرّونق. وهو مفروش بالرّخام، وفيه ضريح أحد سلاطين مصر المدعو الملك الظاهر[1] Melek Dhaher.

وليس يبعد منزل الدّفتردار le Defterdar (أي ناظر ماليّة دمشق) عن هنا كثيراً. ويتّصل به مسجد صغير يعجّ بالمرمر والذّهب واللازورد[2]. ولقد عمّر هذا المسجد أحد نُظّار الماليّة بقصد أن يردّ إلى الله ما كان احتجنه ظلماً من حقوق النّاس. والدّار مبنيّة على طراز معماري شرقي حديث، يسمها بطابع من الذّوق والرّهافة والجمال.

وأحد موظفي الدّفتردار[3]، وهو صديق لأصحابي، أتاح لنا بمشاهدته إدراك كل ما يوجد في دور الأعيان الأتراك: قاعات كبيرة، حسنة التقسم ومريحة جداً، مزخرفة ومفروشة على أروع مثال. وممّا يضفي على الدار مزيد الرونق سيّالات الماء الموجودة في جميع الشبابيك، وهي نوافذ نحاسية مشغولة بأبدع اتقان.

* * *

(1) المسجد المذكور هو ضريح الظاهر ركن الدّين بيبَرس البُنْدُقداري الموجود في المدرسة الظاهريّة. ولو أن دارڤيو لم يحدّده بالاسم، وقد سمّاه مسجداً لأنّ القبّة الغربية التي بها ضريح الظاهر كانت تستخدم كمصلّى، وبها محراب جميل مغشّى بالفسيفساء.

(2) من الواضح تماماً أنّه يقصد المدرسة الچقمقيّة التي تقع في محلّة الكلاّسة شمالي الجامع الأموي، وتطلّ عليه وعلى ضريح النّاصر صلاح الدّين. وفي محرابها وجدارها القبلي زخارف جميلة على النحو الذي يصفه دارڤيو، وهذه المدرسة أحد أجمل آثار المماليك بدمشق، وعمارتها على نسق قاعات قصور المماليك، يمكن مقارنتها بالمدرسة الشاذبكيّة (مسجد الشابكليّة اليوم).

(3) الدّفتردار Defterdar: كلمة فارسية منحوتة من لفظتين: دفتر وتعني السجل، ودار تعني الحامل ومعناها مدير الماليّة. وكان لكل پاشويّة عثمانية دفترداها الخاص بمثابة مديرها المالي.



قاعة المدرسة الجقمقيّة

أجمل نموذج بدمشق لقاعات القصور المملوكيّة

العدسة المستخدمة: Carl Zeiss Jena Flektogon 20mm f/2.8

وإنّ ما أبصرته من خلال هذه النوافذ هو كل ما يستطيع المسيحيون رؤيته من جامع دمشق الكبير، وكنت مكرهاً على أن أكتفي بذلك، لأنّ من المحظر على المسيحيين دخوله إلا بشقّ الأنفس[1].

كان جامع دمشق الكبير في سالف الأيام كنيسة أمر بتشييدها الإمبراطور هرقل[2] لتكريم القديس زكريّا والد القديس يوحنّا المعمدان. ويُزعم بأن هذا القديس الكبير مدفون فيه، ولهذا السبب يولي التّرك حُرمة فائقة لهذا المكان.

والمسجد أحد أروع الصّروح القائمة في الإمبراطورية العثمانية. وهو مبني على طراز كنائسنا، ولم يغيّر فيه التّرك (المسلمون) أي شيء تقريباً[3]. يبلغ طوله ثلاثمائة خطوة (225 متراً)، وعرضه ستين خطوة (45 متراً)، وتقوم أجنحته الثلاثة على عُمُد من الرّخام واليَشْب والپُرفير[4]، وجدرانه موشّاة بالفسيسفاء مع زخارف بالذهب واللازورد.

يُدخل إليه عبر اثني عشر باباً جميلاً، ذات مصاريع مكسوة بالنحاس المنقوش. وتزين الأبواب أعمدة غاية في الروعة. والباب الرئيسي منها يُفضي إلى صحن مبلّط بالرخام الأبيض الذي يبلغ من شدّة صقله وبريقه أنه يشبه زجاج المرايا، وتحفَّ بجوانب هذا الصحن أروقة مفتوحة ترتكز على رتلين من أعمدة الرّخام واليَشْب والپُرفير، بها زخارف معمولة بغاية الاتقان.

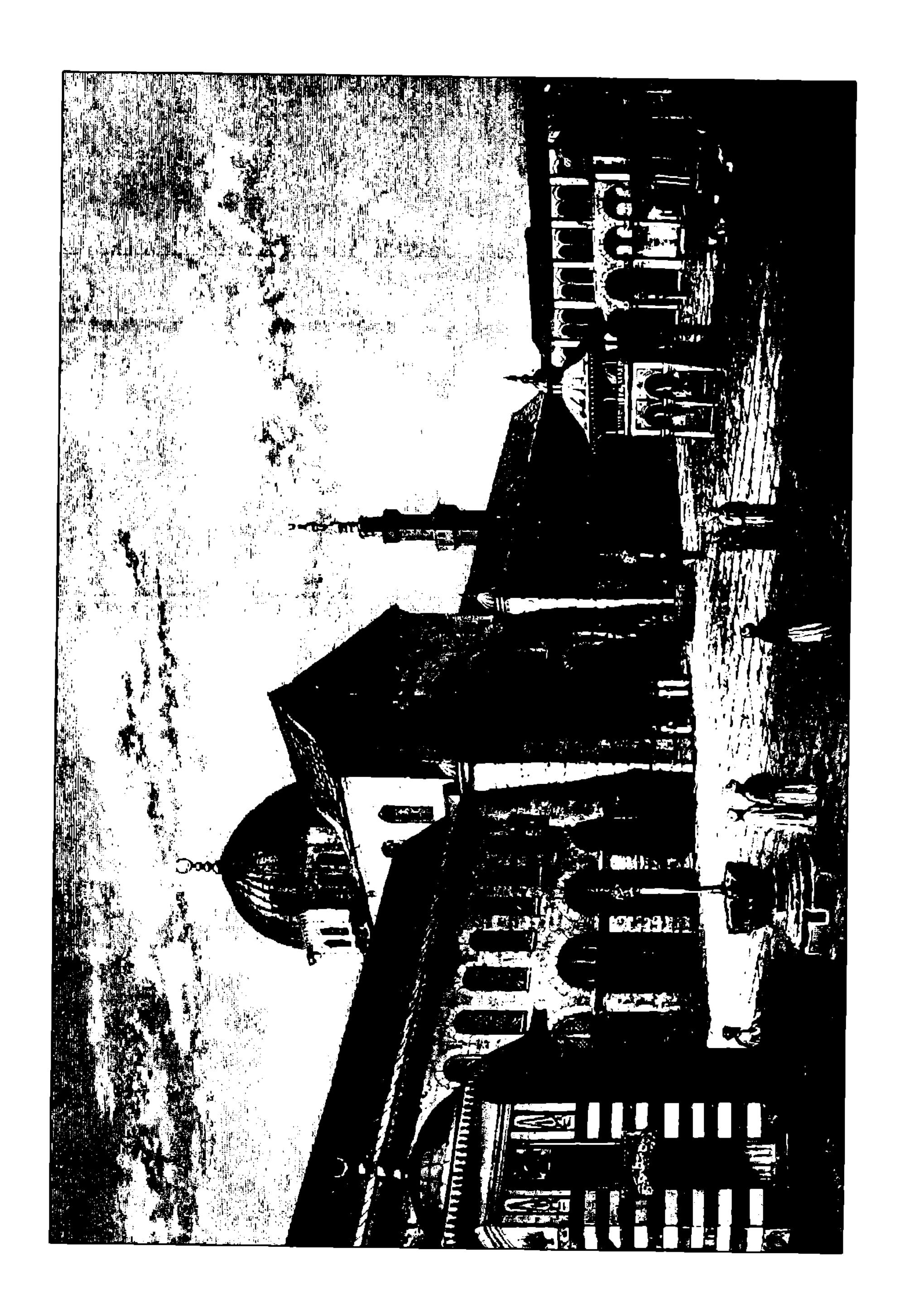
---

(1) هذا غلط، فالذي أمر ببناء الكنيسة الكاتدرائية كان الإمبراطور الرّوماني ثيودوسيوس الأكبر. غير أنّ هرقل أعاد ترميمها بعد استرداده القدس ودمشق من أيدي الفرس سنة 629 م.

(2) ولهذا السبب لا يعثر الباحث على أية رسوم أو صور للجامع الأموي من عمل الأوروبيين إلا في القرن التاسع عشر، ما خلا بعض الرسوم الخيالية (كرسم الرحّالة الرّوسي بارسكي).

(3) هذا الرأي مغاير للواقع، فعندما بني جامع دمشق غيّرت بالكامل معالم الكنيسة السابقة، بل إنّ الوليد سوّى الكنيسة بالأرض. انظر: دائرة المعارف الإسلاميّة، مادة «دمشق» لريخارد هارتمان. وراجع المصادر الإسلامية المعتمدة، كتاريخ دمشق لابن عساكر، 2: 17-24. ولقد توسّعت في هذا المبحث بكتابي: «جامع دمشق الأموي الكبير، بيت الله ودرّة دمشق».

(4) البُرفير مفردة معرّبة Porphyre: الرّخام السّماقي، ملوّن بالأحمر والبني.



وهذه الأروقة مصوّرة ومذهبة، وبها فسقيات وأجران مرخّمة، يتوضّأ منها التّرك. والاحترام الذي يبدونه لهذا الجامع يبلغ أقصى الحدود، حتى أنهم يخلعون نعالهم قبل دخول الصحن.

ومن المؤسف أنني لم أتمكن من دخوله، وتأمّله على مهل ورسم بدائعه الفريدة، فلا شك أن هواة الفنون وأصحاب الذوق الرفيع كانوا وجدوا بذلك كثيراً من المتعة. بل كان هذا كل ما استطعت أن أشاهده وأستقصيه من أصحابي من المسلمين.

* * *



الشارع المستقيم

إنّ الشارع المستقيم la Rue droite في الوقت الحاضر سوق مغطى[1]. ولقد شاهدنا فيه سبيل ماء يستند إلى عضادة ضخمة، ويُزعم أنه في هذا المكان بالذات تمّ تعميد مار بولص على يدي حنانيا، وحيث ارتدّت إليه الباصرة[2]. وهذه العضّادة تسمى: العمود العتيق la colonne antique. ويُقال إنّ حنانيا دُفن تحت قاعدتها أو بمحاذاتها[3].

* * *

(1) الشارع المستقيم معروف بدمشق، يمتد بين الباب الشرقي وباب الجابية شاطراً المدينة نصفين. كان يدعى باللاتينية في زمن الرومان *Decumanus Maximus* (وبالعاميّة: *Via Recta*)، ويسمى القسم الأعظم منه اليوم بسوق مدحت باشا. كتب الخوري أيوب سميا مقالة مطوّلة عن هذا الشارع بمجلة النعمة في عدة أجزاء.

(2) حول تعميد بولص انظر: أعمال الرسل، 9: 10-18.
وحدد پورتر في خريطة كتابه *Five Years in Damascus* مكان منزل يهوداه (انظر الصفحة التالية) في مأذنة الشحم بالدرب المستقيم (على الرصيف الجنوبـي من الدرب) وعلى بعد حوالي 300 متر من باب الجابية. وبما أن كل المصادر تذكر قرب السبيل المذكور من منزل يهوداه، فبالإمكان نسب السبيل إلى نفس الموقع.
وبمراجعة وصف ابن عساكر لدمشق (ج 2، ص 57) نجد في ذلك المكان سبيلاً واحداً لا غير يدعى «سبيل الشيخ» فلربما كان هو نفس المذكور. ومن الجائز أن تكون الدعامة الضخمة التي يستند إليها السبيل أحد الأعمدة الكورنثية الكبيرة التي كانت تقوم على جانبي الدرب المستقيم في العهد الرومانـي. ويذكر برتراندون دي لا بروكيير الذي زار دمشق عام 1433، أن المكان الذي جرى فيه تعميد بولص جزء من جامع للمسلمين. ولكن هذه الملاحظة قد تكون فيها بعض اللبس، وربما كان يقصد بذلك منزل يهوداه حيث اعتكف بولص قبل أن يتعمد.

(3) يذكر الرحالة الإنكليزي پوكوك الذي زار دمشق عام 1745، أن حنانيا مدفون في منزل يهوداه. انظر الصفحة التالية.

ذهبنا إثر ذلك لمشاهدة بيت يهوداه[1] Judas الذي أعتكف فيه مار بولص ليتلقّي أصول الديانة المسيحيّة.

والحجرة الصغيرة التي صام فيها ذلك الرسول ثلاثة أيام بلياليها، لها باب كبير ذو مصراعين مصفحين بنصال من الحديد مثبّتة بمسامير ضخمة. فإن كان الباب الذي نراه اليوم هو ذاته الذي كان بأيام الرسول، لكان الموضع إذن أشبه بالسّجن من أي شيء آخر.

* * *

---

(1) يهوداه هذا هو غير المعروف برواية خيانة عيسى عليه السلام وصلبه المزعوم، وإنما المذكور هنا أحد سكان دمشق. وقد حدّدت موقع منزله في الحاشية مسبقاً عند الكلام عن السبيل الذي تعمّد فيه بولص. والعلاقة بين المنزل والسبيل كما يذكر الرحالة پوكوك، أن بولص بعد رؤياه وإيمانه بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام نزل في منزل يهوداه حيث جاءه حنانيا ولقّنه التعاليم ثم قام بتعميده في السبيل المذكور، وهو قريب من المنزل بإشارة دارڤيو وپوكوك.
ويصف پوكوك هذا المنزل: «فيه غرفة صغيرة، تستخدم حالياً كمسجد، وفيه قبر يزعم أنه ضريح حنانيا. ويوجد العديد من قطع الأعمدة الرخامية حول المنزل وداخله، إنها بقايا معبد كان موجوداً هناك في السابق». انظر:
Pococke: *A Description of the East*, Vol. I, p. 119.
كما يذكر هنري موندرل أنه أُعلم بأن حنانيا مدفون في قبر بمنزل يهوداه، ويضيف أن المسلمين يحترمون صاحب هذا الضريح وقد جعلوا فوقه قنديلاً ليلاً ونهاراً. انظر:
Maundrell: *From Aleppo to Jerusalem*, p. 179.
وبافتراض أن منزل يهوداه تحول إلى مسجد، فإننا نجد في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ج 2، ص 57): «مسجد ابن لبيد بالفسقار، وعلى بابه سقاية الشيخ وقناية الشيخ ـ مسجد الفرجية عند القطانين ورأس القلانسيين، بقرب سقاية الشيخ».
والمحلات المذكورة تطابق بالمكان «مئذنة الشحم» التي أشرنا إليها آنفاً، وبمراجعة خريطة كتاب «ثمار المقاصد في ذكر المساجد» ليوسف بن عبد الهادي، نجد مسجدين ينطبقان على الموقع المحدد حصراً، هما: مسجد الخريزاتية، ومسجد الخياطين.. فلربما كان منزل يهوداه وضريح حنانيا هناك؟
أخيراً، فمن المهم الإشارة إلى أنّ يهوداه هذا (أو يهوذا بالآراميّة) كان أحد أفراد كنيسة أورشليم التوحيديّة الأولى، التي آمنت بالمسيح (عليه السلام) نبياً مرسلاً، ورفضت أشدّ الرفض دعوى تأليهه. وكان بولص بالذات، بعد رجوعه إلى القدس ثم جولاته في آسيا الصغرى، هو من دعا إلى نبذ التوحيد، والدعوة إلى تأليه البشر وأنسنة الإله، وفق فلسفة اليونان.

لدى الخروج من المدينة من الباب المسمّى «باب شرقي» Babel Cherki، تُشاهد بقايا كنيسة كان المسيحيون بنوها تكريماً لمار بولص[1]، ولم يبق منها سوى برج الجرس الذي لمّا يزل قائماً بأكمله، وهو قديم للغاية، في حين استخدم التّرك ما تبقى منها لإقامة خان لإيواء المسافرين.

* * *

برج بظاهر الباب الشرقي

وعلى بعد مئة وخمسين خطوة (112,5 متراً) من هذا الباب (الشرقي) خلف الخنادق، يوجد برج مربّع ضخم، منفصل منفرد بذاته، وعلى جدرانه زهرتا زنبق وأسدان منحوتة بنقش بارز[2]، وفي وسطها لوح كبير من الرّخام منقوش بحروف عربية، لم يُتح لي الوقت لنسخها، لأنه ليس من المسموح التوقّف وتحرّي الأسوار والإنشاءات التحصينيّة للمدينة.

ويلي هذا المكان على بعد ثلاثمئة خطوة (225 متراً) باب حجري[3]، ومن فوقه تم تدلية مار بولص في زنبيل لتهريبه من أيدي اليهود الذين أرادوا قتله.

وقبالة هذا الباب ضريح جرجس البوّاب[4]، الذي أدين بتهمة تسهيل هروب مار بولص وبأنه على دين المسيحيّة، ولأجل هذين السببين تمّ قطع رأسه. ويعدّه مسيحيّو البلدة شهيداً، ويقيمون قنديلاً مُناراً فوق ضريحه.

---

(1) تقع هذه الكنيسة القديمة خارج سور دمشق الشرقي عند المقابر المسيحية، ولا تزال بقاياها قائمة إلى الآن. وأما الكنيسة الموجودة حالياً عند مدخل باب كيسان باسم «كنيسة مار بولص» فهي حديثة، أقيمت سنة 1939 بمساعدة من الفرنسيين، وقام بهندستها أ. دولوري.

(2) انظر حول ذلك الملحق الأول على هذا النص.

(3) هو باب كيسان، الذي ذكرنا أعلاه أن كنيسة محدثة أقيمت عليه.

(4) ذكر پورتر (ج 1، ص 42) أن قبر جرجس يواجه باب كيسان على بعد 40 ياردا (36 متراً)، وكان مغطى بقبيبة خشبية. والقبر لا يزال موجوداً إلى اليوم. وبلغني أن تقليد إضاءة القنديل فوق القبر بقي حتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين.

ومنزل حنانيا ـ سواء كان حقيقياً أو افتراضياً ـ يقع بين الباب الشرقي وباب مار توما، حيث تُشاهد مغارة يُزعم أنّه قام بتلقين ذاك الرّسول الكبير (بولُص) بها[1]. ولست أفهم ما الضرورة اللازبة التي لزمت لإدخاله في سرداب تحت الأرض لتلقينه التعاليم. لكن يبدو أنه كان مرغوباً به حسب المتواتر إضفاء بعض الشأن على تلك المغارة، بتصويرها أنها استعملت لغاية مقدّسة.

ويُشاهد في المكان ذاته مدخل سرداب، وهو مسدود حالياً، كان يتم عبره التوصل إلى بيت يهوداه[2]. والأتراك يجلّون هذا البيت، وكانوا راغبين بتحويله إلى مسجد، غير أن مسيحيي البلدة يؤكدون أنهم لم يتمكنوا من التوصّل إلى ذلك، ذلك بأن المغارة يُقيم فيها بعض الناس بشكل مُشترك. وفي النهاية إن لم تُنظّم أمورها سوى تنطمر من جرّاء أحواض التراب التي يحضرونها إليها مع جُذرة نار مشتعلة لإحراق البخور على شرف هذا الرسول الذي يجلّه التُّرك ربما أكثر مما يجلّه المسيحيون أنفسهم.

* * *

---

(1) يذكر پوكوك الذي زار دمشق عام 1745 م: «بيت حنانيا يشبه قبواً تحت الأرض، وقد حوّل إلى مسجد». انظر: Pococke: *A Description of the East*, p. 119.

ويصف پورتر (عام 1855) بيت حنانيا ومغارته ثم يقول: «وبجانب المغارة أطلال كنيسة الصّليب القديمة التي ذكرها ابن عساكر (يعني المصلّبة)، وككثير من الكنائس الأخرى في المدينة، آلت هذه إلى عهدة المسلمين الذين استخدموها كمسجد لوقت طويل قبل خرابها». انظر: Porter: *op. cit.*, vol. I, p. 56.

وذكر الدكتور محمد أسعد طلس جامعاً باسم «جامع حنانيا» كان وراء كنيسة حنانيا. (ذيل ثمار المقاصد، ص 210).

راجع أيضاً ما كتبه حبيب زيات في مجلته «الخزانة الشرقية» عن حنانيا وكنيسته، وهو يرى أن المصلّبة هي نفسها كنيسة حنانيا القديمة البيزنطية. وتوجد اليوم في المحلة المذكورة كنيسة مجددة باسم «كنيسة حنانيا» مشهورة تزار.

ولحنانيا أيضاً دير ينسب له بضواحي دمشق (انظر: دير حننيا ـ الخزانة الشرقية، 2: 105).

(2) والمسافة بين المنزلين تبلغ كيلومتراً تقريباً. والمتواتر لدى مسيحيي دمشق أن دمشق كان بها عدد من هذه السراديب، ويُتناقل اليوم أن في الرواق الغربي من الأموي بلاطة يُسمع من تحتها عند النقر عليها صدى، يُقال بأنها مدخل سراديب يؤدّي إلى كنيسة حنانيا.

إثر مضيّ يومين لوصولي إلى دمشق، تلقّيتُ بريداً عاجلاً من صيدا، يحمل نبأ وصول مركب من مرسيليا، مع رسائل أعلمتني بوفاة والدتـي. لقد آلمني هذا الخبر كثيراً، وكم تمنيت لو أن المركب وصل متأخراً خمسة عشر يوماً، كيما تتسنّى لي الفرصة لمشاهدة هذه المدينة الكبيرة. على ذلك، توجّب علي مبارحة دمشق والإياب إلى صيدا، حيث لزم حضوري لأسباب وجيهة.

وكنت لأعتزمنّ الرحيل في صبيحة الغد لولا أن الرسالة التي أُرسلت لي حذرتني من أن الدروب غير مأمونة، حيث أن الدروز قد حملوا السلاح عاصين في وجوه والي صيدا، وهم يوقفون ويسلبون جميع الداخلين إلى المدينة والخارجين منها. وبنتيجة ذلك تعيّن علي انتظار فرصة السفر برفقة إحدى القوافل.

ولحسن الحظ، كانت هناك واحدة يتعيّن رحيلها بعد يومين أو ثلاثة. كما وجدت بها بعض الأصحاب الذين رافقتهم من قبل. وفي انتظار ساعة الرّحيل، تابعتُ على عجل زيارة ما تبقى لي رؤيته في المدينة وأرباضها[1].

* * *

(1) ذكر دارڤيو في بداية الفصل السابع والعشرين من كتابه أنه غادر دمشق في 12 أغسطس عام 1660 م، فعلى ذلك يكون قد دخلها في يوم 7 منه ـ غالباً ـ وقضى فيها ستة أيام فقط (أي من يوم الأحد 11 ذي الحجة من عام 1071 هـ إلى الجمعة 16 منه).

ذهبت إلى المكان الذي خُسف فيه ببولُص عندما قدم إلى دمشق لاضطهاد المسيحيين[1]. يقع هذا الموضع في نواحي أقصى السهل المحاذي للطريق الكبرى الآخذة إلى مصر، وقبالته قرية تسمّى «كوكب» *Konkhab*، التي تعني النجم، وهي تقبع في وطأة من الأرض بين رابيتين صغيرتين.

وثمّة مصحّ بظاهر المدينة، يوضع به المُصابون بالبَرَص[2]. ويُقال إنه شُيّد على بيت نُعمان، القائد الذي شُفي من البَرَص على يدي النبي إليَشَع Elisée . كما أنّ هناك مشفى يُعزل فيه المجانين، يسمّى المرستان.

* * *

---

(1) انظر خبر الرؤيا في أعمال الرسل (الفصل التاسع: 3 ـ 5). وقد ساد الاعتقاد في العصور الوسطى أن موضع هذه الحادثة كان قرب كوكب (أو كوكبا)، انظر:

Jac. de Vitry: *Hist. Jerus.*, in: *Gesta Dei per Francos*, p. 1073.

ويذكر ابن عساكر ذلك أيضاً نقلاً عن وهب بن منبه.

وتدعى هذه البلدة اليوم «خربة كوكب»، وهي تابعة لجديدة عرطوز ـ قضاء قطنا. ويمر من قربها رصيف روماني قديم يدعى Via Marina كان يتم السفر عليه من دمشق إلى القدس ومصر. انظر: الريف السوري، ج 2، ص 405.

ويذكر پوكوك أنه قد قيل له إن المكان موجود على بعد نصف ميل شرقي دمشق عند مقابر المسيحيين قرب كنيسة بولص (التي بنيت فيها بعد)، ويستغرب كون هذا المكان لا يقع على طريق القدس الذي يجب أن يكون إلى الجنوب بدلاً من الشرق، فقيل له إن الطريق كان يمر سابقاً شرقي دمشق.

وينفي پورتر حدوث الاهتداء عند كوكب، ويثبته في المكان الذي ذكره پوكوك وحدّده بنفس الموقع في خريطة كتابه:

Porter: *Five Years in Damascus*, Vol. I, p. 43

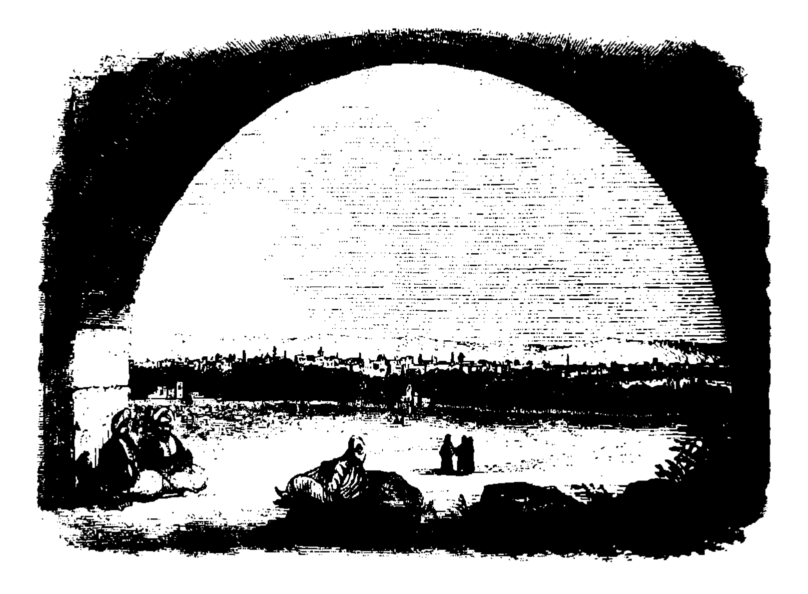
ويضاف إلى الرأي الأخير أن المسيحيين بنوا كنيسة لتكريم بولص في مكان قريب من موضع الرؤيا، وقد يكون لاختيارهم المكان علاقة بالحادثة.

ونفى الخوري جوزيف نصر الله (من أدباء النبك) أن الحادثة حصلت عند كوكب، بأن بولص لم يكن ليستطيع قطع هذه المسافة (18 كيلومتراً) من كوكب إلى دمشق على قدميه فاقد البصر. وكتب نصر الله في ذلك رسالة أسماها: *Souvenir de St. Paul*.

(2) (سفر الملوك الرابع، الفصل 5: 1 ـ 14). ويقع منزل النعمان شرقي دمشق خارج سورها. ذكر الرحالون هذا المنزل بكثرة ووضعوا له بعض الرسومات. والنعمان هذا كان قائد جيش ملك آرام بنحدد (بن هدد) الثاني الذي حكم دمشق قبيل عام 854 ق.م. وكانت المحلّة في القرن التاسع عشر تُعرف بالقعاطلة (أي الجذماء)، وهي اليوم مسجد ضرار بن الأزور.

الصّالحيّة

وقريباً من هنالك توجد قرية تسمّى الصالحيّة *Sahalhié*، تقع على سفح هضبة[1]، يطل منها المشهد على السهل برمّته، فيبدو رائعاً برونقه ونضارته وتنوّعه. وغالبية أعيان دمشق لهم في الصالحية دُور للنزهة، جميلة جداً ومؤنقة، من حيث المشهد البديع الذي تطلّ عليه، والبساتين التي تحفّ بها، والمياه العذبة الرقراقة التي تجري في مجمل أنحاء السفح.



منظر من الصالحيّة من قبّة سيّار

ثمّة زاوية للدراويش الذين يتولّون بكل إجلال المغارة التي يُقال إن أهل الكهف ناموا فيها منذ عهد ديسيوس[2] Decius إلى عهد ثيودوسيوس الشاب Theodose le Jeune. فإن كانت الرواية صحيحة، فهي تبرّر لهم تسميتهم بالنائمين أو النوّامين، ولا أخال أحداً في الدنيا يماريهم في ذلك.

---

(1) يعني جبل قاسيون، وحدود الصالحية كانت تشمل السفح بأسره، من بساتين النيرب شمالاً إلى الشرف الأعلى ونهر بردى جنوباً، ومن الربوة غرباً إلى بساتين أبو جرش وحدّ القابون شرقاً.

(2) إمبراطور روماني حكم بعد الإمبراطور فيليب العربي بين الأعوام 249 ـ 251 م.

السّهول الغربية

إن السهول الموجودة على بعد فرسخين من دمشق، على الطريق الآخذ إلى بعلبك، تتميّز بجفاف عجيب. فالأمطار لا تصيبها على الإطلاق. والتّرك يقولون إنّ في ذلك الموضع جرت حادثة قتل قايين أخيه هابيل[1]، وحيث قام كل منهما بتقديم أضحية. غير أن اليهود يُنكرون ذلك، ويزعمون أن تلك الجريمة المروَّعة وقعت في أراضي «بيت إيما»[2] Beithima، حيث تتشابك عناقيد العنب الفاخر الذي يُعمل منه زبيب دمشق. وفي اشتباك الجدل الدائر بينهما قد يختلف الناس في الرأي، أما ما لا ريب فيه فهو أن هذه الأعناب، وإن كان منبتها في ديرة جافة، طيّبة جداً وحبّتها كبيرة وفائقة الحلاوة، وليس بها إلا نواة واحدة. كما أنه بالإمكان حفظها لفترة مديدة، لأنّ بها نسبة قليلة من الرّطوبة.

---

(1) من المشهور لدى مسلمي دمشق أن قايين قتل هابيل في جبل قاسيون، وهناك مغارة منسوبة لذلك تدعى «مغارة الدم». ويروى عن كعب الأحبار أن المكان في جبل دير مرّان، وهذا الدير قريب من مكان مغارة الدم. انظر: فضائل الشام ودمشق للربعي، ص 62؛ الإشارات إلى معرفة الزيارات للهروي، ص 11.
أما السهول التي ذكرها دارڤيو فهي الجرود القاحلة الواقعة على طريق دمشق ـ الزبداني ـ بيروت، المعروفة باسم «الصحراء». ولم أجد في الكتب من يذكر أن قايين قتل هابيل هناك، ولكن في منطقة قريبة، على ذروة جبل شاهق يطل على قرية (سوق وادي بردى ـ قضاء الزبداني) من جنوبها، يوجد بناء كبير ذو قبّتين بيضاويتين تظهران من مسافات شاسعة، وهو مزار يدعى «قبر هابيل» أو «النبي هابيل»، يزعم أن هابيل مدفون فيه. ولهذ المزار حرمة بالغة لدى الدروز، وهم يزورونه باستمرار (الريف السوري، 2: 364).
وانظر أيضاً: Kelly, Walter: *Syria and the Holy Land*, p. 184.
وينقل ابن الحوراني عن أبي الحسن المسعودي في كتابه «مروج الذهب» أن الحادثة وقعت في برية قاع قرب دمشق. (الإشارات إلى أماكن الزيارات، ص 20).

(2) في الأصل: Beithima، ولم أجد ما ينطبق على هذا الاسم باللفظ سوى «بيت تيما» القرية التي يعني اسمها بالسريانية: بيت اليتيم. وبيت تيما (والأصح: بيت إيما) بلدة صغيرة تابعة لقضاء قطنا، إلى الجنوب الغربي من دمشق. لكنني لم أعثر على نص تاريخي يقرن بين مقتل هابيل وبين «بيت تيما»، ففي سفر التكوين مثلاً (الفصل 4: 1 ـ 16) نقرأ الخبر دون تحديد لمكان حصوله.
وأذكر هنا أن ضبط دارڤيو للمفردات باللغة الفرنسية لم يكن دقيقاً، ولعل ما أثبتّه كان صواباً. فهو مثلاً أثبت اسم قرية كوكب كذا: Conkhab.

أما اليهود فيؤكدون بأن جفاف هذه الديرة هو من جرّاء اللعنة التي اجترّها نمرود Nembroth على نفسه بشروعه في بناء برج بابل. وما كان نمرود وحده هو من قام ببناء هذا البرج، فلم يكن بمقدوره إنجاز ذلك بآله وحدهم، مهما كان عددهم المُفترَض كبيراً. بل إن جميع الأقوام الذين تحدّروا من نوح وأولاده الثلاثة [سام وحام ويافث]، نووا هذه النيّة عندما ألجأتهم الحاجة إلى الافتراق وقصد الأرجاء الأخرى من العالم للتوطّن بها وإعمارها. ولم تكن الغاية من نيّتهم بناء برج يكفي ارتفاعه للتحرّز من طوفان آخر، ذلك أن الله كان وعد نوحاً بأنه لن يعمد ثانية إلى هذه البليّة المهلكة لمجازاة بني البشر، وأظهر له قوس المطر (قوس قُزَح) ضماناً على وعده. وهذا لا يعني أنه لم يكن ثمّة قوس قُزح قبل ذيّاك الحين، بل إنّ الشكل الذي يظهر به كان على الدوام ذاته ما قبل الطوفان وبعده. غير أن الله أظهره ليطمئن نوحاً النبي وأولاده، وليذكر به الوعد الذي أعطاه إياه في كل مرة يريه بها هذه العلامة على رحمته.

فوقر في ظنّ أولئك القوم الذي طغت أعدادهم كثيراً، بأن من اللائق أن يتركوا أثراً لذراريهم، كيما يُدركوا أنهم يتحدّرون جميعاً من أصل واحد، وأنهم تناسلوا من أب واحد، غير أنهم لمّا أحجموا عن استئذان الله قبل الشروع في ذلك، ولمّا كانوا بهذه النيّة يقترفون ضلالة عظيمة، فلقد بلبل الله ألسنتهم التي كانت تجمعها لُغة واحدة عامّة، ومن هذه اللغة الواحدة تشعبّت لهم اثنتان وسبعون لغة حسب رأي بعض الكَتَبة، ومن جراء هذا التعدّد الكبير في اللغات ما عاد بمقدور واحدهم التفاهم مع الآخر، وألجأتهم هذه البلبلة إلى التفرّق والتشتّت في جميع الأصقاع. وهكذا، على هذا النحو أُعمرت الأرض كلها، وتشكّلت فيها شيئاً فشيئاً الأمم المختلفة التي تقطنها اليوم، وهي رغم أنها تنحدر من أرومة واحدة ومن أب واحد، قد أضحت اليوم متغايرة في عوائدها وطبائعها وأديانها، لا بل حتى بسحنات وجوهها وقاماتها، وأمور أخرى قد تجعلها تبدو وكأنها تتجذّر من أعراق مختلفة، ولو أن الدين والكتب السّماوية تثبت ما هو خلاف ذلك.

قرية جوبر

تقع القرية المسمّاة «جوبر» Jubar على بعد نصف فرسخ من دمشق، ولا يسكن بها إلا اليهود دون أن يخالطهم أحد من الأمم الأخرى[1]. ولهم هناك مغارة يُطلعون عليها الزوّار، يقولون إن النبي إيليا اختبأ فيها عند هروبه من اضطهاد الملكة إيزابل[2] Jezebel. ومدخل هذه المغارة كوَّة واطئة، يُنزل منها في سبع درجات منقورة في الصخر، تُفضي إلى مغارة تقارب مساحتها أربع خطوات (3 أمتار) مربعة. وثمّة ثلاث حنيات صغيرة تشبه خزائن مفتوحة، يضع فيها اليهود ثلاثة مصابيح مُنارة. وهناك كوّة أخرى كانت الغربان تجلب له منها قوته من الطعام خلال الأربعين يوماً التي أمضاها فيها.

ولليهود فوق هذه المغارة كنيس[3].

---

(1) هذا غلط، وفي مصادر تاريخ دمشق في عهود الإسلام إشارات كثيرة على وجود مسلمين بها.

(2) في رواية سفر الملوك الثالث، الفصل 19 (على اعتباره نصاً تاريخياً لا أكثر): «فقال له الرّب إمض فارجع في طريقك نحو برية دمشق ... ـ 16 ـ ... وامسح إليَشاع بن شافاط من آبل محولة نبياً بدلاً منك». ولم يرد في سفر الملوك تحديد المكان الذي قصده إلياس عليه السلام في بريّة دمشق، وإن كان في جوبر أم لا، لكن هذا ما ساد لدى اليهود عموماً. بيد أن حديثاً روي عن كعب الأحبار أنه قال إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدّم عشر سنين، حتى أهلك الله الملك. (قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير الدمشق، 2: 241).
والمكان المقصود في جبل قاسيون تحت مغارة الدم المشهورة بأعلى الصالحية، ولم أجد ما يدعم هذا الرأي. وفي حديث آخر عن بعض مشيخة دمشق: «أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة – أو قال أربعين ليلة – تأتيه الغربان برزقه» ـ المصدر السابق، 2: 242. راجع أيضاً تاريخ دمشق لابن عساكر، ج 2: ص 102 ـ 109.

(3) لا زال هذا الكنيس الأثري موجوداً في جوبر، وفيه مغارة النبي إلياس عليه السّلام (يدعوه اليهود إيليا أو إلياهو). وعند مدخل الكنيس لوحة رخامية حديثة على الأرض كتب عليها: «في عام ثلاثة وأربعين وثلاثة آلاف للخليقة، وفي هذا المكان مُسح إليَشاع بن شافاط نبياً عن يد إلياهو النبي عليه السلام». إنما ما السند التاريخي لذلك؟ لا سند جازم له.
يتزامن التاريخ المذكور مع أواسط القرن التاسع ق. م، أي منذ حوالي 2700 سنة، وقد ورد في التلمود البابلي منذ أكثر من ألفي عام: **כנישתא דבי גובאר**، أي «كنيس جوبر المقدس» (ظناً) (براخوت ـ 7). براخوت هي الرسالة الأولى من سِدِر زراعيم، أول مباحث التلمود الستة التي تتألف منها المشنا (متن التلمود). انظر: Lewis: *op. cit.* p. 183. ، لكن في التفسير الرسمي

ومن خلال دهائهم أفلحوا في إيهام التّرك المتطيّرين بأنهم سوف يلاقون حتفهم إن هم تجرؤوا على سُكنى هذه القرية[1]، فحرموا مغارتهم من تشريف، إلا أنهم أنفسهم ما كانوا يقصّرون في تأدية ذلك.

***

لهَجَداه التلمود (بطبعة Soncino): דאבי גיבר تعني: كنيس «أبـي جيبر» (اسم رجل)، وليس كنيس جوبر. وهذا بالتالي ينفي أقدميّة الكنيس، ويعني أن نسبته منحولة.

وفي رحلته بين عام (1238-1244 م) زار الرحالة الرابـي يعقوب (مبعوث حاخام باريس) هذا الكنيس ووصفه بأنه جميل للغاية. انظر: Adler: *Jewish Travellers*, p. 126.

وكتب الرحالة الإيطالي موشيه باسولا دي آنكونا في مذكرات رحلته (1521 ـ 1522 م): «وعلى بعد ميل من دمشق مكان يدعى جوبر، وفيه كنيس جميل للغاية، لم أر مثيلاً له في حياتـي، إنه مقام بالأعمدة.. منها إلى اليمين ستة، وسبعة أعمدة أخرى إلى اليسار. وفي أقصى هذا الكنيس مغارة لطيفة يقولون إنّ إلياهو النبي اختبأ فيها، ويضيفون أن الكنيس قائم منذ أيام إليَشاع، وفيه حجر يُروى أن حزائيل مُسح ملكاً عليه، وقد قام الرابـي إليعيزر بن آراخ بتجديد الكنيس. وهو بالفعل مكان مهيب، وحسب ما أخبرنـي كثير من الناس لم يستطع أي غاز احتلاله، وقد حصل فيه كثير من المعجزات. وفي أزمنة اضطهاد اليهود، كانوا يختبؤون فيه دائماً ولم يكن بوسع أحد أن يؤذيهم فيه».

انظر نشرة برنارد لويس: Lewis: *A Jewish Source on Damascus*, p. 183

وإليعيزر بن آراخ المذكور رابـي مشهور من القرن الأول الميلادي، تلميذ يوحنان بن زكاي. أما أزمنة اضطهاد اليهود المشار إليها فكانت في أيام حكم الرومان.

وثمة وصف للكنيس مشابه لما ذكره دارڤيو، كتبه الرحالة الفرنسي جان دى تيڤنو في مذكرات رحلته إلى الشرق (1655-1668 م): «.. ويجدر بالمرء أيضاً الذهاب إلى قرية تسمّى جوبر، تبعد عن المدينة نصف فرسخ. وهي ليست مأهولة إلا باليهود، وفيها لهم كنيس تشاهد بأقصاه مغارة إلى الجانب الأيمن، تبلغ مساحتها أربعة أقدام مربعة، والداخل إليها ينزل عبر فتحة في سبع درجات منحوتة في الصخر. ويقال إن هذا المكان هو الذي اختبأ فيه النبي إيليا هارباً من طلب الملكة إيزابل له. وترى في المغارة أيضاً الكوّة الذي كانت الغربان تمد إيليا منها بقوته في خلال أربعين يوماً، وفيها ثلاث كوى صغيرة تستخدم لوضع ثلاثة قناديل تبقى مضاءة على الدوام».

انظر: Thévenot: *Relation d'un voyage fait au Levant*, p. 437.

وخلاصة القول إن يهود دمشق يعدّون هذا الكنيس أقدم كنائس دمشق على الإطلاق، ولا زالوا إلى اليوم معتادين على زيارته أيام السبوت مشياً على الأقدام، للصلاة فيه.

(1) عند ذكر أهل صيدنايا من السريان يرد ما يشابه ذلك، انظر ما يلي من خبرهم.

وقد جاء في كتاب فضائل الشام ودمشق للربعي (ص 47) قول لربيعة بن عبد الله ابن الهُدير يذكر فيه دمشق، وفي سياقه: «وإيّاك وأرباضها، فإن في سكناها الهلاك».

سهل برزة

وغير بعيد عن هنا، يقع السهل الذي حارب فيه إبراهيم وهزم الملوك الخمسة الذين سبوا لوطاً وأسرته[1].

---

(1) هذا السهل هو برزة: يقول ابن طولون في كتابه «ضرب الحوطة على جميع الغوطة»: «برزة: وهي قرية شرقي الصالحية في الجبل. بها مقام إبراهيم يقال إنه ولد فيه، وقيل بل اختبأ فيه، وقيل بل صلّى فيه، وقد أفردتُ لما ورد فيه جزءاً» - (ضرب الحوطة، مجلة مجمع دمشق، العدد 21 (1946): ص 154). والجزء الذي ذكره ابن طولون أسماه «منح الجليل فيما ورد في مقام الخليل»، وقد عدّده بين أسماء مصنفاته في كتابه الذي بسط فيه سيرته الذاتية: «الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون»، ص 47.

وذكر ابن طولون أيضاً في كتابه «ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر» في معرض تعداده لمتنزهات دمشق: «ومنها قرية برزة شرقي جبل قاسيون، يهرع الناس إليها لزيارة مقام الخليل عليه السلام أعلاها أيام استواء تينها» - (ذخائر القصر، مخطوطة الجامعة الأميركية في بيروت، ورقة 2 ب).

انظر أيضاً: فضائل الشام ودمشق للربعي، ص 69؛ تاريخ دمشق لابن عساكر، 2: 100 ـ 101؛ الإشارات إلى أماكن الزيارات لابن الحوراني، ص 23-24؛ الريف السوري لوصفي زكريا، 2: 101.

وقيل إن إبراهيم عليه السلام حارب الملوك المذكورين في صحراء يعفور (شمال غرب دمشق) وهزمهم هناك ثم تبعهم إلى برزة. منتخبات التواريخ لدمشق لمحمد أديب تقي الدين الحصني، ج 1، ص 372 وما يليها.

والمؤرخ يوسيفوس في القرن الأول الميلادي يذكر برزة باسم «مقام إبراهيم»، انظر:

Josephus, Flavius: *Antiquities*, chapter 7, section 2.

راجع أيضاً سفر التكوين، الفصل 14، جاء في الفقرة 15 منه: «وتعرف عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم واتّبعهم إلى حُوبة التي عن يسار دمشق». هذا في الترجمة الكاثوليكية للعهد القديم، أما في الترجمة البروتستانتية فنجد: «حوبة التي عن شمال -north- دمشق». لكن ليس المقصود باسم «حُوبة» برزة - كما أظن - فقد جاء في لفائف البحر الميت (xxi,23-xxii,26): وفرّوا جميعاً من أمامه حتى وصلوا حِلْبُون التي تقع إلى يسار دمشق». راجع:

Gaster, T.H: *The Dead Sea Scriptures in English Translation*, p. 265.

بينما في أبوكريفا سفر التكوين (نقلاً عن لفائف البحر الميت) (Genesis-Apocryphon, xxii) الخبر نفسه مع اختلاف بسيط: «حلبون التي عن شمال -north- دمشق». انظر:

Vermes, G.: *the Dead Sea Scrolls in English*, p. 223.

كما أن جميع المصادر السابقة تذكر دون اختلاف أن الملوك الخمسة وجنودهم عسكروا في وادي «دان» وهناك أدركهم إبراهيم وحاربهم فهزمهم ثم تبعهم إلى حوبة أو حلبون (سفر التكوين، الفصل 14: 14).

ودان: اسم قديم لسهل يقع شمالي سهل الحولة، ويمر به نهر الحاصباني.
وفي برزة مقام إبراهيم الذي ذكره ابن طولون (ومن قبله ابن عساكر)، وهو مشهد في الجبل لصيق بيوت القرية، وقد عمّر فوقه قديماً مسجد صغير، لا أعرف متى بني ومن بناه. كان هذا المقام فيما مضى من الزمان ذا حرمة كبيرة لدى مشايخ دمشق وكانوا يفضلونه عما سواه من المزارات، ويقصدونه دوماً للصلاة والدعاء، ويذكرون أن الدعاء عنده مستجاب.
واليوم ليس هناك سوى نقر صغير في الصخر بني حوله وحول المسجد دار محدثة متوسطة الحجم. ويصعد إلى هذا النقر بدرج في معبر معتم، وعلى يسار الدرج في الأعلى غرفة للزائرين يبدو أنها كانت تستخدم سابقاً كحرم للمسجد (مجرد مصلّى صغير). والغريب أن المكان بكامله غير مضاء بالكهرباء ولا ينيرون فيه غير الشمع تقديساً له. ولدى نساء القرى المجاورة اعتقاد بالغ بالمكان. فعندما زرت المقام (1981) وجدت منهن حشداً لجباً في غرفة الزوار، وأما القيّمة على المكان ـ ومعها صبية يساعدونها ـ فقد انهالوا على رأسي بالروايات الأسطورية حول المقام، ومنها: أن إبراهيم ولد هنا، وأن أمه اختبأت به خوفاً عليه من الكفار، وكيف شقت الصخر بيدها، وهنا آثار اليد وتلك آثار الدم.. وإلى ما هنالك من الروايات الأسطورية المتناقلة بين العوام البسطاء دون الاعتماد على أي نص من الحديث أو التاريخ. وكل ما في الأمر أن المكان قيل بأنه كان مقاماً لإبراهيم عليه السلام بعد حربه مع الملوك الخمسة.
ومن مظاهر تكريم هذا المقام سابقاً، ما رواه لي أحد معارفي من الدوامنة (أهل دوما): ذكر الراوي الذي عاصر ما رواه، أن مجاذيب أهل الغوطة كانوا يفدون إلى برزة في ربيع كل عام (وأحياناً في ثالث أيام عيد الفطر) حاملين الأعلام والمزاهر، وعلى رأسهم أحد مشايخ الطرق الصوفية الذي يأتـي راكباً فرسه، (أو يأتون برجل يعتقدون أنه ابن جد، أي سليل الأولياء). وكانت تخرج الوفود من جميع القرى قاصدة برزة، وهذه الوفود تسمى «سيّارات». فكان من أكبر دواعي الفرح والسرور عند أهالي كل قرية خروج سيارتهم إلى برزة لإجراء الاحتفال الآتي بيانه.. وبعد أن يتحلق الجميع حول المقام يبتدئ الذكر والتهليل مع نوبات الخليلية والطبل والمزاهر، فيشارك به الجميع بمنتهى الحماس.. حتى إذا وصل الذكر ذروته وبدأت حالات «الحضرة والتجلي» رفع الشيخ صوته عالياً: «يا الله يا جدودي.. يا الله يا أبا الحسنين.. يا الله يا خضر.. إلخ»، ثم يلكز فرسه فيدخل وإياه من باب المقام الضيق الواطئ الذي يكاد لا يتسع لمرور شخص واحد راجل ومُنحنٍ. وعندها ترتفع أصوات التكبير والتهليل بحصول هذه الكرامة المشهودة، ويعمّ الجميع الابتهاج.
ثم عند خروج الشيخ بفرسه من باب المقام يضطجع الحاضرون جميعاً على الأرض أمامه متراصين بقوة مع مواصلة الذكر والتهليل مشكلين ما يشبه بساطاً من اللحم البشري، فيعبر الشيخ بفرسه فوقهم ويدوس ظهورهم وبطونهم وسائر أجسادهم دون أن يصاب أحد بأذى، رغم أن الحصان حينما يسير فوقهم بوزنه الثقيل وحدواته الفولاذية لا تطأ قوائمه سوى لحم بشري لكثرة المضطجعين وازدحامهم. وتسمى هذه العملية «الدّوسة» وقد تجري بعد الاحتفال في ساحات القرى الأخرى كدوما وغيرها. والدوسة من الكرامات المشهورة التي يقوم بها الدراويش في كثير من البلدان، وتشتهر بها القاهرة على الخصوص.

بلدة صيدنايا

وعلى بعد فرسخ من هذا السهل، هناك مدينة صغيرة[1] تقع على جبل واطئ، لا يسكنها إلا المسيحيون، دون اختلاط بالتُّرك أو المغاربة Maures، إذ أنهم يتوهّمون أنهم سيموتون قبل أن يحول الحَول إن أقاموا بها.

وقد حدثني الراوي أنه شاهد الدوسة بدوما بنفسه، وأن أباه كان ممن داسهم الفرس. ويشترط في الشيخ الذي يقوم بهذه الخوارق أن يكون من الأتقياء الصالحين الورعين، وإلا فما يتمكن منها. ومما يزيده بعض المشايخ في الكرامات أن يؤتى له بسفود من الحديد (شيش) فيجأ به خديه من الطرفين دون أن يتألم أو تسيل منه قطرة دم. وتكون هذه الكرامة خاتمة ما يعمل يومها، ثم ينتهي الحفل ويقال: «راحت الحضرة عن الشيخ». وكان أهل برزة وسواهم يطبخون يومئذ في بيوتهم اللبنية ويطلون منازلهم ويبيّضونها بالحوارة.

وأضاف الراوي أن آخر شخص عرف عنه مقدرة القيام بدخلة باب مقام سيدنا إبراهيم ببرزة كان الشيخ محمود شيخ دوما، وبعده لم يعد هناك من له هذا القدر من التقى ليتمكن من تلك الكرامات كلها (انتهى).

وقد توقفت هذه الاحتفالات في الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات من هذا القرن. (ملحوظة: رجعت في بعض تفاصيل هذه الرواية إلى كتاب: الريف السوري لأحمد وصفي زكريا. الجزء الثاني، ص 101 ـ 102).

أقول: يبدو أن هذا التقليد كان موجوداً منذ أيام ابن طولون (القرن العاشر الهجري) بدليل قوله: «يهرع الناس إليها ـ أي برزة ـ لزيارة مقام الخليل عليه السلام أعلاها أيام استواء تينها». ورغم أنه لم يصرح بذكر تلك الاحتفالات، فيغلب على الظن أنها تعود إلى تلك الأزمنة وربما إلى ما قبل ذلك.

(1) لم يذكر دارڤيو اسم البلدة صيدنايا، ومن الواضح أنه يعنيها. ومن المراجع عن صيدنايا: تاريخ صيدنايا لعيسى اسكندر المعلوف، وخبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا لحبيب زيات. وفي الأخير بحث مستفيض عن الأيقونة، ص 106 ـ 144. راجع: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، ج 1، ص 356 ـ 357 وانظر أيضاً: رحلة برتراندون دي لا بروكيير إلى الشرق. ويرد لها ذكر مستفيض في نصوص الرحالين الفلورنسيين الثلاثة التي نشرناها مؤخراً: ليوناردو فريسكوبالدي، وسيمونه سيغولي، وجورجو غوتشي (عام 1384 م).

ومما يذكر أن هذه الأيقونة نسجت حولها مرويات عديدة خلال العصور، فمما قيل فيها إنها كانت في بعض الأحيان تستحيل لحماً بشرياً طرياً ينضح بالزيت العجائبي الذي لم يكن ينضب ولو ملئت منه آلاف القوارير في اليوم الواحد. إن هذه المرويات أغرت بالكثير من السياح الأجانب بالكتابة عن الأيقونة بمزيد من الإسهاب والإعجاب. وتكاد لا تخلو من أخبارها العجيبة مذكرات أي واحد من هؤلاء السياح.. ولكن ما هي حقيقة هذه الأيقونة، وما هو سر زيتها العجائبي؟

وسواءٌ كانت هذه الخاطرة جاءت من بنات أفكارهم، أم أنها من جانب المسيحيين تلفيقٌ يستتر بالتقوى، فإنّ هؤلاء بذلك مرتاحون تماماً من الوافدين الفضوليين.

* * *

وثمّة كنيسة مشيّدة على اسم السيّدة العذراء في النقطة الأعلى ارتفاعاً من القرية، يقوم على سدانتها السّريان[1]. وللتُّرك اعتقاد كبير بهذه الكنيسة، فهم يزورونها بإجلال بعد أن يتوضؤوا، كما يفعلون عند دخول مساجدهم. والكنيسة كبيرة، ذات سقوف معقودة، وبناؤها مُحكم. وفوق مذبحها كوّة تضمّ أيقونة للسيّدة العذراء، وهي في أحيان مخصوصة ترشح زيتاً عجائبياً، يُستخدم بنجاح لشفاء جميع أنواع الأمراض.

* * *

من أثمن النصوص القديمة التي وصلتنا بهذا الشأن فصل في كتاب «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار» للعلامة عبد الرحيم بن عمر الدّمشقي الجوبري (من علماء القرن السابع الهجري)، عقده في كشف أسرار الرهبان، ومما جاء فيه:

«ومن ذلك أيضاً الكنيسة التي بصيدنايا، وهي قرية من عمل دمشق. ولها يوم تجتمع الناس فيه، ولهم فيها بركة الزيت يؤخذ منها في ذلك اليوم شيء عظيم للبركة، وقد ارتبط عليها جميع الطوائف. وذلك أنهم أخذوا قرمة نخلة ثم نزلوا عليها بالمدقات حتى صارت مثل السفنج، ثم غشوا عليها بثوب شعر مثل المنخل، ثم وضعوها في ذلك الموضع. فإذا جاء العيد الذي لها سقوا تلك القرمة بالزيت ثم ثقلوها بشيء يوازي بروز ذلك فتبقى ذلك اليوم ترشح طول النهار والناس يأخذونه للبركة وإزالة الأمراض، فصار لها ذكر وشأن». (صفحة 40 من الكتاب).

وقد اختفت هذه الأيقونة منذ بضعة قرون، وقيل إنها سرقت.

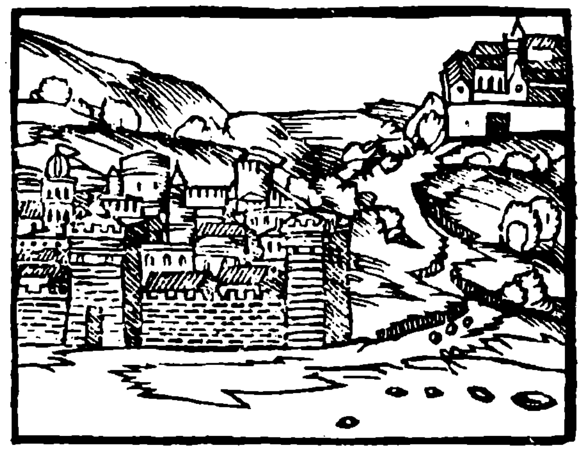
(1) بالأصل: Les Syriens، وقد ترجمتُها (السّريان). واللغات اللاتينية اليوم تقابل كلمة سرياني بـ Syriac، أما في زمن دارڤيو فلم يكن هناك فارق بين الكلمتين. كما يمكن ترجمة الأصل بـ (اليعاقبة). ويقول إدوارد روبنسون في معرض كلامه على المذاهب في الشام:

Indeed, the common name by which they are known in the country, is simply Suriân, that is, Syrians.

Robinson, Edward: *Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions*, vol, III, p. 460.

hò vedute con l'occhio, lequali non voglio scriuere per rincre scimento, & anco perche non mi sariano credute, & forsi saria dileggiato, però faccio fine. Nelle montagne d'intorno gli dura la neue per fin alla sua festa di S. Giouanni, & quella neue essi la comprano del Mese di Maggio, & la ripongono nelle loro ruade, ouer caneue, & la mangiano, & ne mettono nelli loro beueraggi.

La Città di S. Maria di Sardinale.



Droni della N. Dõna, che è nella città di Sardinale, quado tu volesti andare a s. Maria alla detta città di Sardinale nella qual città vi stano i saracini: & si paga una dragma p huomo, & come tu passi quel põte di un miglio si paga un'al tra dragma, & l'altro giorno caminerai di lungo, & arriuerai a vn grosso fiume, & iui si paga meza dragma per huomo, & quã do salirai in su vn mõte, ilqual è alto dui miglia, & e una catti ua salita, & andãdo cosi trouerai una città nominata Celone, e nell'entrar in essa e vna grã fortezza, laqual e murata in croce, però che i christiani la fecero edificare, & questa città e ricca. & ha buoni terreni d'intorno, & e un bel paese, e quiui si alber ga

نُقيشة خشبيّة لريمونديني تمثل دير سيّدة صيدنايا شمالي دمشق عام 1675

عن كتاب: «رحلة من ڤينيسيا إلى كنيسة القيامة وجبل سيناء»

للإيطالي الأب نويه بيانكي، طبعة باسّانو Bassano ڤينيسيا عام 1791

Viaggio da Venetia al Santo Sepolcro et al Monte Sinai

R. P. F. Noè Bianchi, dell'Ordine di San Francesco, Venetia 1791

تجارة دمشق وصنائعها

دمشق واحدة من أنشط المدن بالتجارة في الإمبرطورية العثمانية. وفيها مشاغل للمُخمل العادي والمطرّز، والأطلس، والتَفْتا، والدَّمَقس، والبروكار، والدّيما، والكمخا[1]، والأصناف الأخرى من النسيج الساذج (بلون واحد) المخطط والمموّج، ومناديل الحرير والأقمشة القطنية والشبائك[2]، والأصناف الأخرى من الأنسجة القطنية[3].

وتورّد قوافل مكّة إلى دمشق العقاقير من جميع الأصناف، والتوابل، ومنتوجات بلاد فارس والهند، ويورّد إليها الإفرنج الأكسية الحريرية والمصوَّفة والمذهبة، والورق، والطواقي، والقرمز، والنَيْلج[4]، والسّكر، وكميات من البضائع الأخرى التي يجري تفريغها في صيدا وبيروت وطرابلس، ثم يتم نقلها من هذه الموانئ عبر القوافل إلى دمشق.

* * *

(1) الكمخا: نوع من الأنسجة متموجة الألوان.

(2) الشبائك: مفردها شبيكة، نسيج قطني مشبوك الحبك.

(3) تجد شرحاً وافياً عن حالة صناعة النسيج بدمشق وجودة منتوجاتها في زمن قريب من زيارة دارڤيو، في رسالة: «ضوء السِّراج فيما قيل في النُّسّاج» لابن طولون الصالحي (المتوفى 953 هـ = 1546 م). منه نسخة مصورة عن أصل خطي كان موجوداً لدى آل الجوهري في نابلس، في المكتبة التيمورية بالقاهرة، رقم (351 مجاميع). وعنه صورة في مكتبة المجمع العلمي بدمشق، رقم (16 ـ مصورات). والمصوّرتان كلتاهما أخذهما العلاّمة أحمد تيمور باشا عن النسخة النابلسية عام 1924، فاحتفظ لنفسه بإحداهما، وأهدى الأخرى لمكتبة مجمع دمشق. ولم يعرف بعدها مصير النسخة النابلسية الأم واعتبرت ضائعة، (وهي نسخة فريدة بخط مؤلفها).

ولكنني بعد البحث وجدت أن المخطوطة الأصلية قد آلت إلى مكتبة چستربيتي بدبلن ـ إيرلندة، وهي محفوظة هناك برقم 3317. وهذه المخطوطة تضم مجموع 10 رسائل لابن طولون (أو تعليقات كما يسميها هو نفسه)، ومنها الرسالة التاسعة: كتاب ضوء السراج، في أربع ورقات.

وقامت بنشر الرسالة الدكتورة ليلى الصباغ ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في جامعة دمشق بخريف سنة 1978، الجزء الأول، ص 35-94.

(4) النيلج: أو النيلة، مادة صباغية زرقاء اللون معروفة.

أهل دمشق

يغلب على أهل دمشق جمال الطلعة وبياض البشرة مع ملاحة في التكوين. وهم يتمتعون بصفاء الذهن، كما يتصفون بالليّونة والظرافة والدهاء، إلا أنهم يتصرّفون بتهذيب مع من يُجيد معاملتهم. وإنّك لواجدٌ هالة معيّنة من العظمة وحتى الحريّة في هذه المدينة، ممّا لا يُشاهد عادة في المدن الأخرى، وكذلك فإن الناس هنا أكثر ثراءً وأقل تعرّضاً لطغيان الپاشوات. وذلك سيّان كانت قوميتهم أو ديانتهم.

يحب الدّماشقة فاخر اللباس، ورغد العيش، واقتناء أحسن المفروشات، وهم يحبّون حريتهم[1]. إنهم رعايا السلطان[2]، ولكنهم ليسوا عبيداً، ويعرفون تمام المعرفة كيف يظهرون ذلك للپاشوات (الولاة)، عندما يبادر هؤلاء إلى التشدّد معهم والاستبداد بهم.

* * *

مسيحيّو دمشق

غالبية المسيحيين القاطنين بدمشق هم من الرّوم (الأرثوذوكس)، وهناك قليل من الموارنة ونسبة أقلّ من المسيحيين الإفرنج. ولا يُسمح هنا بتأسيس هيئات تتبع للمبشّرين الفرنسيسكان Missionnaires Cordeliers في الأرض المقدّسة (فلسطين)، أو اليسوعيين أو الكپوچيين، بل لكل منهم في المدينة بيته الخاص ومُصلاّه المنزلي.

* * *

---

(1) لا زال الدمشقيون حتى يومنا هذا يهتمون بالأبهة والكماليات والمظاهر، ويتشبثون بالترف وغضارة العيش أيما تشبّث، ويتباهون فيما بينهم بالمادة دون أي شيء آخر مهما كان.

(2) وكان السلطان العثماني آنذاك الغازي محمد خان الرابع.

كما أنّ القنصل (الفرنسي) ـ الذي هو الآن في صيدا ـ كان يقيم سابقاً بدمشق مع جماعته كلها، غير أن الإزعاجات والمخاطر التي كانت ترافق نقل الأموال خلال ثلاثة أيام في طريق مراراً ما يكون خطراً وغير سالك بسبب غارات العربان والدّروز، قد حسمت القرار على نقل القنصلية والتجارة الرئيسية إلى صيدا[1].

وبالرغم من ذلك، فدوماً هناك بدمشق تجار فرنسيون، وأحياناً بعض الأطباء وبعض الجرّاحين الذين يأتون من أجل اكتساب مزيد من الخبرة بالإضافة إلى جني شيء من المال.

* * *

(1) كانت صيدا (قبل انتقال القنصلية الفرنسية إليها) المقر الرئيسي لتجارة الفرنسيين في الشام، وغالبية تجارة المدينة بأيديهم، حيث كان لديهم أكبر خانات صيدا وهو الذي بناه ابن معن، وقد تحول اسمه فيما بعد إلى «الخان الفرنسي»، انظر: مذكرات الفارس دارڤيو، ج 1، ص 294 ـ 463. وانظر أيضاً: «يوميات في لبنان»، ص 65 ـ 66. وراجع:

Masson, Paul: *Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII^ème siècle.* Paris 1896.

وفي سنة 1660م تحولت صيدا إلى باشوية وصارت رابعة باشويات الشام (حيث كانت الشام قبل ذلك مقسمة إلى ثلاث باشويات: دمشق وحلب وطرابلس) ـ (انظر الحاشية في مطلع نص دارڤيو أعلاه)، وذلك لمراقبة الدروز العصاة في جبل لبنان الذين تفاقم أمرهم بعد تمرّد ابن معن على الدولة العثمانية (1632 - 1633).

الملحق الأول

بحث حول البرج المضلّع بظاهر الباب الشرقي

النصّ الذي قدّمه لوران دارفيو أعلاه يمثّل وصفاً نادراً جداً لبُرج لا وجود له في أيّامنا ظاهرياً، فلقد هُدم قبل ما يزيد على 170 عاماً. قال في وصفه:

«على بعد مئة وخمسين خطوة (112,5 متراً) من هذا الباب (الشرقي) خلف الخنادق، يوجد برج مربّع ضخم، منفصل منفرد بذاته، وعلى جدرانه زهرتا زنبق وأسدان منحوتة بنقش بارز، وفي وسطها لوح كبير من الرّخام منقوش بحروف عربية، لم يُتح لي الوقت لنسخها، لأنه ليس من المسموح التوقّف وتحرّي الأسوار والإنشاءات التحصينيّة للمدينة».

ثمّ في عام 1855 م شاهد الرّحّالة البريطاني J. L. Porter جوزاياس لزلي پورتر البرج وحدّد موقعه (في الجزء الأول من كتابه، ص 41) على بعد 80 خطوة (200 قدم = 66,6 متراً) من الباب الشرقي باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية لسور المدينة، ولمّا شاهده كان متهدّماً (وعلى ذلك فإنّ وصف دارڤيو له يبقى الوحيد من نوعه)، وذكر كما قيل له أنّه كان قائماً على حاله إلى زمن حملة إبراهيم باشا ابن محمّد علي على سوريا (أي 1831-1840 م)، فتمّ عندها نقضه وأُخذت حجارته لتشييد ثكنات جند إبراهيم باشا. وأبدى پورتر رأياً بعيداً جداً عن الصواب إذ نسب بناءه للرّومان بحجّة حجارته المحفّفة.

هذا ولقد شاهد شعارات زهرة الزنبق والأسد منحوتة فوق باب المدخل فاستغرب وجودها لعلمه بأن الأول منها شعار الملكية في فرنسا، والثاني في إنكلترا. وشاهد أيضاً أسداً مشابهاً محفوراً على السّور القريب.

ثم ينقل پورتر عن پيير بولون Pierre Belon du Mans الذي زار دمشق عام 1549 م (انظر الملحق الثاني لهذا الفصل)، رأيه بأن الشعارات هي من وضع الصّليبيين الذين احتلوا البرج عندما حاصروا دمشق (يعني عام 1148 م = 543 هـ) وبقي في أيديهم مدة حتى استرجعه المسلمون ونقشوا عليه كتابة بالعربية فوق الشعارات لتسجيل ذكرى استرجاعه.

قلت: هُراء، فالصّليبيون لم يمكثوا بدمشق سوى خمسة أيام فقط: من 24 يونيو إلى 28 منه. وبعد ست سنوات آلت المدينة إلى حكم نور الدين، الذي قد تعود إليه الشعارات، وهو غالباً باني البُرج.

* * *

إنّ الرأي الذي قال به پورتر خاطئ حتماً، فضلاً عن أنّ جميع الرّحالين الأوروپيين أخطأوا في نسبة شعار زهرة الزنبق بدمشق.

فنسب البورغوندي برتراندون دى لا بروكيير زنبقة على سور دمشق، وأخرى على خان بها، إلى «بركوت» Berkot زاعماً أنه رجل فرنسي مشهور. لكن المقصود السّلطان المملوكي برقوق ورنكه كان زهرة الزّنبق فعلاً.

Bertrandon de la Broquière: *Le Voyage d'Outremer*, p. 37.

ونسب كل من الإيطالي البولونييزي لودوڤيكو دي ڤارتيما والفرنسي جان تُنو زنابق منقوشة على قلعة دمشق إلى مملوك فلورنسي قيل إنه بنى قلعة دمشق (حسب أسطورة تاريخية انتشرت في القرون الوسطى).

Ludovico di Varthema: *Itinerary*, p. 8.

Jean Thenaud: *Voyage d'Outremer*, p. 114.

وأما الرحّالة البرتغالي سيباشتياو مانريك (كما تقدّم أعلاه) فقد شاهد (عام 1640 م) شعارات على قلعة دمشق (ولم يصف شكلها، لكنه يعني الزنابق) ونسبها إلى رجل فرنسي محارب مشهور دون أن يصرّح بذكر اسمه. ويعلّق ناشر رحلة مانريك بقوله: «إلى من يشير مانريك بكلامه؟ أهو إلى غودفروا دي بويّون Godfroi de Bouillon الملك الصّليبي الأول للقدس، أم إلى الملك لويس التاسع Louis IX الذي قام بحملتين صليبيتين؟».

Travels of Sebastien Manrique, Vol. II, p. 377.

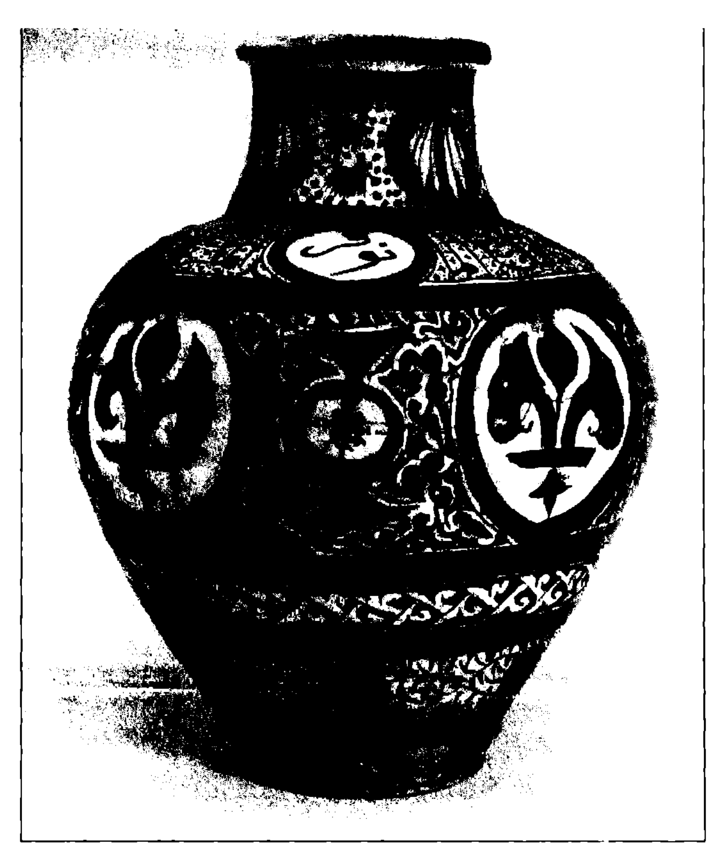
لا شك أن كل ما ذُكر خاطئ، فدمشق لم تقع قطّ بأيدي الصليبيين في حملاتهم كلها، وما طالها سوى حصارين فاشلين، كان الأول عام 1128 م، والثاني عام 1148 م، كما قلنا.

والأصحّ طبعاً نسبة هذه الرُّنوك (الشعارات العسكرية) إلى السّلاطين المسلمين، إذ أنهم هم أصحاب عادة اتخاذ أشكال رمزية معينة على دروعهم ومبانيهم، وعنهم نقلها الصّليبيون ـ عن الأيوبيين خصوصاً ـ انظر: (تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، ص 364–365).

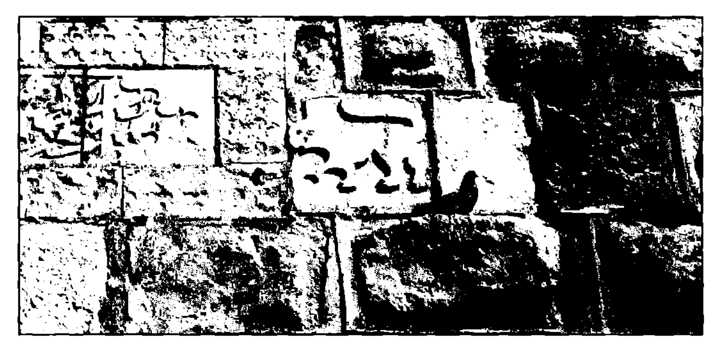
يذكر السّويسري ليو ماير أنّ أول من اتخذ شعار زهرة الزنبق نور الدين، وأول من اتخذ شعار الأسد الظاهر بيبرس. لكن هذا غلط، فأوّل من اتخذ رنك الأسد الأيّوبيون ، أمّا رنك بيبرس فهو سبع (فهد). انظر:

Mayer, L.A.: *Saracenic Heraldry*, pp. 9, 22.

ولقد اتخذ رنك الزّنبقة بعض الملوك المماليك (قلاوون وشعبان وحاجي وبرقوق). أما رنك الأسد والزنابق فنادر ومحيّر، لكن في باحة المتحف الوطني بدمشق حجر حُفر عليه رنك مماثل: زهرة زنبق بين فهدين (انظر الصورة)، وليس عليه أية كتابة تشير إلى صاحبه أو مصدره، سوى الرقم التسلسلي العائد إلى تصنيف المتحف الوطني: (3535ـ ع/ 919).



زهرة الزنبق، على برنيّة من الفخّار المزجّج صنعت لبيمارستان نور الدّين بأواخر القرن الثالث عشر إبّان ترميم قلاوون، وكان السلطانان كلاهما يحملان الرّنك ذاته، وتسميتها «نوفر» لأنها كانت تضمّ منقوع النّيلوفر



الفهد، رنك الظاهر بيبرس على الواجهة الشماليّة للقلعة

ولدى الرجوع إلى أرشيف المرحوم الأمير جعفر الحسني، وجدته كتب بإيجاز: (حجر باب ـ الظاهر بيبرس ـ حارة القيمرية في الصالحية). ويبدو أن المقصود بحارة القيمرية موقع البيمارستان القيمري بالصالحية. وبغضّ النظر عن موقع البناء، فهنا نُسب الرّنك إلى السّلطان المملوكي الظاهر بَيبَرس البُندقداري. كما كان ذكر لي المرحوم الأستاذ خالد معاذ قد أنه شاهد رنكاً مماثلاً في مبنى يعود إلى بيبرس، ولكن هل يكفي هذا لإثبات نسبة رنك الزنبقة بين فهدين إليه؟ هذا بعد معرفتنا بأن رنك بيبرس يشتمل على فهد واحد فقط. وهذ الرّنك الذي يبدو على شكل فهد يمكن مشاهدته منقوشاً على طرفي باب الزاوية القلندرية الكائنة شرقي وجنوبي مزار السيدة سُكينة بنت أحمد السّبطي في تربة الباب الصغير، وفي الواجهة الشماليّة للقلعة. ومنه نماذج أخرى في قلعة الحصن وقلعة بصرى، وأسوار القدس، وبرج السّباع بقلعة صلاح الدّين بالقاهرة.

وصورة الحجر السّالف الذكر ذاتها ترد في كتاب ماير (pl. V)، لكنه لم يعلّق عليها بشيء. بينما يذكر أحمد قدامة (مجلة العمران، عدد خاص عن دمشق، ص 109) أن الأسد كان رنك بيبرس، والزنبقة بين أسدين رنك نور الدين، دون ذكر المصدر الذي نقل عنه. ولم نرَ رنكاً لنور الدّين يحمل أسداً.

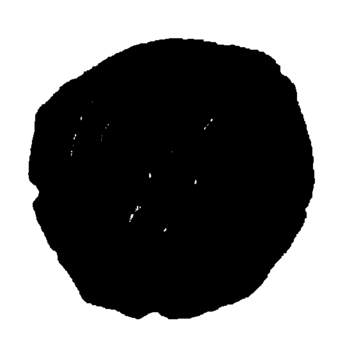
لا يُستبعد كون نور الدين باني البرج، فقد بنى في عهده كثيراً من الأبراج والبوابات والمدارس والزوايا وغيرها، ورمّم الأسوار والقلعة. كما أنّ رنكه كان زهرة الزنبق على وجه التأكيد، فيمكن رؤية هذا الرّنك منحوتاً في حجر الأساس لبيمارستانه النّوري بدمشق وعلى شراريف باب الفرج، وعلى بعض الأعمدة في جامع بناه بمدينة حمص. وكان نور الدّين قد شيّد في عهده الذي دام 20 عاماً الكثير من الأبراج (بقي منها الموجود جنوبي باب الجابية)، ورمّم أسوار المدينة والقلعة، كما بنى أبواباً (كبابي السّلامة والفرج) ومدارس وزوايا وبيمارستاناً وخانات بظاهر دمشق (كخان القطيفة)، وغيرها الكثير.

اختلطت الأمور الآن: فهل الزّنبقة والأسدان رنك نور الدّين أم الأيّوبيّين أم الظاهر بيبرس؟ الجواب واضح وبسيط: فالزّنبقة رنك نور الدّين، كما شهد الرّحّالون الأوروبيون بأمّ العين على أسوار دمشق وقلعتها. ثم لمّا تابع ملوك بني أيّوب بكلّ همّة تحصين الأسوار وأبوابها وبناء القلعة من جديد (كالعادل أبـي بكر محمّد بن أيّوب، والصّالح نجم الدّين)، وَسَموا غالبيّة ما بنوه بنقش أسدين (لاحظ خصوصاً كتابات الواجهة الشرقيّة للقلعة). فنخلص إلى أنّ البرج بناه نور الدّين، وجُعلت عليه زهرتا زنبق، ثمّ رمّمه الأيّوبيّون وأضافوا إليه أسدين، كما هي عادتهم في عمائرهم العسكريّة.

* * *



رنك نور الدّين في البيمارستان



رنك الظاهر برقوق على نقد



الحجر اللغز في حديقة المتحف: هل يعود الرّنك إلى الظاهر بيبرس؟

كتابة أيوبيّة جميلة في الواجهة الشرقيّة للقلعة

العدسة المستخدمة: Leica Summicron-R 90mm f/2



تفصيلة من أعلى الكتابة: رنك الأسد الأيوبي

أمّا حجر حديقة المتحف الوطني الذي يحمل رنك الزّنبقة بين فهدين، فأظنّه يعود للسّلطان ركن الدّين الظاهر بيبرس، المؤسّس الفعلي لدولة المماليك البحريّة بمصر، وشكل الفهد فيه يطابق إلى حدّ كبير رنكاً له على عضادة باب الزّاوية القلندريّة بتربة الباب الصغير، وإلى حدّ ما في قلعة بُصرى وقلعة الحصن. وصار بوسعنا أن نستبعد كونه مجلوباً من البرج المذكور.

ظهور قاعدة البرج مؤخراً:

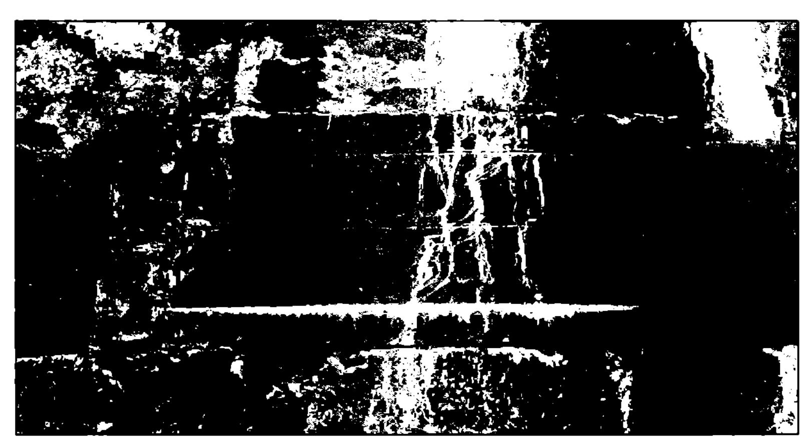
في عام 2000 أثناء حفر نفق مروري قبالة الباب الشرقي (إلى الجنوب قليلاً) ظهرت قاعدة برج ضخم بحجارة كبيرة، وثبتت نسبتها إلى الأيّوبيّين بسبب العثور أخيراً على الكتابة العربيّة التي ذكرها دارڤيو، وكانت مطمورة تحت الأرض، وهي تحمل اسم الملك الأيوبي المعظّم عيسى.

الطريف في الأمر، أنني نشرت خلاصة هذه الدّراسة حول البرج المذكور في عام 1982، ولم يكترث للأمر أحد، إلى أن تمّ العثور على أساسات البرج في عام 2000 بمحض المصادفة، وعدّه الكثيرون اكتشافاً مدهشاً!! هذا رغم أن بعض الصّور الفوتوغرافيّة القديمة العائدة إلى القرن التاسع عشر تبرز بوضوح وجود منخفض في الأرض قامت عليه أساسات البرج، وهذا ما يفسّر وجود قاعدته اليوم تحت مستوى الأرض بحوالي سبعة أمتار.

يبقى أن أشير أخيراً إلى أن هذا واحد من الأبراج القليلة المنفصلة عن سور المدينة، فما الغاية من بنائه؟ وبما أن موقعه كان بين السور الحالي وخندق المدينة القديم (كما يُستدل من وصف دارڤيو وپورتر)، فهل يعقل أنه كان متصلاً بسور آخر خارجي كان لدمشق ما قبل الخندق، أو فصيل له؟ أي سور صغير خارج سور المدينة بمثابة خط دفاعي أول. هذا الافتراض يعيدنا إلى نظريّة كون سور دمشق مزدوجاً في القرون الوسطى.

إشارة أخرى ذات صلة:

الآن، ثمّة إشارة أخرى هامة جداً أتوقع أن تكون لها صلة بالبرج المذكور، ترد في مكان غير بعيد عنه إلى جهة الشمال، بظاهر الزّاوية الشمالية الشرقيّة لسور دمشق، التي تحمل كتابة جميلة للملك الصّالح أيّوب. وهذه الإشارة هي نقش كتابي يعود إلى مطلع العهد الأيّوبي ويرد فيها تسمية: «البرج الكبير».



كتابة برج الصّالح أيّوب قبل تشويهها القبيح بنافثات الرّمل
مطلع عام 2010، العدسة: Carl Zeiss Planar 50mm f/1.4

النقش الكتابي الذي أشير إليه يوجد في أثر تاريخي بالغ الأهمّيّة هو مسجد فاتح دمشق الصّحابي خالد بن الوليد، وعلى الرّغم من الأهمّيّة التاريخيّة الفريدة لهذا الأثر، فهو لا يتمتّع في دمشق بأيّة شهرة، ويكاد لا يعرفه بها أحد. يروي مؤرّخو دمشق أنّ الجيش الإسلامي الذي حاصر دمشق بقيادة خالد ابن الوليد كان يقيم حوالي المدينة في الأرباض والقرى، وأنّ خالداً نزل بوضع دير قديم نُصبت له فيه خيمة صلّى فيها مع جنده قبل فتح المدينة، فكانت أوّل موقع صُلّي فيه بدمشق. وفي مساء يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب عام 14 هـ (3 أيلول 635 م) تمكّن خالدٌ من اقتحام المدينة من جهة الباب الشرقي، وهو أضخم أبواب المدينة وأحصنها.

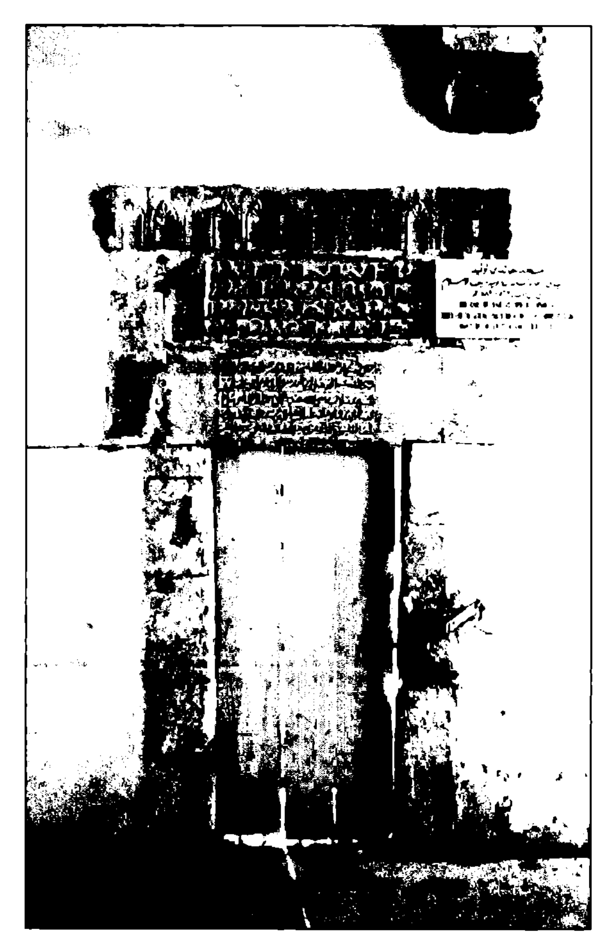
في موقع هذا المصلّى البسيط (بداخل تربة الشيخ أرسلان)، يرى الزائر اليوم باباً حجرياً قديماً، هو أهم أركان هذا الأثر التاريخي القديم، وعلى ساكفته نقشان كتابيان، الأعلى نُقشت عليه كتابة تمثّل تأريخ ترميم سلاطين السّلاچقة للمسجد، منقوشة في أربعة سطور بحروف كوفيّة على الطراز الفاطمي الشائع آنذاك بمصر والشام، وخير مثال لمقارنتها هي الكتابة الفاطميّة الموجودة بعاتق صخرة المنشار في الرّبوة، والمؤرّخة عام 444 هـ (تمّ تشويهها مؤخراً في يونيو 2011). ونكاد لا نميّز بينهما فارقاً من حيث نموذج الخط المستعمل، إلا بأنّ نقش الرّبوة غائر، وأمّا نقش مسجد خالد فبارز.

ونصّ النّقش مقروء وواضح، وهو كما يلي:

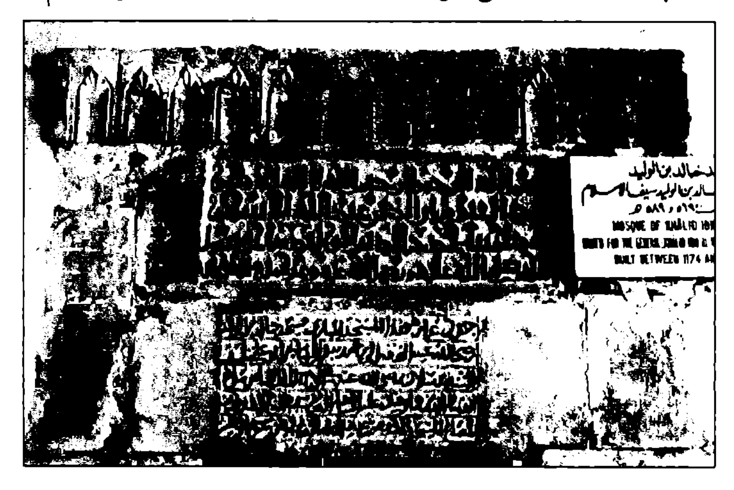
(1) **بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو**
(2) **الحي القيوم ان الدين عند الله الاسلام**
(3) **هذا مسجد خالد بن الوليد صاحب رسول**
(4) **الله صلى الله عليه ورضي الله عنه وعن جميع الصحاب**

هذا وليس ثمّة ما يدلّ على تاريخ معيّن لهذه الكتابة، إنما أعتقد بأنها وضعت بحدود سنة 475 هـ، أو في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري، أي منذ دخول السّلاچقة دمشق (عام 468 هـ)، حتى انتقال المدينة إلى أتابكة السّلاچقة (أي قادتهم) من آل طُغتكين Doğtekin، ولا يبعد أن تكون كُتبت إبّان عهد الأتابكة أنفسهم.

أمّا بيت القصيد فهي الكتابة الثانية بالأسفل، والتي تحدّد (بالتأريخ المكتوب) زمن ترميم هذا المسجد في أوائل أيّام دولة ملوك بني أيّوب، وتحديداً في عهد النّاصر صلاح الدّين عام 580 هـ قبل 3 سنوات من معركة حطّين، وبعد 10 سنوات من تأسيس الدّولة الأيّوبيّة، وكانت دمشق عامرة وزاخرة بالمنشآت أصلاً في عهد نور الدّين الزّاهر.



ساكفة باب مسجد خالد بن الوليد وكتاباتها القديمتان (الصورة عام 1982)



وهذه الكتابة منقوشة على لوح حجري يؤلّف ساكفة باب المسجد، الموجود في جداره الشرقي، وهي تقع تحت الكتابة الأولى، أضيفت لاحقاً، كما أضيف في الوقت ذاته طُنفٌ زخرفيّ على الطراز الأيّوبي، بشكل محاريب صغيرة مكرّرة ومتتالية أفقياً وعلى نحو فنّي غاية في البساطة، ونُقش هذا الطّنف فوق الكتابة السّلجوقيّة العُليا.

والكتابة الأيّوبيّة مؤلّفة من خمسة أسطر بخطّ ثُلُث باكر (أو مُحقّق) من النّوع المعهود في الكتابات العائدة إلى العهدين النّوري والأيّوبي (لا نسخي كما ظنّه جميع مَن ذكر الكتابة)، وهو ذو حروف مُتشابكة مُهملة سيّئة الرّسم ومُتداخلة، ممّا يدلّ على أنّ راقمها كان عامّياً، ولهذا السّبب فشل كل مَن درس هذه اللوحة في قراءتها بأكملها[1]، خصوصاً بعض السّطر الرّابع، والنّصف الثاني من السّطر الخامس (وفيه التأريخ)، وأخطأوا مراراً في تفسير كثير من كلماتها. وزاد في صعوبتها الآن أنها شُوّهت في عصرنا بالدّهان، ممّا أدّى إلى طمس بعض حروفها وزيادتها إبهاماً على إبهام. لكنني جهدت في حلّ باقي رموز هذه الكتابة، فأفلحت بعد عناء كبير في نقلها:

(1) جدد عمارة هذا المسجد المبارك مسجد خالد بن الوليد
(2) رضي الله عنه الفقير الى رحمة ربه ابو البركات بن ابي علي تلميذ
(3) الشيخ رسلان رضي الله عنه في الايام الملك الناصر صلاح
(4) الدنيا والدين واوقف عليه الساحة التي من شرقي البرج الكبير تكون
(5) لمصالح المسجد المذكور ضاعف الله له الثواب وطيب سعيه سنة ثمانين وخمس مئة

* * *

---

(1) ذكرها كل من: المسرد الحولي للكتابات العربية: *R.C.E.A.*, tome XII, No. 4462.
وإرنست هرتسفلد: E. Herzfeld: *Damascus, Studies in Architecture*, p. 68.
وطلس: ذيل كتاب ثمار المقاصد، ص 112؛ وصلاح الدين المنجد (لم ينقل نصّ الكتابة): أبنية دمشق الأثريّة المسجّلة، في كتابه: خطط دمشق، بيروت 1949، ص 67.

أعلّق على هذه الكتابة بثلاث نقاط:

1- لا نعلم عن الباني والواقف (أبو البركات) سوى أنّه ابن الشيخ أبي علي المغربل تلميذ الشيخ أرسلان (رسلان) وخادمه، الذي نجهل عنه أيضاً جمع أخبار حياته، خلا اسمه. ولم أجد للأب سوى ذكر خاطف في ترجمة الشيخ علي الحريري صاحب إحدى الطرق الصّوفيّة[1].

2- إنّ ما جاء في الكتابة من عبارة: «في أيّام (الأيّام بالغلط) الملك النّاصر صلاح الدّنيا والدّين» يؤكّد قراءة التاريخ في الأسفل (580 هـ)، على اعتبار أن حكم السّلطان صلاح الدّين امتدّ بين 570-589 هـ.

3- أمّا «السّاحة التي من شرقي البرج الكبير»، فقد أشكلت عليّ في عام 1985 بداية دراستي للكتابة، ولم أعثر يومها على ما ينطبق عليها، غير أنّ النصّ الثمين الذي كتبه لوران دارڤيو في عام 1660 يقدّم للبحث إضاءة هامّة، وبرأيي أنّ نصّ وقف مسجد خالد: «السّاحة التي من شرقيّ البرج الكبير» له علاقة بهذا البرج ما قبل ترميم المعظّم عيسى له، والله أعلم.

* * *

أخيراً، يورد الرّحّالة الفرنسي جان دى تيڤنو Jean de Thévenot، الذي زار دمشق عام 1664 م، رأياً مغايراً قليلاً لما كتبه دارڤيو قبل 4 سنين، فيذكر زنبقة ثالثة في الوسط ومعها نقش مهترئ بالفرنجيّة (الفرنسيّة القديمة) يرى أنّه مجلوب من حصن بانياس الصّليبي في الجولان. وها هو ذا نصّ تيڤنو أنشره كاملاً في الفصل التالي أدناه.

* * *

---

(1) انظر ترجمته في ذيل كتاب الرّوضتين لأبي شامة، 180؛ فوات الوفيّات لابن شاكر، 3: 6؛ البداية والنّهاية لابن كثير، 13: 173.



كتابة الرّبوة الأثرية

تقع هذه الكتابة الرائعة بعارض صخرة المنشار الشهيرة في محلّة الرّبوة القديمة، كانت أجمل نقش كتابي بدمشق على الإطلاق، إلى أن تمّ تشويهها بشكل فادح جداً في يونيو من عام 2011 بنافثات الرّمل، بحملة تشويهيّة استهدفت جميع كتابات سور دمشق وقلعتها، على يد بعض الهواة عديمي الاطلاع على أصول ترميم الآثار، ففقدت دمشق أثراً من أروع آثارها بعدما دام قرابة 1000 عام. تؤرّخ الكتابة لبناء يحيى بن أبي خارجة الكاتب لثلاثة مساجد في الرّبوة، مع تحبيس أوقاف عليها بالرّبوة ودكاكين بدمشق، في أيّام الخليفة المستنصر بالله عام 444 هـ (حكم 427–487 هـ). التقطتُ هذه الصورة في عام 2005 فغدت اليوم نادرة. العدسة المستخدمة: Carl Zeiss Jena Sonnar 135mm f/3.5، لاحظ تناغم الحروف مع بنية الصّخر عبر تعرّضها للشمس والمطر 988 عاماً، ليأتي اليوم بعض العباقرة ويطمسوا رؤوس الصخر الناتئة بآلاتهم الخشنة. المفترض ألا تُستعمل نافثات الرّمل أبداً في الأبنية والواجهات الحجريّة الأثريّة وخاصة النقوش الكتابيّة التي ينبغي معالجتها بمنتهى الرّهافة. والمؤلم للغاية أنّ هذه الكتابة الرائعة كانت بحالة ممتازة جداً، ولا داعي للمساس بها لأي سبب.

الملحق الثاني

وصف دمشق في القرن السادس عشر
للرحالة الفرنسي الشهير پيير بولون

أضفت هذه المقتطفات الهامة المتعلقة بدمشق زيادة في التوضيح، وهي مأخوذة من وصف پيير بولون دى مان لدمشق الذي زارها بين عامي 1549 ـ 1556، والوصف في كتابه (الذي سننشره كاملاً في سلسلتنا):

Pierre Belon du Mans: *Les Observations de Plusieurs Singularitées et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Iudée, Egypte, Arabie, etc.* Paris, 1546, 1549, 1553.

يذكر المؤلف في كتابه، ص 149 ـ 150:

تتميز دمشق بوفرة كبير في المياه، تستمدّها من خْرِيسورُوّاس[1] الذي يتعرّش بالبساتين المخضوضرة من منبعه حتى مصبّه، أما فروعه في المدينة فهي ضيّقة ومتعرّجة.

وفي المدينة بازار (أي سوق) بديع للغاية، وهو مغطى بأعلاه.

تبدو منازل دمشق بأجمل ما يكون من البناء، لكن ألطف ما فيها أواوينها المسقوفة ذات الممرّات الوضيئة التي تجلب لها التهوية والانتعاش.

---

(1) خريسورواّس Chrysorrhoas اسم يوناني قديم لنهر بردى، ويعني: نهر الذهب، سمي بذلك لصفاء مائه.

ولدمشق أسوار مزدوجة[1] كما هو الحال في القسطنطينية (إستانبول). وليست خنادقها المملوءة بالماء ذات عمق كبير، منها تسقى أشجار التين الأبيض التي يُربّى عليها دود القزّ لإنتاج الحرير.

وعلى السّورين كليهما أبراج كثيرة متقاربة، إذ أن كل برج مضلّع ضخم يقوم بين اثنين آخرين أصغر منه، وهما مستديران وأحدهما أكبر من الآخر.

وهناك قلعة صغيرة مضلّعة خارج نطاق الأسوار، غير أنها تبدو كما لو كانت تحصيناً لحماية المدينة فقط، ذلك أن الضواحي أكبر من المدينة مرتين، كما أنّ الأسواق توجد في هذه الضواحي، أما المتاجر والبَزْستانات[2] فهي داخل نطاق الأسوار.

* * *

وأبواب المدينة مكسوّة بصفائح من الحديد، على عكس أبواب القاهرة المغطاة بالجلد.

* * *

وإلى جهة الشرق هناك برج مضلّع[3] نُقشت على أعلاه كتابة بحروف عربية، يقال إنها جعلت عليه حين استعيد من أيدي النصارى (الصليبيين)، لأنه تحت هذه الكتابة قليلاً تشاهد زهرتا زنبق منقوشتان على الرّخام، وهما شعار فرنسا أو فلورنسا.

---

(1) هذه الملحوظة هامة جدًا، وتؤيد ما ذكره دارڤيو (انظر ما تقدم أعلاه). مع الإشارة إلى أن القسطنطينية كان لها سور ثلاثي (triple) في بعض جهاتها، وللبعض الآخر سور مزدوج، انظر بهذا الشأن:

Runciman, Steven: *The Fall of Constantinople 1453*, pp. 87-92.

see also: plate V, the rtiple wall of Constantinople, p. 112.

(2) بزستان: وردت هذه الكلمة في نص دارڤيو، وباللغة العثمانية: بَدَستان، تعني سوق الجواهر والأقمشة النفيسة.

(3) هو البرج القديم ذاته الذي ذكره دارڤيو، وبحثناه بالتفصيل في الملحق الأول.

لكن إلى جانب هاتين الزنبقتين رسم أسد، يدعو إلى التفكير بمعانٍ شتى لهذه الشعارات غير فرنسا أو فلورنسا[1].

* * *

تبدو دكاكين الصناعات اليدوية كتلك التي في القاهرة.

والبضائع في دمشق وسورية عموماً تباع مقابل وزن نقدي (عملة معدنية) يدعى (الرّطل) Rotulo، وهو يعادل سبع ليرات (7 Livres)، كما في مصر تماماً.

* * *

وفي المدينة دكاكين يصنع فيها كاغد الورق الدمشقي.. يحلجون القطن فيفصلون عنه البذور، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد وثخنها مقدار إصبعين، يضغطون بها القطن فوق السّندان، فتخرج عندئذ البذور المكوّرة من أمام القطعة الحديدية[2].

* * *

(1) ذلك لأن الأسد شعار الملكية في إنكلترا التي كانت ألدّ أعداء فرنسا. وبالطبع فلا علاقة لهذه الشعارات لا بفرنسا ولا فلورنسا ولا إنكلترا، بل هي من رنوك الأمراء المسلمين.

(2) هذه مجرّد عجالة سريعة من كتاب بيير بولون، لكننا سنترجم نصه الفريد بأكمله (يتجاوز 400 صفحة) عن طبعة نادرة مزوقة بالرسوم صادرة بباريس عام 1555.



الملحق الثالث

مقاهي دمشق
في القرن السابع عشر

المقاهي بدمشق تمثل جانباً من الحياة الاجتماعية لسكان المدينة، والواقع أنها منذ بدء إنشائها بدمشق في بدايات الألف الثاني للهجرة (أي ما يقارب فاتحة القرن السّابع عشر الميلادي) صارت منتديات للأدباء والشعراء يعقدون فيها مجالسهم ويتناولون أخبار الأدب والشعر والمجتمع، ويشربون القهوة التي شاعت بدمشق بدءاً من القرن الحادي عشر الهجري (أو أواخر القرن العاشر) نقلاً عن بلاد اليمن.

ولمّا فات الفارس دارڤيو أن يصف هذه المقاهي أو (خانات القهوة) كما سمّاها بعض الرحالين، فقد أضفت هنا ثلاثة نصوص نادرة:

أول هذه النصوص وصف لمقاهي دمشق في منتصف القرن السابع عشر، بعد زيارة دارڤيو بأربع سنوات، وهو مستل من مذكرات الرحالة الفرنسي جان دى تيڤنو الذي زار دمشق في ربيع عام 1664 م. والنص في كتابه:

Thévenot, Jean de: *Relation d'un voyage fait au levant, etc.*, Paris, 1655, 1668, 1674, 1684.

هذا الرّحالة الذي عايش أهل دمشق حياتهم لعدة أيام لاحظ أن المقاهي كانت حينها مزدهرة ومنتشرة بأعداد كبيرة في المدينة. وها هي فيما يلي عباراته حول الموضوع:

كل مقاهي دمشق جميلة وتتميز بوفرة في المياه، ولكن أجمل المقاهي تجدها في الضواحي[1]، ومن بينها «قهوة السّنانيّة» التي يُطلق عليها اسم «القهوة الكبرى» لاتساع مساحتها.. ويزيد من رونقها ذاك العدد الكبير من النوافير الدّافقة في بحراتها الكبيرة. ولكن قد تفوقها بالأناقة تلك القهوة التي بقرب باب السّروجيّة[2]، هذا لوجود جدول يجري بأحد جوانبها، كما أن بها أشجاراً على طول امتدادها وفي ظلالها ترى الروّاد جالسين على المصاطب يستمتعون بالنسائم المنعشة وبمرأى الجدول الجاري تحتهم.

أما قهوة النهرين[3] التي بقرب باب البوابجيّة عند نهاية الجانب الطويل للقلعة، فهي جميلة أيضاً وكبيرة، وهناك جدولان صغيران يمرّان بها ويشكّلان جزيرة صغيرة مكسوّة بالزهور والنباتات الأخرى.. إن هذه الخضرة والألوان المرقشة بالإضافة إلى أريج الأزاهير العديدة تضفي الكثير من البهجة على كل تلك المشاهد.. نعم فإنها حريّة بتعزيز الإمتاع الذي تشعر به في أي مكان يتصف أصلاً بالجمال.

إنني أصف هذه الجداول بالصغر، ولكن ينبغي لي أن أشير إلى أنها تبلغ على الأقل 25 قدماً (8,12 متراً) في عرضها، وفي المعتاد تبلغ 30 أو 40 قدماً (9,74 ـ 12,99 متراً).

---

(1) أي خارج سور المدينة.

(2) باب السّروجية (أو باب النصر كما كان يسمى قديماً) كان أحد أبواب دمشق في سورها الغربي، موضع سوق الأروام اليوم (عند أول سوق الحميدية). هدمه الوالي العثماني شرواني پاشا عند فتح سوق الحميدية عام 1863. راجع كتابي: معالم دمشق التاريخية، بحث في اشتقاق أسمائها ومعانيها. ولعل القهوة المذكورة قرب باب السّرايا هي قهوة الدرويشية.

(3) هي قهوة العصرونيّة، موقعها شرقي الحديقة البيئيّة اليوم. وثمّة محلة ثانية تسمى: بين النهرين، كانت في ساحة المرجة حيث كان نهر بردى هناك قديماً (قبل أن يغطى) يتفرع إلى فرعين يشكلان ما بينهما جزيرة صغيرة جميلة أطلق عليها «بين النهرين»، وكانت من متنزهات دمشق. راجع: معالم دمشق التاريخية، بحث في اشتقاق أسمائها ومعانيها. أما «باب البوابجية» كما ذكر دي تيفنو، فالمقصود به باب الفَرَج أحد أبواب دمشق في الجهة الشمالية الغربيّة من سور المدينة، إلى الشرق مباشرة من القلعة. تدعوه العامّة بذلك نسبة إلى سوق البوابجيّة.

الوصف الثاني لمقاهي دمشق في القرن السّابع عشر نجده لدى الرحالة الإنكليزي (هنري موندرل) الذي زار دمشق عام 1697 م، في كتابه:

Maundrell, Henry: *A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter A.D. 1697*, pp. 173-4.

سوف ندرج وصف موندرل لدمشق بأكمله في آخر هذا الكتاب، ولكن لا بأس هنا بنقل ما أورده في وصف مقاهي المدينة:

في طريق عودتنا إلى المنزل شاهدنا حماماً بديعاً للغاية، وعلى مقربة منه قهوة تستوعب أربع أو خمسمائة شخص. إنها مظللة بالأشجار عادة، لكن عندما تسقط أوراق الأغصان تظلل بالحصر. ولهذه القهوة فسحتان لاستقبال الرواد، إحداهما تلائم الصيف والأخرى للشتاء.. أما تلك المخصصة للصيف فتبدو كجزيرة صغيرة يحفّ بها من جميع أطرافها جدول غزير دفاق، وهي مظللة في أعلاها بالحصر والأشجار.

لقد شاهدنا هنا جمعاً غفيراً من المسلمين يجلسون على الدّواوين[1] مبتهجين بهذا المكان الممتع، فليس هناك ما يستحوذ على مشاعرهم بكل هذا السّرور كالخضرة والمياه، وإذا أضيف إليهما وجه جميل يتشكل بذلك مثل متداول بينهم[2]، يراد به أن هذه العناصر الثلاثة سوية تؤلف ترياقاً فعالاً ضد الاكتئاب.

* * *

(1) الدواوين: مفردها ديوان، كلمة فارسية تعني المجلس أو النادي. استعارتها العامة بمعنى: أريكة الجلوس.

(2) ذاك المثل السائر هو: «الماء والخضرة والوجه الحسن».

كان ذلك ما ذكره الرحّالون الأجانب في وصف مقاهي دمشق. والآن لنقرأ ما كتبه بعض الرحالين المسلمين يصف أحد المقاهي بالمدينة في النصف الثانـي من القرن السابع عشر، عام 1669 م.

هذا الرّحالة هو المحدّث والمؤرخ والأديب إبراهيم بن عبد الرّحمن المدنـي الخياري، المتوفى عام 1083 للهجرة. قدم إلى دمشق في عام 1080 هـ (1669 م)، فتحدّث عن جمال طبيعتها وأبنيتها بوصف أدبـي ممتع، ونقل صورة موجزة عن الحياة العامة للدمشقيين وعن أسواقهم وحماماتهم.. ومن ذلك هذه الفقرة التي تختص بالمقاهي عن كتابه: «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء».

والنص هذا نقلته عن كتاب «مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين» للدكتور صلاح الدين المنجد، ص 305 ـ 306.

يقول الخياري مستأنفاً حديثه عن المسجد الأموي:

ومن أشهر أبواب الجامع، وهي ستة: باب جيرون، وهو الباب الذي يكثر دخولنا منه لسكنانا لجهته وقربه، ولما حواه من اللطائف والعجائب التي لا توجد في غيره. فمن أعجبه أن أول ما يخرج الإنسان منه ويجاوز غير بعيد على يمينه محل متنزه أمام خان القهوة، معدود من متنزهات الدنيا، يكون به كثير من الفضلاء والظرفاء والنبلاء، فيشربون به هاتيك القهوة التي لم يحظَ غيرُها بأن يكون له بها أسوة.

فإنّ أمامِ الجالس بذلك المحل فوّار ذلك الباب، المعدود من العجب بل العجاب. إذ هو فوّار[1] يصعد فيه فضي الماء نحو القامة مع غلظ نحو الزند العظيم البلّوري، وإنما شبّهتُه بالزند لأنـي رأيتُ كثيراً يُسبغ الوضوء بمائه.

---

(1) ذاك هي النوفرة المعروفة قديماً أمام باب جيرون شرقي الجامع الأموي. وقد زالت الفوارة وبقيت بركتها الحجرية في نفس المكان، وقبالتها القهوة المعروفة باسم «قهوة النوفرة» لا زالت موجودة إلى يومنا هذا. وقد أطلق اسم النوفرة على نفس المحلة، وهي قسم من حي القيمرية مما يلي باب جيرون.

فإذا ارتفع ماء ذلك الفوّار انحدر منعطفاً إلى السفل متفرقاً كفروع أغصان تدلّت للثم السوق فوق الأقدام، أو كعذبات انسدلت على معاطف الظباء والآرام، فتنصبّ في حوض من الرُّخام ذي الألوان، وذلك كله ملحوظ للجالس بذلك المكان. وهذا الماء لا يزال جارياً، مصعّداً ومنحدراً، دائماً وأبداً، على هذا الوضع والأسلوب، له حُسن صوت يزيد في العقول، ويشجي القلوب. وقد كان أخبرنـي بعض مشايخنا الثقات أنّ سماع خرير الماء وصوته مما يزيد في العقل.

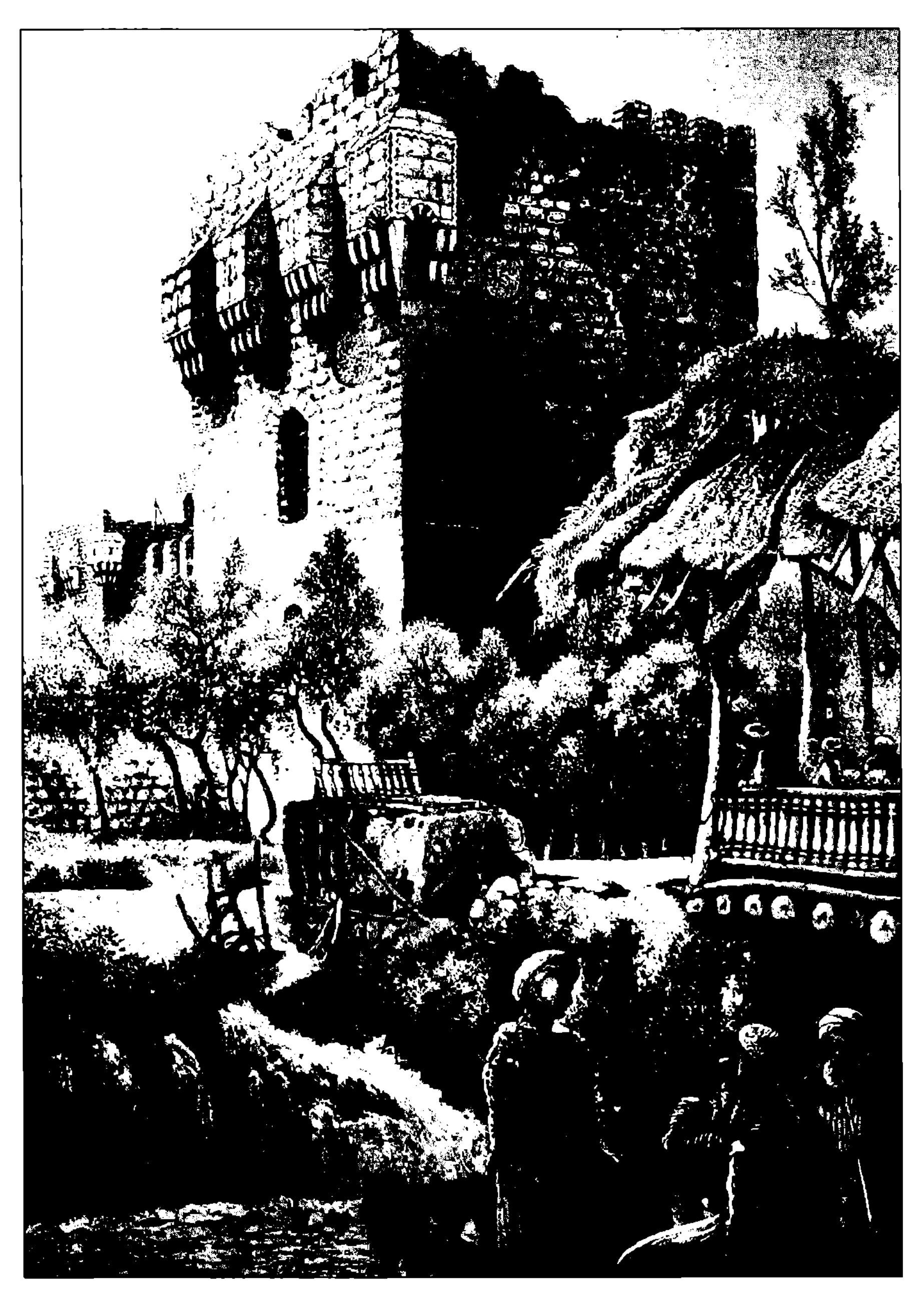
ويُباع في رحبة هذا الماء حوله أنواع فاكهة الشام.

ومن لطيف ما أخبرنـي به بعض أهل الشام الظرفاء، أنّ غريباً قدمها ورأى هذا الفوّار بها، فلما رجع إلى وطنه قال لأهله: رأيتُ بالشام عجباً، شجرة من الماء تمتدّ أغصانها منه يميناً وشمالاً، لم ترَ العين أعجب منها!..

* * *



نقيشة من القرن التاسع عشر تمثل متنزهاً أمام القلعة دمشق عام 1873



نقيشة من القرن التاسع عشر تمثل قهوة العصرونيّة
عند الزاوية الشماليّة الشرقيّة لقلعة دمشق - عام 1881
Charles Wilson: *Picturesque Palestine*, London 1881

برّ الشام في القرن السابع عشر

نصوص للرحالة الفرنسي «جان دى تيڤنو»

Jean de Thévenot

1664 م

جان دى تيڤنو (1633-1667 م) رحّالة فرنسي شهير جاب بلدان الشرق، كما كان لغوياً وعالماً بالطبيعيّات والنبات. ولد في پاريس وتلقى تعليمه في كليّة ناڤار Collège de Navarre، ومنذ أن قرأ نصوص رحّالي عصره إلى المشرق استعرت لديه رغبة جامحة للترحال في بلدان الشرق، ومكّنه غنى عائلته من القيام بذلك، فغادر فرنسا في عام 1652 وزار إنكلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا. وفي روما التقى بالعلامة ديربُلو d'Herbelot الذي دعاه لأن يكون معاونه في رحلة علميّة إلى الشرق، غير أنّ مشاغل ديربُلو حالت دون سفره، بينما انطلق تيڤنو من روما في مايو 1655 متوجهاً إلى جزيرة مالطا، ومنها تابع الإبحار إلى القسطنطينيّة، وظلّ فيها حتى شهر أغسطس، ثم توجّه إلى إزمير وجزر اليونان، وأخيراً إلى مصر حيث حطّ في الإسكندريّة يوم رأس سنة 1657.

مكث تيڤنو في مصر سنة كاملة، ثمّ زار سيناء وفي طريق عودته إلى القاهرة انضمّ إلى قافلة حجّاج متوجهة إلى القدس، فزار أهمّ الأماكن المقصودة بالزيارة في فلسطين. ثمّ بعد أن وقع مرتين في أسر القراصنة بلغ دمياط بحراً، ودخل القاهرة مجدداً ليحضر احتفال فتح القناة عند وفاء النيل (14 أغسطس 1658). وفي عام 1659، أبحر في سفينة إنكليزيّة وزار في طريقه تونس، وبعد وقعة حامية مع قراصنة إسپان، بلغ مدينة ليڤورنو الإيطالية في 12 أبريل، وأمضى في موطنه 4 سنوات يدرس ما ينفعه من علوم في ترحاله.

رحلاته التالية (1663–1667 م):

في شهر نوڤمبر من عام 1663، أبحر جان دى تيڤنو إلى الشرق مجدداً، فمرّ بالإسكندريّة ونزل في صيدا، التي توجّه منها برّاً إلى دمشق وحلب، ثم اجتاز عبر وادي الرّافدين إلى الموصل وبغداد ومندلي. ومن هنالك دخل بلاد فارس (27 أغسطس 1664) فتابع عبر كرمنشاه وهمذان إلى أصفهان، حيث أمضى خمسة أشهر. ثم رافق التاجر الفرنسي جان باتيست تاڤرنييه J. B. Tavernier (ورد ذكره بالتفصيل أعلاه)، فتابع طريقه عبر شيراز ولار وصولاً إلى بندر عبّاس، أملاً بالعثور على مسلك للوصول إلى الهند. غير أنّ ذلك الأمر كان متعذراً بسبب معارضة الهولنديين، ورغم أن تاڤرنييه انطلق في طريقه فلقد آثر تيڤنو العودة إلى شيراز.

بعد أن زار پرسيپوليس (تخت جمشيد)، توجّه تيڤنو إلى البصرة ومنها أبحر إلى الهند في 6 نوڤمبر 1665 م على متن السفينة «هوپويل» *Hopewell*، فوصل إلى ميناء سورات في 10 يناير 1666. أمضى في الهند ثلاثة عشر شهراً، واجتازها من غولكوندا إلى ماسوليپاتام، ثم عاد برّاً إلى سورات، ومنها أبحر إلى بندر عبّاس وتابع طريقه صعوداً إلى شيراز. ثمّ أمضى صيف عام 1667 في أصفهان مُقعداً بسبب رصاصة انطلقت بالخطأ من طبنجة، وفي أكتوبر انطلق في طريقه باتجاه تبريز، لكنه مات على الطريق في 28 نوڤمبر 1667 م.

❊ ❊ ❊

كان جان دى تيڤنو لغوياً مُجيداً، يتقن العربيّة والتّركيّة والفارسيّة، ويتميز بقوة الملاحظة، ولديه خبرة دراسيّة بالعلوم الطبيعيّة وبخاصّة علم النبات، فقام بجمع مجموعة واسعة من النباتات في الهند. وكانت شخصيته تدعو للإعجاب، وما زالت كتاباته ذات شأن إلى يومنا الحاضر، رغم أنه اقتصر على رؤية الوجه الخارجي لحياة المشرق على عكس الرحّالة الفرنسي جان شاردان Jean Chardin مثلاً.

نُشرت رحلة تيڤنو الأولى في پاريس عام 1665 بعنوان: «وقائع رحلة تمّت في المشرق» *Relation d'un Voyage fait au Levant*، وهي تؤلف القسم الأول من رحلاته، ويبدو من المقدّمة التي كتبها في عام 1663 أنه هو الذي قام بإعداد الكتاب للنشر قبل أن ينطلق في رحلته الثانية. أمّا بالنسبة للقسم الثاني والثالث من رحلاته فقد نُشرا بعد وفاته اعتماداً على مذكراته اليوميّة في عامي 1674 و1684. كما ظهرت طبعة جامعة لهما في پاريس عام 1689، وعنها طبعة ثانية في أمستردام عام 1727 في 5 أجزاء صغيرة. كما ظهرت في عام 1687 ترجمة إنكليزية قام بها أ. لوڤِل A. Lovell في لندن.

* * *

في الجزء الثاني من تتمة رحلات تيڤنو المعنونة: «تتمّة الرّحلة إلى المشرق» *Suite du Voyage de Levant* يروي وقائع رحلته إلى دمشق قادماً من صيدا، فأمضى فيها 24 يوماً (28 مارس – 21 أبريل 1664) ثمّ توجه منها إلى حمص عبر القَلَمون، ثمّ حماة وحلب. ويتميّز وصف تيڤنو بالاستفاضة والدقة والتوسّع، وبالنسبة لوصفه لدمشق أعتقد أنه الأفضل في القرن السّابع عشر، فاق به حتى وصف مواطنه الفرنسي لوران دارڤيو الذي زارها قبل أربعة أعوام. والسبب في ذلك الرّسالة التي أتت دارڤيو من مرسيليا فاضطرّته لمغادرة دمشق على عجل، وكذلك تمكُّن تيڤنو من اللغتين العربيّة والتركيّة ودقة ملاحظته.

قمت بنقل وصف تيڤنو لرحلته إلى دمشق، ثم رحلته منها إلى حلب، مع مشاهداته خلال ذلك، ورجعت إلى طبعة پاريسية نُشرت عام 1774 م، محفوظة في المكتبة الوطنية بپاريس. والنص الذي ترجمته هنا يقع بين الصفحات 24–57 من الطبعة. ويبقى أن أذكر أنني أنوي ترجمة النصّ الكامل لتتمّة رحلة تيڤنو إلى المشرق، والذي يتجاوز 400 صفحة.

* * *

يمتاز وصف تيڤنو لدمشق بالدقّة والتحرّي والأصالة، وذكره لمشاهدات تفصيليّة شائقة لم يوردها غيره على الإطلاق. فعلى سبيل المثال يعدّ وصفه للأجزاء المزدوجة من سور المدينة الأكمل والأوضح والأدق بين كل من تطرّق إلى هذا الأمر، وكذلك فهو على حدّ علمي الوحيد الذي وصف سراي الحكم العثمانيّة القديمة التي أنشئت خارج باب النَّصر (مكان القصر العدلي اليوم) وصارت دار الحكم من بعد دار السّعادة المملوكيّة، وهذا كلّه قبل ظهور سرايا الوالي گنج يوسف پاشا في مطلع القرن الثالث عشر الهجري بموضع بناء العابد في ساحة المرجة حالياً.

كذلك يقدّم لنا تيڤنو معلومات جديدة حول أثر محيّر بدمشق، هو البرج المنفصل عن سور دمشق الشرقي، وما كان يحمله من رنوك. كما يفيدنا بتفاصيل جديدة تتعلّق بالواجهة الشرقيّة لقلعة دمشق، وبمعلومات حول خندقها. وأمّا وصفه لبعض مقاهي دمشق التي يحدّدها بالاسم: قهوة السّنانيّة (القهوة الكبيرة)، قهوة الجسر، قهوة النّهرين، فهو وصف حيّ أنيق يجعل القارئ ينتقل على سطوره إلى أواسط القرن السّابع عشر، فيرى دمشق ترفل بحلّة ماتعة جميلة، لم يبق منها اليوم مع الأسف إلا القليل.

* * *

RELATION
D'VN
VOYAGE
FAIT AV
LEVANT.

DANS LAQVELLE IL EST CVRIEVSEMENT TRAITE'
des Estats sujets au Grand Seigneur, des Mœurs, Religions,
Forces, Gouuernemens, Politiques, Langues, &
coustumes des Habitans de ce grand Empire.

Et des singularitez particulieres de l'Archipel, Constantinople, Terre-Sainte, Egypte, Pyramides, Mumies, Deserts d'Arabie, la Meque. Et de plusieurs autres lieux de l'Asie & de l'Affrique, remarquées depuis peu, & non encore décrites iusqu'aprésent.

Outre les choses memorables arriuées au dernier Siege de Bagdat,
les Ceremonies faites aux receptions des Ambassadeurs du
Mogol: Et l'entretien de l'Autheur auec celuy du
Pretejan, où il est parlé des sources du Nil.

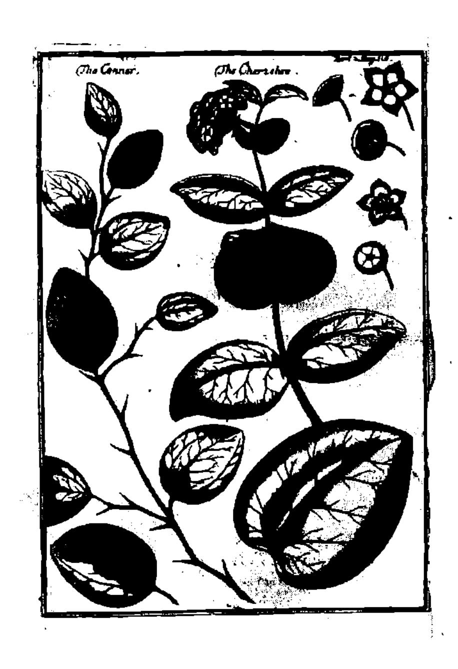
Par Monsieur THEVENOT.

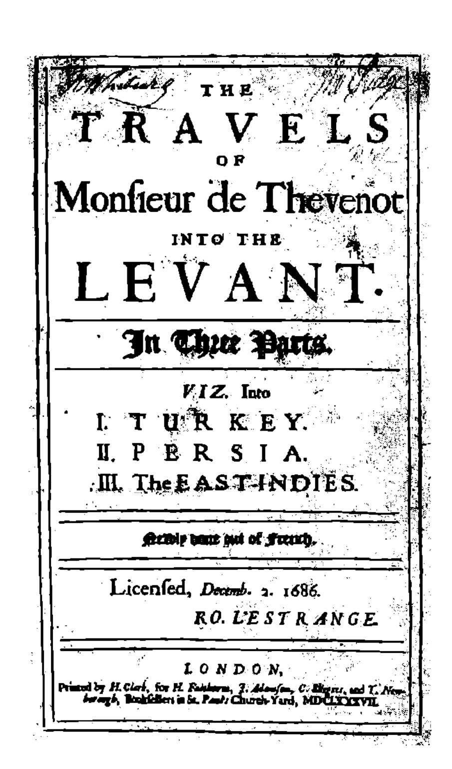


A PARIS,
Chez LOVIS BILAINE, au second Pilier de la Grand'Salle
du Palais, à la Palme & au Grand Cesar.

M. DC. LXIIII
AVEC PRIVILEGE DV ROY.

نموذج للرحلة الأولى لتيڤنو، طبعة باريس 1664





THE
TRAVELS
OF
Monſieur de Thevenot
INTO THE
LEVANT.

In Three Parts.

VIZ. Into
I. TURKEY.
II. PERSIA.
III. The EAST-INDIES.

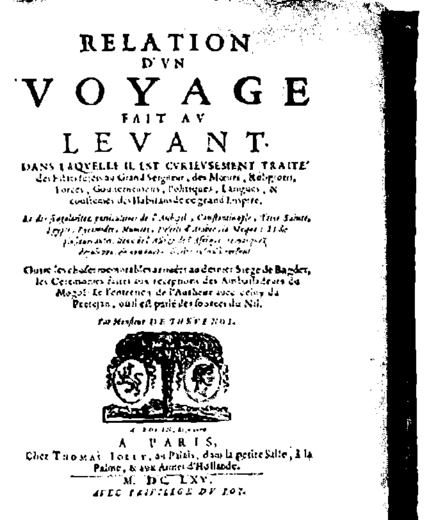
Newly done out of French.

Licenſed, Decemb. 2. 1686.
RO. L'ESTRANGE.

LONDON,
Printed by H. Clark, for H. Faithorne, J. Adamson, C. Skegnes, and T. Newborough, Bookſellers in St. Pauls Church-Yard, MDCLXXXVII.

الطبعة الإنكليزيّة لرحلات تيڤنو، صدرت بلندن 1687 ونموذج عنها رسوم نباتات





RELATION
D'VN
VOYAGE
FAIT AV
LEVANT.

DANS LAQVELLE IL EST CVRIEVSEMENT TRAITÉ

Outre les choſes memorables arriuées au dernier Siege de Bagdet, les Ceremonies faites aux receptions des Ambaſſadeurs du Mogol: Et l'entretien de l'Autheur auec celuy du Pretejan, où il eſt parlé des ſources du Nil.

Par Monſieur DE THEVENOT.

A PARIS,
Chez THOMAS IOLLY, au Palais, dans la petite Salle, à la Palme, & aux Armes d'Hollande.
M. DC. LXV.
AVEC PRIVILEGE DV ROY.

نموذج للطبعة القديمة لرحلة تيڤنو الأولى، طبعة باريس 1665



صورة الرحّالة جان دى تيڤنو، تتصدّر طبعة پاريس 1665

SUITE
DU VOYAGE DE LEVANT;

DANS LAQUELLE APRES PLUSIEURS Remarques tres-ſingulieres ſur des particularitez de l'Egypte, de la Syrie, de la Meſopotamie, de l'Euphrate & du Tygre,

IL EST TRAITE' DE LA PERSE, ET AVTRES Eſtats ſujets au Roy de Perſe, ainſi que de ſa Cour, & des Religions. Gouvernemens, mœurs, forces, Langues, Sciences, Arts & Coûtumes des Peuples de ce grand Empire;

ET AUSSI DES ANTIQUITEZ DE TCHEHELMINAR & autres lieux vers l'ancienne PERSEPOLIS: Et particulierement de la route exacte de ce grand Voyage, tant par Terre en Turquie & en Perſe, que par Mer dans la Mediterranée, Golfe Perſique & Mer des Indes.

Par Monſieur DE THEVENOT.

SECONDE PARTIE.





A PARIS,
Chez CHARLES ANGOT, Libraire-Juré, ruë ſaint Jacques, au Lyon d'Or.

M. DC. LXXIV.

نموذج لتتمّة رحلة تيفنو، طبعة باريس 1674 الجزء الثانـي



لوحة زيتيّة تمثّل جان دى تيڤنو، رُسمت حوالي عام 1660-1663
للرسّام فيليپ دى شامپانـْيْ Philippe de Champagne (1602–1674)
محفوظة في مجموعة مكتبة هنتينغتون Huntington، سان مارينو كاليفورنيا

بعد أن سرنا هكذا لغاية الساعة الثالثة من بعض الظهر تقريباً، عثرنا على قرية تدعى كفر حَوَر، وقال لي المكاريّة الذين تدخّلوا في القصة، إنه هنا كان يعيش في الماضي نمور، ومن هنا أُطلقت السّهام باتجاه السماء. اجتزنا تلك القرية بعد نزولنا في وادٍ صغير، من ثم وبقليل من الحيوية، بلغنا قرية تدعى بيتيما[1]، وهناك اتخذنا لأنفسنا مأوىً في إصطبلٍ راقٍ لأنه يضم مكاناً يرتفع عن الأرض مسافة قدمين، كي يقيم فيه الناس بعيداً عن الحيوانات.

غادرنا تلك القرية في اليوم التالي، الجمعة 28 من شهر مارس، في الساعة الخامسة والنصف. في البداية لم يكن أمامنا سوى الصعود والنزول لمدة ساعتين؛ بعد ذلك وصلنا إلى سهل مترامي الأرجاء مليء بالحجارة، ما خلا بعض الأمكنة التي كانت مزروعة، وهذا السهل يؤدي إلى دمشق. ويضمّ عدداً من القرى. أول ما رأينا منها قرية تدعى قَطَنا، وتبعد نصف فرسخ تقريباً عنا من جهة اليسار. مررنا بعد ذلك قرب قرية تدعى عرطوز، بعد ذلك بقليل لمحنا إلى اليمين قرية اسمها المعظّمية[2]، وكذلك العديد من القرى الأخرى. بعد ذلك تركنا الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة ومشينا باتجاه اليسار، إلى قرية كبيرة اسمها سليمان Soliman، ومن بعدها إلى قرية أخرى تدعى الصّالحية Salaïa، قرية المكاريّة، حيث أرادوني أن أنام إن لم أحدث الكثير من الصّخب؛ يذهب الناس إلى تلك القرية عادة ليتركوا بهائمهم ويأخذوا غيرها.

---

(1) هكذا اسمها القديم، واليوم تعرف باسم: بيت تيما، والنسبة إليها: بيتموني.

(2) نسبة الاسم إلى الملك الأيّوبـي المعظّم عيسى، وثمّة معظّمية أخرى قرب جيرود.

تابعنا إذن مسيرنا بعد المرور بعديد من البساتين، وبلغتُ دمشق في الساعة الثالثة من بعد الظهر. لم نرَ طوال هذه الرحلة سوى أربعة ذئاب لونها رمادي مائل إلى البياض، كانت في مجموعة واحدة ولم تُبدِ الخوف منا، لأنها تراجعت على مهل عوضاً عن الهرب. ورأينا هناك العديد من أسراب الحجل.

بعد أن استرحتُ بضعة أيام في دمشق، عزمت على زيارة المدينة؛ لكنني قبل البدء بتلك الزيارة، اتخذت إجراءاتـي من أجل ذلك؛ وباعتبار أنه كان ضرورياً بالنسبة لي أن ألقى حماية من قبل شخص صاحب نفوذ، لم أتردّد في زيارة طوپجي باشي الذي استقبلني بحفاوة ولطف شديدين، وفيما بعد أخبرته عن الخدمات الهامّة التي قُدّمت لي.

لمدينة دمشق ثمانية أبواب، هي: باب الشرق أو باب شرقي الذي يطلّ من جهة الجنوب على امتداد الأسوار المقابلة للشرق؛ باب الشاغور[1]، المُطل على الجنوب، باب الجابية المُطل على الغرب والمائل قليلاً إلى الجنوب، باب السّروجيّة (شوكارويا)[2] Choucaroüa أو باب سپاهي (باب السپاهيّة) لأنه كانت تُباع فيه السّروج اللازمة للفرسان، وهو يطل على الغرب، كما أُطلق عليه اسم (باب السّرايا) بسبب وجوده مقابل السّراي، باب البابوج Baboutch (البوابجيّة)[3]، وسُميّ هكذا لأنه المكان الذي تُباع فيه البوابيج أوالأحذية، ويطلّ على المنطقة الواقعة بين الغرب والشمال لكنه يميل أكثر قليلاً نحو الشمال؛ باب الفراديس، ويعني باب الجنان، والمُطل على الغرب والشمال، إنما يطلّ أكثر باتجاه الشمال؛ باب سلام، أو باب السّلام، وسُميّ هكذا لعدم وجود رسوم لقاء للدّخول أو الخروج منه، وقد منحه هذا الإعفاء سلطان عظيم، وهو يطلّ على الشمال؛ وأخيراً باب توما الذي يحمل اسم هذا القديس، وذلك بسبب وجود كنيسة مهدّمة مكرّسة باسم القديس توما، وهو يواجه الشمال.

---

(1) هو المعروف عموماً حتى اليوم بالباب الصغير، وكانت العامّة تدعوه فعلاً باب الشّاغور.

(2) تسمية مصحفة عن السّروجيّة، والمراد باب النّصر الذي كان موضع مدخل سوق الحميديّة.

(3) الاسم كانت تطلقه العامّة بدمشق على باب الفرج (إلى شرقي القلعة)، وهو من بناء نور الدّين.

دُرت المدينة من الخارج خلال ساعة وربع، متتبعاً الأسوار وبخطى حثيثة، لكن الضواحي أكبر مرتين من المدينة، ومن بينها باب الله، وهي ضاحية واقعة خارج باب الجابية، وتمتدّ على طول ثلاثة أو أربعة أميال. تُسمّى باب الله أو كما يُقال الباب الإلهي؛ لأنه من هنا تمُرّ الهبات المرسلة من دمشق إلى مكة. خلال هذه الجولة لاحظت أننا لا نرى أسواراً من الخارج، إلا من باب الشاغور، وصولاً إلى أمام باب شرقي، ثم أمام باب توما ولغاية باب السّلام Salem، باعتبار أن الباقي مغطى بالمنازل المبنية من الخارج. والأسوار مزدوجة ابتداءً من باب الشاغور ولغاية باب توما، وعالية جداً ومبنية بإتقان باستخدام حجارة ضخمة، ومزيّنة بشراريف جميلة وأبراج رائعة تفصل بينها مسافات[1]، معظمها دائري؛ وبعضها مربّع لكنها قليلة. يبلغ ارتفاع الأسوار الداخلية تقريباً أربع قامات (وكل قامة تعادل 6 أقدام)، والأسوار الخارجية تبعد ما يقارب قامتين، ويبلغ ارتفاعها ثلاث قامات، ويمتلئ ما بينهما بالتراب بارتفاع أربعة أو خمسة أقدام نحو الأعلى. ويوجد أمام تلك الأسوار خندق، يبلغ عرضه حوالي خمس قامات وعمقه قامتين أو قامتين ونصف.

تبعد أبراج السّور الداخلية عن بعضها مسافة أربعين خطوة تقريباً، وكل خطوة تبلغ قدمين، ويبلغ قطرها حوالي ثماني خطوات. وتبعد أبراج السّور الخارجية عن بعضها مسافة ستين خطوة ويبلغ قطرها حوالي عشر خطوات؛ لكن هذا ليس صحيحاً بالإجمال. إذ يبلغ عرض الأبراج المربعة خمس عشرة أو ست عشرة خطوة على الأقل. والأسوار من باب توما حتى باب السّلام بسيطة ويوجد أمامها خندق.

قمتُ مرة بقياس طول المدينة، اعتباراً من باب شرقي وحتى باب الجابية، على امتداد الطريق الرّوماني المستقيم Rectus، فاستغرق ذلك ربع ساعة، وعددتُ ألفين ومئة خطوة.

---

(1) لا ريب أنّ هذا الوصف لسور دمشق وأبراجه المشيّدة في القرون الوسطى على أيدي نور الدّين والأيّوبيين هو الأهم بين جميع نصوص الرّحّالين، بدقته وشموله.

لننظر إلى الأمكنة والأشياء بتفاصيلها. ما يزوره المرء عادة قبل كل شيء في دمشق هو منزل حنانيا، الذي كان يقطنه شيخ. ذهبت إلى هناك مع عدد من الأصدقاء، دخلنا إلى هناك بدفع بعض القروش الفضيّة. وبعد أن اجتزنا الباب واستدرنا نحو اليسار نزلنا أربعة درجات لنصل إلى قبو كان في الماضي كنيسة، سقفها وأرضيتها من الفسيفساء ومازلنا نرى بعض البقايا على الأرضية. وهو حالياً مسجد مضاء بما فيه الكفاية، فلا يستقيم أن يكون من قبل تحت مستوى الأرض. ويقال إن هذا المكان هو الغرفة التي كان يعيش فيها حنانيا عندما أمره الله أن يذهب لملاقاة شاول، هذا ما ورد في أعمال الرّسل.

بعد زيارة هذا المنزل حيث لا يوجد شيء يثير الفضول سوى القِدم، ذهبنا إلى الباب المسمى باب شرقي، أي باب الشرق، ويسمى أيضاً باب القديس بولس، وذلك لقربه من المكان الذي نزل منه هذا القديس الرّسول في سلّة. يبدأ من هذا الباب الطريق المستقيم الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس والذي يصل إلى باب الجابية.

بعد أن اجتزنا هذا الباب واتجهنا يميناً وسرنا بضعة خطوات، رأينا في أحد الأبراج المربعة الموجودة على سور المدينة ويبلغ ارتفاعها مسافة مقياسين تقريباً، حجرين منحوتين، نُقش على كل واحد منهما زهرة زنبق fleur-de-lis، وبين هذين الحجرين حيث توجد الزهرتان، هناك زهرة ثالثة ومعها نقش باللغة الفرنجيّة[1]، لكن الأحرف مهترئة جداً بحيث لا يمكن قراءتها. وقرب كل زنبقة هناك حجران آخران، وأسدان محفوران وقرب كل أسد يوجد نقش على شكل تعريق نباتـي شائك chardon كبير.

---

(1) هذه المعلومات حول البرج ذي الزّنوك جديدة تماماً على ما أورده دارڤيو عام 1660 كما رأينا في نصّه أعلاه والدّراسة التي أضفتها إليه في الملحق الأول. فهنا ذكر لزهرة زنبق ثالثة ونقش باللغة الفرنسيّة القديمة. ويبدو لي أن رأيه حول جلب هذا النقش الأخير من حصن بانياس بالجولان معقول، وتبقى نسبة الزنبقتين الأخريين غالباً لنور الدّين الذي شيّد أسوار دمشق، والأسدين للمعظّم عيسى الأيّوبي الذي رمّم كثيراً من الأبواب والتحصينات.

هناك من يدّعي أن الفرنسيين هم من شيّد هذا البرج، هذا أمر محتمل، لكن الأقرب إلى المعقول هو أن الأتراك هم من أحضروا هذه الحجارة منحوتة جاهزة ومنقوشة أيضاً من بانياس أو من أماكن أخرى كانت للفرنسيين، وقام الأتراك بهدمها، لأنهم كسالى لدرجة أنهم يؤثرون أن يأتوا بالحجارة منحوتة جاهزة على أن ينحتوها في أمكنة العمل. بعد ذلك وصلنا إلى الرّيف، وعلى بعد بضعة مئات من الخطوات، يقع المكان الذي يُدفن فيه المسيحيون واليهود، بيد أن لكل ديانة مقبرتها وتفصلها عن غيرها مساحة معينة.

عندما ابتعدنا بعد ذلك عدة خطوات عن الأسوار وصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اليهود القديس جرجس البواب بتهمة إنقاذ القديس بولس. هذا المكان هو عبارة عن باحة يتوسطها ضريح هذا القديس، وهو مقام بالحجارة المنحوتة وله غطاء صغير على شكل هرم؛ ويوجد في الأسفل فتحة صغيرة يُضيء فيها المسيحيون عادة مصباحاً. إن إجلالهم لهذا القديس كبير، ويتّبعهم في ذلك الأتراك أنفسهم الذين قالوا مثلما قال المسيحيون، بأنه كان يصنع العجائب كل يوم، وأن الكثير من الأتراك المرضى الذين أمضوا ليلة هناك، خرجوا صباحاً بصحة جيدة. في يوم عيد هذا القديس نرى جموعاً غفيرة من الناس رجالاً ونساءً على حدّ سواء وأطفالاً؛ مسيحيين وأتراكاً يأتون إلى هذا القبر. وفي مدخل الباحة من جهة اليسار، هناك مكان مخصص لدفن مَن يموتون من أجل إيمانهم بيسوع المسيح، عند وفاة أحد المسيحيين، يؤتى بجثمانه أولاً إلى هذا المكان، وبعد تلاوة صلاة الجنازة يُحمل إلى المكان المخصص للقبر.

عندما خرجنا من هذا المكان تابعنا السير حسب النّسق المستقيم لأسوار المدينة ؛ بعد ذلك بقليل انضممنا إليهم في المكان الذي نزل فيه القديس بولس في سلة من على السّور. يوجد هناك باب قام الأتراك بسدّه لاقتناعهم أن الاستيلاء على المدينة لن يتم سوى من هذا الباب؛ ووضعوا في الأعلى حجراً ضخماً، مع بعض الأسطر العربية المنقوشة، التي تقول إنه هنا، في هذا المكان نزل القديس بولس رسول المسيح كي يهرب من اليهود.

عدنا بعد ذلك إلى المدينة عبر باب الشاغور[1] Bab Tchiaour، وسرنا في الطريق المستقيم، وعندما سلكنا هذا الطريق مررنا بسوق جميل وكبير جداً ومغطى بهياكل خشبية محدّبة، والدّكاكين مصطفة على جانبيه؛ ويدعى سوق الأقمشة لأنه لا يباع فيه أي شيء آخر، وعلمت عند مروري من هناك أن رطل دمشق la rotte هو وحدة وزن تعادل خمسة أرطال في فرنسا.

بعد أن اجتزنا نصف السوق، وهو سوق طويل جداً، اتجهنا يساراً، وسلكنا طريقاً ضيقاً يؤدي إلى بيت يهوذا القريب من هنا[2]، وكما هو معروف في هذا البلد، فإنّ القديس بولس اختبأ فيه لمدة ثلاثة أيام، وأن حنانيا ذهب للقائه هناك. دخلنا إلى هذه المنزل الذي كان في ما مضى كنيسة كبيرة وجميلة، وإلى اليوم يرى فيها المرء باباً حديدياً جميلاً دخلنا منه، ثم وصلنا بعد ذلك إلى غرفة صغيرة تضمّ قبر حنانيا، مُسنداً إلى السور، وهو مغطى بقماش أخضر خيطت عليه أحرف عربية، قرأتُ منها هذه الكلمات: *Veli allah, el ahmed rivan* وهي تعني: وليّ الله أحمد يرقد هنا، أو مدفون هنا[3]. ويكنّ له الأتراك الكثير من الإجلال، وهم يحافظون على هذا المنزل لأجل المنفعة التي يتلقونها من الفرنجة الذين يعطونهم شيئاً ما عندما يذهبون إلى هناك.

عدنا بعد ذلك إلى سوق الأقمشة، أو الطريق المستقيم؛ وعلى بعد منه باتجاه اليسار، اقتربنا من باب يفصل سوق الأقمشة هذا عن سوق آخر يقع في الطرف، حيث يوجد ينبوع ماء، يقال إنّ حنانيا عمّد القديس بولس فيه. وبعد أن مررنا من هذا الباب دخلنا إلى سوق آخر، يقع أيضاً في الطريق المستقيم، بدايته مغطاة بشكل محدّب، والسّقف الذي يغطى ما تبقى منه مسطّح ومصنوع من عوارض دائرية، وتباع فيه أقمشة أيضاً. في النهاية وصلنا إلى باب المدينة المسمّى باب الجابية، حيث ينتهي الطريق المستقيم.

---

(1) أي الباب الصّغير، وكان يدعوه أهل دمشق آنذاك باب الشّاغور.

(2) راجع ما تقدّم أعلاه من تفاصيل حول بيت يهوذا في نصّ دارڤيو.

(3) لا وجود له اليوم، ولعله زال بقصف الفرنسيين حيّ سيدي عامود (الحريقة) عام 1925.

بعد أن اجتزنا هذا الباب، على بعد عدّة خطوات، اتجهنا يساراً فوجدنا أنفسنا في سوق كبير تُصنع فيه علب خشبية. هذا السوق أكبر من الأسواق الأخرى ومغطى بهياكل خشبية محدّبة، مدعّمة بعدة قناطر خشبية كبيرة على مسافة من بعضها. يسمى هذا المكان السّنانية نسبة لپاشا دمشق الذي يُدعى سِنان، وهو الذي أمر ببنائه، مثلما أمر بتشييد العديد من الأبنية العامة في مناطق مختلفة من تركية، وهذه الأبنية كلها تحمل اسمه.

اجتزنا الباب، وعندما دخلنا هذا السّوق رأينا «الجامع الأخضر»[1]، وقد سُمّي هكذا بسبب وجود مئذنة مكسوّة تماماً بالآجرّ الأخضر المشوي، مما يجعلها برّاقة للغاية؛ يغطي القسم العلوي سُرادق من المادّة ذاتها، ما عدا رأس المئذنة فهو مغطى بالرّصاص. مررنا أمام باب هذا الجامع، ورأيت خلال برهة قصيرة ما أجرؤ أن اعتبره باحة كبيرة مبلّطة بحجارة جميلة، وحوض يتوسطه ينبوع، وفي طرف هذه الباحة يوجد رواق مدعّم بثمانية أعمدة رخامية من الطراز الكورنثي، والأعمدة الستة الموجودة في الوسط مخدّدة، وتحمل تلك الأعمدة الثمانية كذلك قباباً صغيرة مكسوّة بالرصاص، وتغطي الرواق الذي ندخل منه إلى الجامع عبر ثلاثة أبواب. وله قبة ضخمة مغطاة تماماً بالرّصاص، وعلى الجانب باتجاه الغرب، يوجد منارة مكسوّة بالرّصاص أيضاً، ومغطاة بسُرادق من المادة نفسها. يقول الأتراك إنّ هذا الجامع شُيد في هذا المكان لأنه عندما أتى النبي محمّد إلى هنا، لم يرد الدخول إلى المدينة قائلاً إنها بالغة الجمال، وكي يبتعد بسرعة وضع قدماً على جبل ليس ببعيد، ويوجد فوقه برج صغير، وبعده وبقفزة واحدة وصل إلى مكة. فمن أجل هذا السبب سعوا إلى كسوة هذا الجامع بالأخضر، وهو اللون المميّز لهذا النّبي. اعترف آخرون أنه رغم قدوم النبي محمّد إلى هذا المكان، رفض دخول المدينة بتاتاً، إنما يقولون إن علياً هو من قام بهذه القفزة الجميلة. وعلى أيّ حال فهم يسمّون دمشق «شام شريف» وتعني: دمشق المشرّفة، وذلك لأن النّبي محمّداً أتى إليها.

(1) المقصود به جامع السّنانيّة ذو القيشاني، ولعل أهل دمشق كانوا يسمّونه بالأخضر آنذاك.

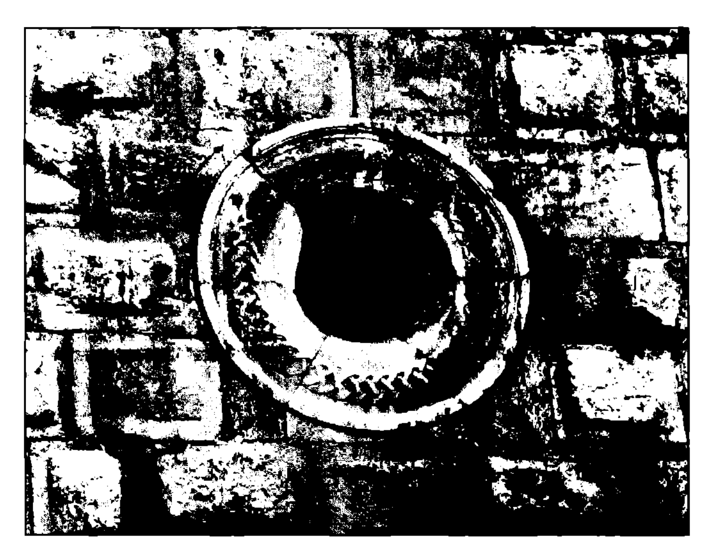
من هناك عدنا إلى أسوار المدينة وسرنا على امتداد شارع السّراي؛ فرأينا[1] إلى يسارنا ضريحاً جميلاً له قبّة يبلغ ارتفاعها عدّة قامات ومصفّحة بالرّصاص، ويليه جامع جميل له صحن، واجهته شماليّة وفي طرف الصّحن رواق يقوم على ستة أعمدة، يُدخل منه إلى الجامع المغطى بقبّة كبيرة جداً، وله قبّة أخرى أصغر في كل جهة من جهاته، والقباب الثلاث مغطاة بالرّصاص. شيّد هذا الجامع پاشا يدعى حَسَن، ترك بعد مماته مالاً لبناء هذا المسجد وضريحاً له.

تابعنا طريقنا ووصلنا إلى مكان في الشارع يوجد فيه على اليسار سراي الپاشا الذي يبدو جميلاً إلى حدّ ما. يوجد فوق الباب جناح على شكل هرم مقام بالآجرّ فقط وغير مغطى البتة[2]، إنه جناح كاخيا Kiaya الپاشا، ويقع السّراي في الجهة اليمنى. وفي هذا المكان يقع الباب المسمى باب السّپاهي Bab-Espahi أو باب سوق السّپاهي[3].

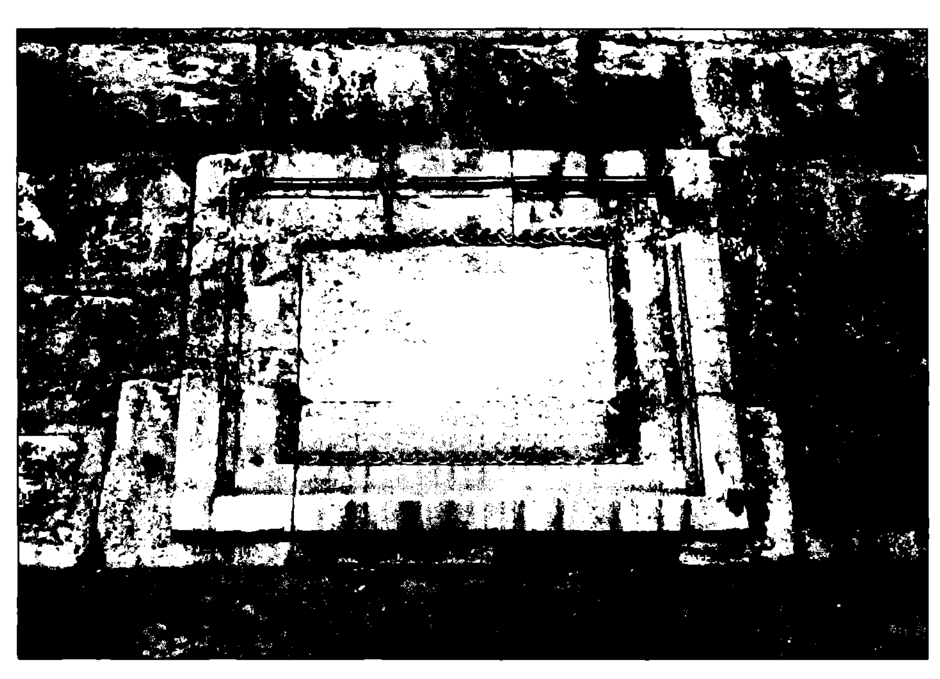
دخلنا إلى المدينة ومشينا على طول القلعة الموجودة إلى يسارنا، ولها خندق على مسافة وفيه ماء، تستخدم هذه القلعة كسور للمدينة من تلك الجهة، ويصل امتدادها لغاية باب البوابيج (البوابجيّة)؛ وهي كبيرة ومربعة الشكل ومبنية بشكل متين من الحجارة المنحوتة بشكل ألواح محفّفة، وأسوارها بالغة العلو، ولها على مسافات متساوية أبراج عالية وضخمة مبنية على نفس طراز الأبراج الأخرى، والقريبة جداً من بعضها البعض. وبعد أن سرنا على طول تلك الجهة، مشينا في الجهة الأخرى المستخدمة أيضاً كسور للمدينة[4]. ورأينا فيها سلسلة حجريّة مصنوعة من حجر مفرد، وإن كانت مركبة من عدة حلقات منحوتة الواحدة في قلب الأخرى، وهي معلقة في أعلى السور.

---

(1) المقصود جامع الدّرويشيّة، وبانيه درويش باشا عام 979 هـ وليس اسمه حسن كما يروي.
(2) هذا وصف نادر جداً للسراي العثماني القديم، لا نجده عند غير تيڤنو.
(3) المقصود باب النّصر الذي كان في موضع مدخل سوق الحميديّة، فتحه النّاصر صلاح الدّين، وذكره ابن جُبير 580 هـ. كان يُعرف في العهد العثماني بباب السّرايا نسبة للسّرايا العثمانيّة القديمة موضع القصر العدلي الحالي. هدمه الوالي شرواني پاشا عام 1863 م.
(4) يقصد الواجهة الشرقيّة للقلعة، وفيها حلقتان منحوتتان شوّهتا مؤخراً 2010 بنافثات الرّمل.



الحلقة ذات السلسلة المنحوتة في الحجر في الواجهة الشرقيّة للقلعة
ما قبل تشويهها البالغ بنافثات الرّمل في عام 2010



نقش كتابـي جميل في الواجهة الشرقيّة يعود للعهد الأيّوبي

وهناك أيضاً سلسلة أطول، لكنها وقعت في الخندق منذ ستة أعوام بسبب سوء الطقس وانكسرت[1].

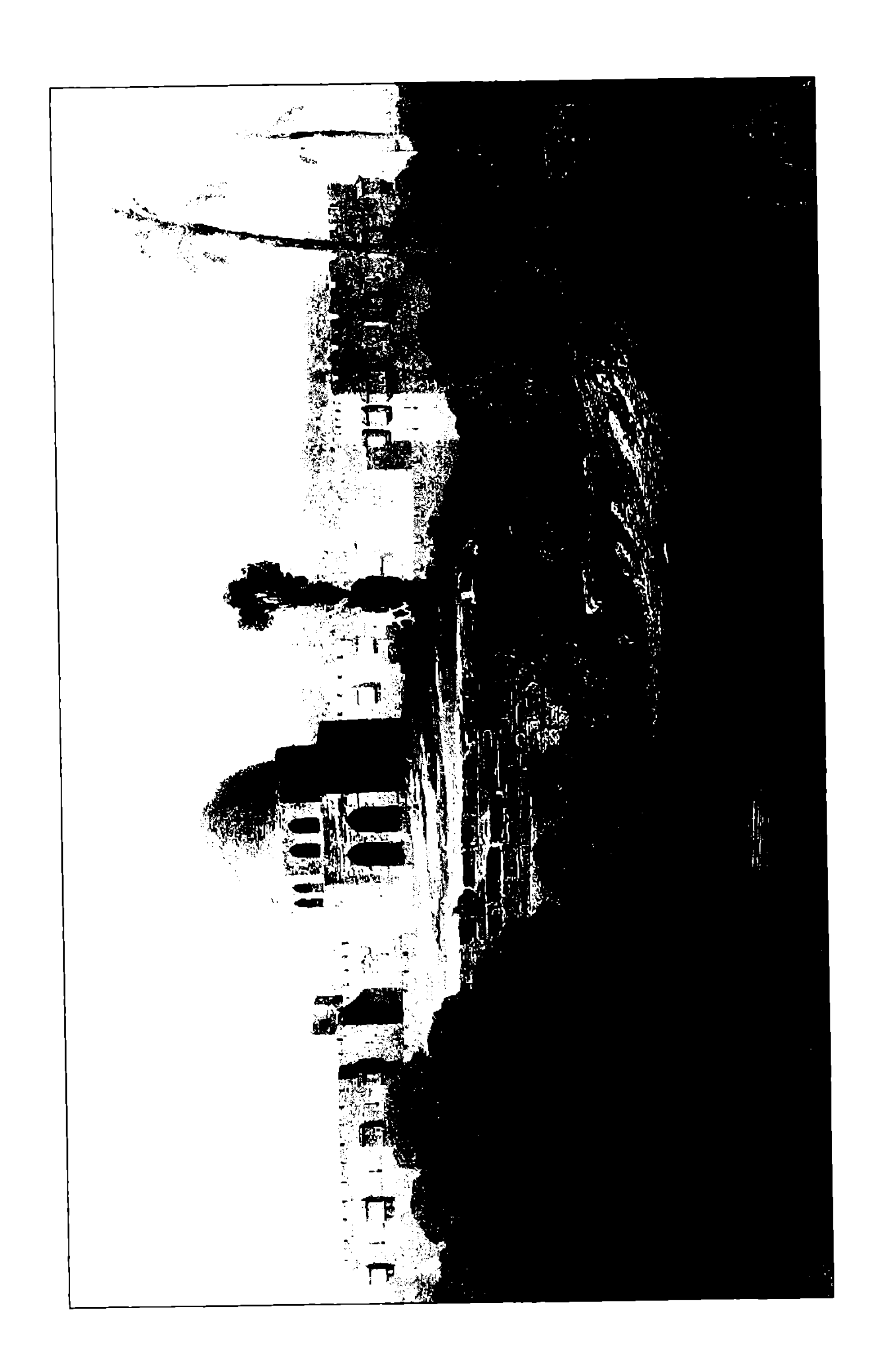
من هنا مررنا من أمام باب القلعة ورأينا عدّة مدافع مخصّصة لحماية القلعة، من ثمّ عدنا إلى سوق البوابيج (البوابجيّة)، وبعد أن اجتزناه ذهبنا عبر طرق فرعية لنصل إلى شارع يوجد فيه مسجدان يضمّان قبور بعض ملوك دمشق[2]، كانا في السابق كنيستين للمسيحيين. هناك كنيسة لم نستطع رؤيتها، لكننا رأينا في الجهة الأخرى حاجزاً فولاذيّاً مصقولاً جيداً. هذا المسجد دائري الشكل ومغطى بقبّة جميلة مصنوعة من الحجارة المنحوتة، تعلوها عدّة نوافذ بشكل دائري، وهو مكسوّ برخام متعدد الألوان، من الأرضية وعلى ارتفاع ثلاثة مقاييس تقريباً؛ ومن هذا المكان وحتى النوافذ توجد عدة لوحات جميلة تمثل كنائس وأشجاراً من الموزاييك.

نرى في وسط المسجد ضريحين واحداً إلى جانب الآخر، فوق منبر بارتفاع نصف قدم: يتكوّن هذان الضريحان من خشب الأرز المتقن الصنع، ويرتفعان عن الأرض مسافة تقارب الأربعة أو الخمسة أقدام بشكل محدّب. يقال إن أحدهما يضمّ جثمان الملك الظاهر، الذي تحوّل من مسيحي إلى تركي، واضطهد المسيحيين بشدّة، ويقول الأتراك إنه لا يمكن الإبقاء على شمعة مضاءة ولا على مصباح مضاء، ومن المؤكد أنه في المرتين اللتين مررت فيهما هناك لم أر شيئاً من هذا القبيل. توجد قرب هذين الضريحين عدّة نسخ من القرآن الكريم معلقة على مقارئ مصنوعة من مادة الضريحين ذاتها. وفي كل المرّات التي ذهبت فيها إلى هناك لم أر أحداً، بيد أنني أتخيل بأنه هناك أناس مأجورون من أجل قراءة القرآن على روحيّ هذين الملكين، كما هي العادة بالنسبة لسلاطين الديانة المحمّدية الذين يتركون بعد موتهم مالاً وفيراً لإقامة تلك الصلوات.

---

(1) هذه معلومة جديدة تماماً ينفرد بها تيفنو، ويبدو أن هذه السّلسلة الحجريّة كانت فوق البوّابة الشرقيّة للقلعة؟ كم هو ثمين هذا النصّ بالإضافة إلى نصّ معاصره دارفيو.

(2) يعني المدرستين الجقمقيّة والظاهريّة، وفي الثانية قبرا الظاهر وابنه الملك السّعيد بركة خان.



بعد أن أمعنّا النظر في هذا المسجد قدر استطاعتنا، وصلنا إلى جامع آخر يدعى الجامع الكبير. درتُ حوله كي أستطيع رؤيته من خلال الأبواب التي كانت مفتوحة، لأن المسيحي لا يجرؤ لا أن يدخل إلى هناك ولا حتى أن يتوقف أمام الباب. عرض عليّ بعض الأتراك أن يدخلوني معتمراً عمامة تركية، لكنني لم أرغب أبداً بقبول هذا العرض، لأنه في حال انكشفت سيتوجّب علي الموت، ولا أريد (بفضل نعمة الله) أن أتخلّى عن ديني.

يتم الدّخول إلى هذا المسجد من جهة الغرب، عبر بابين برونزيين كبيرين، يبلغ ارتفاعهما ما يقارب أربعة قامات، متقنيّ الصنع وتغطيهما أشكال غريبة، يتوسط كل منها كأس محفور بإتقان[1]. ورأيت من خلال تلك الأبواب عرض هذا المسجد الذي يمكن أن يصل إلى حوالي ثمانية عشرة مقياساً، وفيه صفّان من الأعمدة الرّخامية الضخمة والعالية، رمادية اللون ومن الطراز الكورنثي والتي تقسمه إلى ثلاثة أجنحة، وكل عموديين من هذه الأعمدة يحملان قنطرة، وفوق كل قنطرة يوجد قنطرتان صغيرتان تفصلها أعمدة صغيرة تشبه إلى حدّ ما النوافذ؛ والأرضية مصنوعة من الحجارة الجميلة التي تلمع مثل المرايا. وتغطي الهياكل الخشبية المحدّبة هذا المسجد الكبير الممتد من الشرق إلى الغرب، وتقع قبّته الكبيرة جداً في الوسط، لكن من جهة الشمال، في أعرض مكان في القبة، توجد نوافذ صغيرة مقبّبة على محيطها؛ وابتداءً من النوافذ وعلى ارتفاع مماثل لارتفاع النوافذ الذي يمكن أن يصل إلى ثلاثة أو أربعة أقدام: يغطي القبة حجر أخضر مشوي، يجعلها متعة للنظر وما تبقى مغطى بالجير. في كل جهة من وجه المسجد توجد منارة مربعة ونوافذ مماثلة لنوافذنا، لكن المنارة الموجودة في جهة الشرق أعلى وأعرض، ويقال إنه بُني بعدما شيّدت في بادئ الأمر هذه الكنيسة وتحوّلت بعد ذلك إلى جامع. يؤكد الأتراك أنه من هذه المنارة سيعود يسوع إلى هذا العالم. وثمّة منارة ثالثة خلف القبة، التي تقابل بشكل قطري منارة عيسى، هذه الأخيرة دائرية شيّدها الأتراك رغم أن المربع أصغر.

---

(1) الكأس هو رنك السّلطان المملوكي الملك النّاصر فَرَج ابن الظاهر برقوق.

صعدتُ في إحدى ليالي رمضان إلى الشرفات، حتى وصلت إلى نوافذ هذا المسجد، المماثلة في صنعها لنوافذ كنائسنا، ولها مربعات زجاجية مثبتة في أشكال جصّية مزخرفة. نظرت من خلال زجاج إحدى تلك النوافذ، فرأيت طرف المسجد، ولم أستطع أن أرى ذلك من خلال النوافذ الأخرى لأنها مزيّنة من الخارج بمشبّك نحاسي. لمحت على ضوء القناديل في القبلة المتجهة نحو الجنوب حفرة مغلقة بحاجز من الشبك الحديدي المذهب، يقال إن رأس القديس زكريّا موجود فيها[1]، لم أتمكن من رؤية الزخارف الأخرى، باستثناء المصابيح المتوفرة بكميات كبيرة بالإضافة إلى الأعمدة التي تحدثت عنها.

وفيما عدا صفَّي الأعمدة الموجودين في هيكل المسجد، والتي يتراوح عددها مابين ثمانية وثلاثين إلى تسعة عشر عموداً في كل صفّ، هناك أيضاً ستون عموداً على الأقل في الفناء وفي الأروقة الموجودة في مدخل الباحة على حدّ سواء. وإليكم ما تمكنت من ملاحظته في هذا الفناء وفي الأروقة، ومن مجمل ما رأيته خارج هذا المسجد بعد أن دُرت حوله عدة مرات:

يوجد من جهة الغرب ثلاثة أبواب برونزية مزيّنة بعدّة أشغال، وأمام هذه الأبواب من داخل الفناء، يوجد رواق مقسّم إلى ممرين بثمانية أعمدة ضخمة، تصطف أربعة منها بشكل طولاني والأربعة الأخرى بشكل عرضاني؛ تحمل هذه الأعمدة قناطر، وفوقها توجد قنطرتان أخريان صغيرتان، مصمّمتان على شكل نوافذ منصّفة بعمود صغير. من هذا الرواق يتم الدخول إلى الفناء وهو فناء كبير جداً وواسع ومُبلّط بأحجار رخامية كبيرة رمادية اللون شديدة اللمعان، مماثلة لحجارة أرضية الجامع والأروقة. وفي آخر الفناء تقريباً، يوجد نوع من مصلّى صغير ، له قبّة مغطاة محمولة على عدد من الأعمدة الرخامية، ويُروى أنها كانت بيت العبادة[2]. ومن مدخل الغرب هذا، نرى في طرف الباحة باب الشرق وفي الجهة اليمنى نرى كتلة حرم الجامع.

---

(1) بل الواقع أنه رأس النبي يحيى بن زكريّا، عليهما السّلام.

(2) الغالب أنّ هذه القبّة صومعة بيزنطيّة قديمة، والمصطلح فيما بعد تسميتها: قبّة بيت المال.

من جهة الجنوب، يوجد في سوق البيك[1] pic (سمّي هكذا لأنه يُباع فيه قماش يقاس بالبيك، وحدة قياس تعادل تقريباً ثلثي الأون)، مدخل للمسجد وبابان جميلان مكسوّان بالبرونز، يتوسط كل منهما بضع كؤوس.

يوجد من جهة الشرق ثلاثة أبواب برونزية ورواق يماثل الرّواق الذي كنتُ أتحدّث عنه، ومن ثم باحة يوجد في آخرها تقريباً قرب الباب الغربي، وما زال يوجد نوع من كنيسة صغيرة أعلى بكثير من تلك الكنيسة الموجودة في الجهة الشرقية، ومحمولة ومغطاة بنفس الطريقة؛ ونرى من هذا الباب، الباب الغربي، عندئذ يكون الجامع من الجهة اليسرى.

من جهة الشمال يوجد أيضاً باب برونزي، يتم الدخول إلى الفناء من خلاله، ونرى قبالته جهة الجامع المواجهة له: يضم السّور من هذه الجهة عدّة نوافذ مصنوعة بشكل يماثل شكل النوافذ الموجودة في كنائسنا، لكنها ترتفع مسافة قدمين أو ثلاثة عن الأرض، ولها ألوح زجاجية مزينة من الخارج بتشبيك نحاسي. ويوجد في هذه الباحة أيضاً خزّان ماء موضوع على كؤيس، يستند على عدد من الأعمدة، بالإضافة إلى ذلك هناك فانوس يستند على عمودين فقط. هذا كل ما استطعت رؤيته من هذا الجامع.

في أحد الأيام، خرجت من المدينة عبر الباب المسمّى باب توما، وبالقرب منه رأيت الكنيسة المكرّسة للقديس توما. كان الباب مغلقاً لأنها مهدّمة تماماً من الداخل، وتبدو حديقة أكثر منها كنيسة، باعتبار أن كل ما فيها مكشوف ويملؤه العشب. إلا أنه ما يزال فيها شكل ما لبوّابة، وهي عبارة عن قنطرة ترتكز على عمودين، وبالإضافة إلى أن ارتفاع هذين العمودين لا يزيد عن قدم فوق التاج، فهما مغروزان بالسّور. يوجد في الأسفل ثلاث قناطر أخرى ترتكز على ثلاثة أعمدة في كل جهة وتستند عارضة الباب على عمود من كل جهة، وكافة هذه الأعمدة مصنوعة من الرُّخام و مخدّدة طولياً.

---

(1) العبارة كما يذكرها طبعاً بالفرنسيّة، واسم السّوق بدمشق: سوق الذّراع.

ويوجد مقابل هذا الباب برج صغير دائري مصنوع على شكل مربعات منسّقة، لأنه مبني من حجارة يبلغ كل مربع منها نصف قدم تقريباً، لكنها موضوعة بهذه الطريقة: بعد كل حجر هناك فتحة مربعة بذات القياس وهكذا بالتناوب في كل مكان. يسمّى هذا البرج برج الرؤوس، لأنه منذ عدّة سنوات شُنّت حرب شعواء ضد العديد من قطاع الطرق الدّروز، ولما تمّ القضاء عليهم وضعت رؤوسهم في هذا الفتحات لدرجة أنها امتلأت[1].

من هنا انعطفنا يساراً وسرنا على طول الأسوار ووصلنا إلى مسجد يقال إنه كان معبد سيرافين، بيد أن هناك من يدّعي أن جثمان سمعان العمودي مدفون هنا بعد إحضاره من أنطاكية. وكما يقول الأتراك، لا يستطيع المؤذن الدّعوة إلى الصلاة، كما هو الحال في المساجد الأخرى، وعندما يريد أن يدعو الناس إلى الصلاة يخونه صوته، فلذا يكنّون له جزيل الاحترام. ورُوي لي أنه في يوم من الأيام قام أحد سكان البندقية برشوة أتباع الشيخ الذين يديرون المكان، بغية استخراج جثمان القديس سمعان وأخذه إلى البندقية، لكن عندما ساورت الشيخ بعض الشكوك، وجّه إهانة كبيرة لذاك البندقي وذلك بإعطائه بضعة آلاف من الريالات؛ ومنذ ذلك الحين أقيم سور حول ضريح هذا الجثمان، بالإضافة إلى وجود أشراف يقرأون القرآن باستمرار.

خرجنا من هذا المعبد باتجاه مكان خارج المدينة تلتقي فيه الأنهر الثلاثة التي تمرّ بدمشق والتي تُدير مطاحن الطحين. وذهبنا بعد ذلك إلى مستشفى الجذماء الذي يقع ما بين باب توما وباب شرقي، لكنه أقرب إلى هذا الأخير ويقع إلى جانبه تقريباً، ولا يبعد عن أسوار المدينة سوى بضعة خطوات. يقول سكان المدينة إنها ذات المستشفى التي أمر ببنائها نعمان قائد جيش ملك دمشق جحازي خادم اليَشَع، وتوجد قصته في كتاب الملوك الرابع، الفصل الخامس. وكانت لهذه المستشفى عائدات ضخمة.

---

(1) هذه معلومة جديدة تماماً في تاريخ دمشق، وكان الدّارسون يظنون برج الرؤوس يعود إلى كارثة تيمورلنك عام 1400 م، فتبيّنت حقيقتها الآن. راجع مؤرخ دمشق ابن طولون.

عند العودة إلى المدينة، رأيت في سوق الخياطين ومن خلال شبك حديد غرفة تضم جثمانين، قال المسلمون إنهما وليّان[1] حسب شريعتهم. وعلى بعد بضعة خطوات من هناك، توجد غرفة أخرى فيها تضم جثماناً آخر[2] يكنّون له الاحترام ذاته؛ ولم أتمكن من معرفة أسماء هؤلاء الأولياء[3].

يوجد في دمشق عدد من عيون المياه الجميلة، ومن بينها العين[4] الموجودة قبالة باب المسجد الكبير الذي يطلّ على الشّرق، وتقع تحت قبة مسطحة تقريباً. وهي عبارة عن حوض دائري يبلغ قطره مقاسين، في وسطها أنبوب يقذف كميات من المياه في الوقت نفسه وبقوة كبيرة تكاد معها تصل إلى سقف القبّة، ولو أرادوا لكان من السّهل جعله يقذف المياه إلى مستوى أعلى لأن المنبع أعلى بكثير.

* * *

(1) لا ريب أنّ المقصود تربة ستيتة زوجة الأمير المملوكي سيف الدّين تنكز النّاصري.

(2) وهنا المقصود تربة السّلطان نور الدّين محمود بن زنكي في المدرسة النّوريّة الكبرى.

(3) قوله أولياء ليس فيه غلط، لأن بسطاء دمشق كانوا قديماً يظنون كل قبر يجهلون صاحبه قبر ولي من الأولياء، ومن ذلك مثلاً قبر (الشيخ أبو رمّانة) شرقي جامع العدس بالصّالحيّة، الذي ليس أكثر من واحد من مجموعة قبور لأمراء أيوبيّين زالت في بدايات القرن العشرين. وصفها لي أحد معمّري الصّالحيّة الحاج سليمان طبنّج (أبو نبيل) من مواليد سنة 1910 رحمه الله.

(4) يعني نوفرة باب جيرون الشهيرة، انظر ما تقدّم أعلاه في نصّ دارڤيو وملحق الخياري.

الفصل الخامس

تتمّة الملاحظات عن دمشق

بما أنني نويت خلال إقامتي في دمشق أن أرى كل ما هو مثير للاهتمام بها، فقد ذهبت مع صحابـي إلى مكان يدعى الأربعون شهيداً. تركنا المدينة من باب السّراي، بعد أن اجتزنا سوق الخيل سرنا في طريق جميلة عريضة وطويلة ومبلطة وتشبه إلى حدّ ما جادة باب الشعب (Porte di Popolo) في روما، أدّت بنا قريباً إلى قرية اسمها عين الكرش[1] Salaïn Crache، وبعد أن اجتزناها صعدنا جبلاً شديد الانحدار والخصوبة لأنه ليس سوى صخرة حيّة. كان علينا أن ننزل من فوق حميرنا ونسير على الأقدام في طرقات شبه عموديّة يتوجب ارتقاؤها. وصلنا بعد جهد جهيد إلى مكان الأربعين شهيداً الذي يبعد عن المدينة نصف فرسخ تماماً، لم أتسلّق في حياتـي جبلاً أكثر تحدّراً.

هناك منزل يسكنه شيخ، أخذنا إلى مغارة محفورة في الصخر وأرانا مكاناً يقال إنّ إيليا (إلياس) صام فيه ردحاً من الزمن وأطعمه فيه غراب. وفي حفرة قريبة دلّنا على المكان الذي يقول الناس إنّ الأربعين شهيداً مدفونون فيه، لكن لا يوجد فيه لا قبر ولا عظام ولا رُفات. وأرانا أيضاً في سقفية هذه المغارة، وهي عبارة عن صخرة حيّة شديدة الصلابة ومن حجر يشبه الحجر الذي نشعل فيه النار ويرشح منها الماء بغزارة، شكل يد يقولون إنها يد إيليا (إلياس)، وهي ليست سوى عروق الصخرة التي تمثل بشكل غير متقن إلى حدّ ما أصابع طويلة وثخينة جداً وعددها أكثر من خمسة وحتى أكثر من ستة، ولا أدري إن كان إيليا (إلياس) قد أتى إلى هنا في يوم من الأيام.

---

(1) هذا هو فعلاً طريق الصّالحية القديم، من بوّابة الصّالحيّة إلى عين الكرش إلى سفح قاسيون.

بالنسبة للأربعين شهيداً، فإليكم كيف يروون القصة:

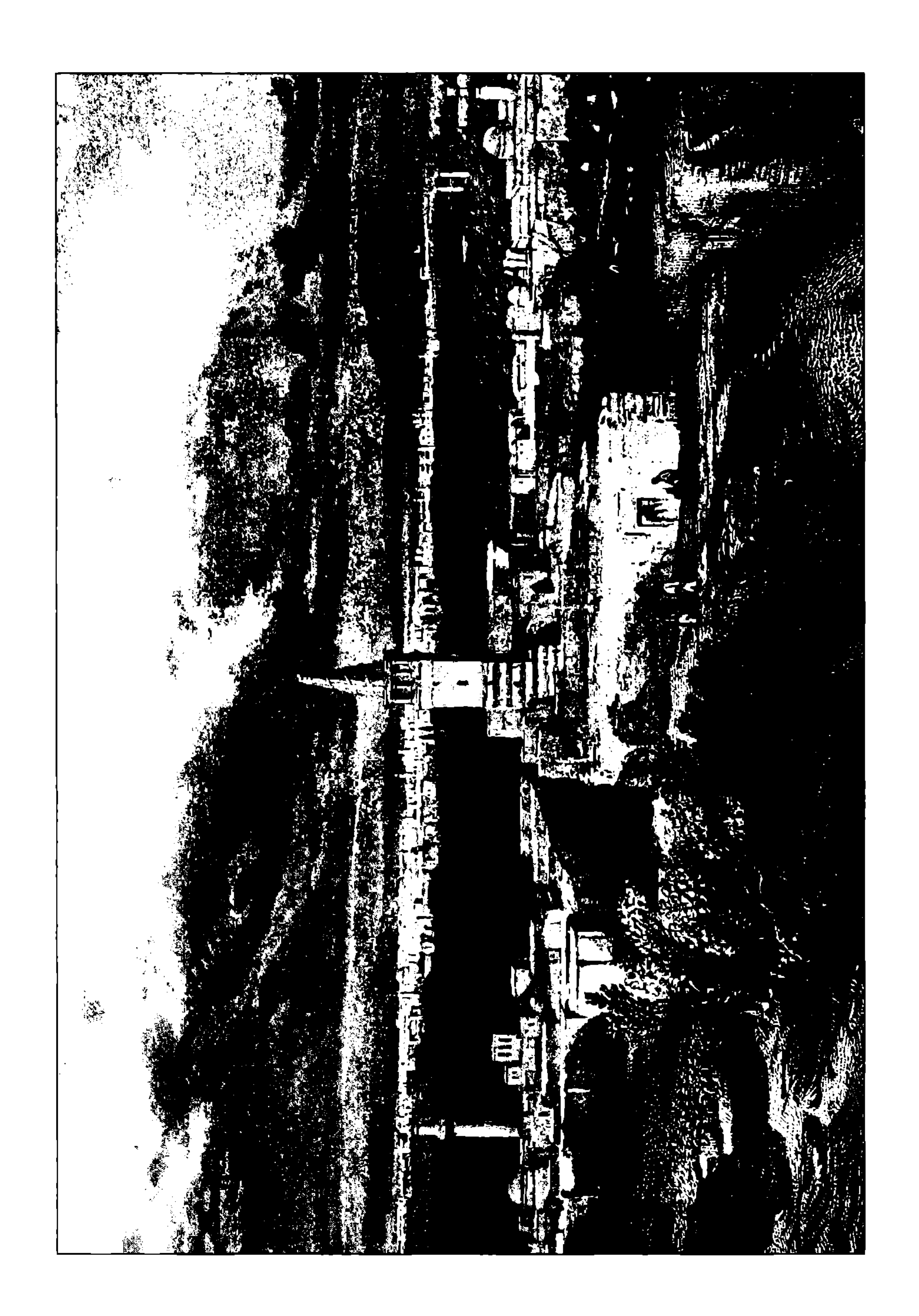
قام أحد اليهود بوضع خَبَثه سراً في جامع، وعندما علم الملك أو الپاشا أنهم وجدوا تلك اللفافة صباح اليوم التالي غضب غضباً شديداً، وأمر بالبحث عن الفاعل. قال اليهودي الذي كان عدواً للمسيحيين، إنهم بالتأكيد مَن اقترفوا ذلك اتضاعاً منهم للدّين، وبناءً عليه زُجّ بهم جميعاً في السجن. وبعد فترة من الزمن اعترف أربعون منهم بهذه الجريمة المزعومة بدافع من الحميّة والعطف، لكي ينقذوا حياة الآخرين، مما أدّى إلى موتهم جميعاً، رغم معرفته التامّة أنهم ليسوا جميعهم مذنبين. وعلى نفس الجبل، إنما على بعد بضعة مئات من الخطوات يوجد مكان السبع نيام، حسب ما يظن أهل البلد. يوجد في هذا المكان مغارة[1] فيها سبعة كوى مسدودة، يظن الناس أن النيام السبعة يرقدون هناك، حتى أن بعضهم يقول إنهم ما زالوا نياماً، لكنهم عندما يروون هذا الأشياء يخلطون بين الكثير من القصص، فيصبح من الصعب معرفة حقيقة ما يظنون. وبعدها عدنا إلى المدينة عبر باب البوابيج (البوابجيّة).

من أجل رؤية دمشق بشكل جيد، ينبغي الذهاب إلى مكان الأربعين شهيداً هذا. وهو يقع في وسط جبل موجود في الشمال بالنسبة للمدينة، الممتدة من الشرق إلى الغرب وهي طويلة وضيقة: وهي من جهة الشرق مدببة، ومن جهة الغرب نرى الضاحية التي تسمى باب الله، الذي سبق أن تحدثت عنه والتي تمتدّ طولاً نحو الغرب أكثر من ثلاثة أو أربعة أميال.

تقع هذه المدينة وسط سهل تُحيط به الجبال من كل جانب، لكنها بعيدة عن المدينة على مدّ البصر، أقربها هي الجبال الموجودة من جهة الشمال حيث يوجد الأربعون شهيداً. من جهة الشمال يوجد عدد وافر من الحدائق الغنية بالأشجار ومعظمها مثمرة؛ تشغل هذه الحدائق الأرض الممتدة من جبل الأربعين شهيداً وحتى المدينة، بحيث تبدو من بعيد كأنها غابة.

---

(1) تشتهر بقاسيون مغارة أهل الكهف ومقام الأربعين، وتسمّى: مغارة الجوع.



مررتُ مرة أخرى من أمام سراي الپاشا، وبعد أن سرتُ بضعة خطوات أخرى نحو الشمال ، وجدت في الدّرب الأول إلى جهة اليسار مسجداً[1] كان في الماضي كنيسة مكرّسة للقديس نقولا، دخلتُ إليه ولاحظت أن المسجد كبير جداً ورائع، له باحة واسعة جداً يحيط بها رواق، وقبابه محمولة على عدّة أعمدة رخامية ضخمة. هذا الرّواق بأكمله والباحة التي ما زالت مبلطة بحجارة كبيرة جميلة، كانا جزءاً من الكنيسة بالإضافة إلى مساحة كبيرة مغلقة ومغطاة حوّلوها إلى مسجد. لقد هدموا جميع القباب التي كانت تغطي ما أسميتُه باحة وأدخلوا أحد أنهار دمشق الذي يجري بشكل طولانـي والمسمى بانياس. من هنا تُحمّل الجِمال الذاهبة إلى مكة بالمياه، ولهذا السبب فقط جعلوا النهر يمرّ من هنا. وهناك أيضاً العديد من الأشجار التي أضفت على المكان جمالاً بالغاً.

بعد خروجي من هذا المكان، ذهبت إلى الدّراويش الموجودين على بُعد عدّة خطوات من هنا، من نفس الجهة[2]. سكنهم جيّد جداً، ولديهم العديد من البساتين التي يمرّ فيها نهر بانياس قبل أن يذهب إلى كنيسة القديس نقولا. تتألف كلمة درويش من كلمتين فارسيتين: وهما دَر التي تعني باب وويش التي تعني عتبة، مثلما يقال عتبة الباب، أخذ معلمهم هذا الاسم ليُظهر ما مفاده أن هذه الطبقة تركن إلى إذلال النّفس عندما تقارن نفسها بعتبة الباب التي يطؤها جميع الناس بأقدامهم.

بعد زيارتـي لهذا المنزل تابعتُ مسيري، فوصلت إلى المرج الدّمشقي Champs Damascène البعيد بعض الشيء. إنه مرج واسع مغطى بالعشب يسمى الميدان، تحيط به الحدائق ويمر منه نهر بانياس. يوجد باتجاه الوسط تقريباً عمود ترابـيّ صغير، يقارب ارتفاعه الأربعة أقدام، يقولون إنه في هذا المكان خلق الله الإنسان الأول. وهذا المكان ماتع وجميل جداً، لذلك عندما يمرّ أحد النبلاء من دمشق، ينصب خيامه فيه.

---

(1) المقصود جامع تنكز في حكر السّماق (شارع النّصر اليوم)، وكلامه عن كنيسة قديمة غريب.
(2) هذا جامع وتكيّة المولويّة الواقع إلى الغرب من جامع تنكز.



عندما وصلنا إلى هذا الحقل، استدرتُ يميناً ودخلت المرستان Morestan الذي يقع في وسط إحدى جهات هذا الحقل[1]. وجدت نفسي في رواق مربّع مغطى بقباب صغيرة محمولة على أعمدة رخامية، قواعدها من البرونز؛ ويوجد في الجهة التي دخلتُ منها وفي الجهة المقابلة، غرف لاستقبال الحجّاج مهما كانت ديانتهم. كل غرفة مغطاة بقبّة ضخمة وفيها وجاق وخزانتان ونافذتان، واحدة منها مطلّة على الفناء والثانية على الجهة الأخرى. أما الرّواق فهو مغطى بضعفي عدد القباب التي تغطي الغرف. خُصّصت الجهة الواقعة يميناً للمطابخ، التي تحتوي على قدور كبيرة يُطبخ فيها كل يوم، حتى خلال رمضان، البيلاڤ Pilav وأنواع أخرى من اللحوم ويوزعونها على كل قادم مهما كانت ديانته. وفي الجهة المقابلة للمطابخ الجامع، وأمامه رواق جميل مغطّى بالقباب كرواق الكنيسة، لكنها أعلى منها بقليل ومحمولة على أعمدة أكثر ارتفاعاً. تغطي هذا الجامع قبّة ضخمة جداً لها على جانبيها مئذنتان جميلتان، وكل هذه القباب والمئذنتان مغطاة بالرّصاص. وعلى طول الرّواق الموجود داخل الفناء حديقة غنّاء زُرع فيها عديد من الأشجار، وهي مسوّرة من جهاتها الأربع بواسطة درابزين خشبي، يبلغ ارتفاعه خمسة وستة أقدام، بحيث يترك في المنتصف باحة كبيرة مبلطة بأحجار كبيرة وجميلة، يتوسطها حوض مستطيل الشكل، أو بالأحرى قناة عريضة جداً يمر عبرها نهر بانياس. قام ببناء هذه المستشفى سليمان خان الثاني فاتح رودُس Rhodes لكي يأوي إليها الحجّاج الفقراء من كافة الأديان.

وعندما مررتُ، كان قد وصل إلى هناك العديد من الأشخاص الذين أتوا للقيام برحلة إلى مكة. خرجت من هذه المستشفى عبر الباب المقابل للباب الذي دخلت منه؛ ورأيت إلى جهة اليسار الإصطبلات التي توضع فيها أحصنة الحجّاج، في حال وُجدت. ثم تابعتُ مسيرتي ورأيت في الجهة اليمنى رواقاً مماثلاً في هندسته المعمارية للرّواق السابق، وهو تابع للمستشفى ذاتها ومخصّص للتلاميذ الفقراء وله مسجده أيضاً.

---

(1) المقصود به تكيّة السّلطان سليمان الشهيرة، التي بناها المعمار سِنان الذّائع الصّيت 962 هـ.

خرجت من المرستان وسرتُ بشكل مستقيم، ومررت في طريق يوجد على جانبيه غرف صغيرة مخصصة أيضاً للحجّاج الفقراء، وفوقها غرف للحجّاج الفقراء. وصلت بعد ذلك إلى منزل كبير، له باحة واسعة تُصنع فيها الحلوى من أجل مكة، ورأيت عدّة مئات من الأكياس الكبيرة، رغم أنه ما زال هناك ثلاثة أسابيع للرحلة، يتم إعداد هذه المؤونة لأن هذه هي العادة، إذ يُحمّلُ في دمشق مئتا جمل بالحلوى على نفقة السّلاطين، ومثلها ماء وذلك من أجل التصدّق على الحجّاج الفقراء أثناء الطريق.

أثناء متابعة طريقي، مررتُ بسوق الخيل حيث ينتصب حجرٌ كبير، يتراوح ارتفاعه من أربعة إلى خمسة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام تقريباً وسماكته نصف قدم، ومحفور عليه عدة أسطر بالعربية، لكنه متآكل لدرجة أنه لا يمكن قراءتها بغير عناء؛ وتقول هذه الأسطر إنه عندما تغمر المياه هذا الحجر تُحتلّ دمشق. إلا أن السيد دي بيرمون de Bermond الذي صحبني إلى هذه الأمكنة قال لي إنه شهد قبل عدة سنوات فيضاناً غزيراً، حتى أنه ظنّ بأن هذا الحجر غُمر بالماء، على الأقل هذا ما تمكّن من مشاهدته من مكان عال قريب إلى حد ما، ومنه اكتشف كل هذا المكان حيث لم يعد يرى هذا الحجر الذي قُتل بقربه في ماضي الزمان العديد من رهبان القديس فرنسيس من أجل المعتقد.

ذهبنا بعد ذلك إلى سوق سُروج الخيل، سُمّي هكذا قديماً لأنها البضاعة الوحيدة التي تُباع فيه. وبعد أن مشينا بضعة خطوات، رأينا إلى اليسار الحمّام الكبير الذي سأقوم بوصفه. ثم بعد ذلك، دخلنا إلى المدينة عبر باب البوابيج؛ ويوجد في كل جهة من جهتي هذا الباب زنبقة كبيرة محفورة في الحجر[1]. مررنا من أمام الباب المسمّى باب الفراديس الذي يقع على يسارنا، لنصل عبر باب السّلام إلى ملتقى الأنهر الثلاثة الذي يقع خارجه إنما قريباً جداً منه، ويوجد في هذا المنطقة عدّة حدائق، جعلت المكان يبدو في غاية الجمال.

---

(1) حتى أواسط القرن العشرين كانت على عضادة باب الفرج زهرة زنبق رآها بعينه مؤرخ دمشق صلاح الدّين المنجّد، لكنها مخفية اليوم بسبب تعدّي الدّكاكين.

تابعنا المسير بمحاذاة الأسوار وعدنا إلى المدينة عبر الباب المسمى باب توما، ووصلنا إلى منازلنا.

جميع المقاهي les cavez في دمشق جميلة، وماؤها غزير، لكن أجملها موجود في الضواحي. ومن بينها المقهى الموجود في السّنانية، المسمى القهوة الكبيرة، لأنه ممتدّ على مساحة شاسعة، وهو خلاّب بكمية الينابيع المتدفقة التي نراها محاطة بأحواض مليئة بالماء. أما المقهى القريب من باب السّراي المسمّى مقهى الجسر، لقربه من جسر فوق نهر، فهو أكثر روعة لأن النهر يحيط به من جهة وهناك أشجار على امتداده، حيث يستمتع مَن يجلسون على مصاطب المقهى تحت ظلالها بالرّطوبة العذبة وبمنظر النهر المارّ من تحتهم. أمّا مقهى النهرين[1] القريب من باب البوابيج (البوابجيّة) عند نهاية الضلع الطويل للقلعة فيتصف بالجمال والاتساع أيضاً، ويمرّ منه نهران ويشكّلان في طرف قاعة مغطاة جزيرة مليئة بأشجار الورد وبنباتات أخرى، فاللون الأخضر وألوان الورود المتنوعة ورائحتها الزكية تُمتع حواس المرء المختلفة في آن واحد، وتشيع بهجة عارمة في حالة فائقة التميّز. لكن ينبغي معرفة أن هذين النهرين الذين قلت إنهما صغيران، لا يقلّ عرضهما عن الأربعة قامات، وعادةً ما يكون ستة أو خمسة. والكلّ يعرف ما هي حبّة القهوة التي تسمّى بها هذه الأمكنة، فقد ذكرتُها في رحلتي الأولى، وأضيف هنا فقط ما تعلّمته عن فوائد هذا المشروب: فتناوله ساخناً يطرد الأبخرة من الرأس، وفاتراً يقبض المعدة وبارداً يُسهلها.

يعيش في دمشق رُهبان من الكبّوشيين ورهبان من الأراضي المقدسة، ويسكنون في منازل قريبة من بعضها البعض في منطقة الموارنة، مقابل كنيستهم حيث يقيمون القدّاس الإلهي، لأن كل رهبانية لها كنيستها. وهناك أيضاً الآباء اليسوعيون (الجزويت)، لكنهم يقطنون في مكان بعيد نسبياً عن هنا في منطقة اليونان (الرّوم)، ويقيمون القدّاس في منزلهم الخاص.

---

(1) هذا المقهى يعرف بقهوة العصرونيّة، إلى اليمين من الحديقة البيئيّة اليوم، وكان راكباً على نهري بردى والعقرباني. راجع التعليق على ما ورد في الملحق الثالث لرحلة دارڤيو.

بقيتُ في دمشق 24 يوماً، لكنني لم أرغب بالبقاء هذه المدة الطويلة بسبب الإهانات التي أصابتني، فمن جرّاء خُبث أحد الأشخاص، ولعلّه الخادم الذي طردتُه، انتشرت شائعة كاذبة في المدينة مفادها أنني أملك ثلاثة آلاف sequin[1]، وحاولوا بشتى الوسائل العثور على بعض هذه النقود المزعومة، لذلك علمت أن القيبقول والإنكشاريّة راقبوني عدّة مرات لإلقاء القبض علي بأيّة حجة، وهناك أيضاً الشُّربجي الذي صادفتُه على الطريق عند عودتي من صيدا، والذي طلب السيد بيرمون مارشان فرانسوا Bermond Marchand François، وهو صديق لي، وقال له، ربما ليعرف رأيه في هذه القضية، بأنني جعلته يظن أنّني قريب له، إنما في النهاية عرف أنني رجل نبيل وغنيّ، وأنني تامّ الحذر لكثرة مَن يتهدّدني، وقال إنه سيخدمني بكل ما يستطيع في حال احتجت إليه. ومع زيادة انتشار هذه الشائعة غدا وجهي معروفاً، والحلّ الوحيد هو أن أترك دمشق. إنما لعدم وجود أيّة قافلة مغادرة، لم أتمكن من أن أُنقذ نفسي بهذه الوسيلة بالسّرعة التي تمنّيتُها، فقرّرت رغماً عني أن أبقى حبيس المنزل، أو على الأقل أُقلل من خروجي قدر الإمكان بانتظار قافلة مغادرة. لم يساورني شك في مدى الخطر الذي يتهدّدني لأنني علمتُ حتى أنهم يراقبون الأب المحترم جورج اليسوعي الذي كان، من جملة أفضاله علي، يحمّل نفسه عناء المجيء إلى منزلي ليعلّمني الأسطرلاب، مما أجبرنا على التواصل فقط بالرّسائل. لم تمنع كل هذه الاحتياطات الناس من زيادة الكلام عن وضعي وثروتي بشكل مستمرّ. بيد أن القدر شاء في آخر ليلة قبل رحيلي، أن يأتيني رسول عاجل من قبل السيد بيرتيه Bertet أحد كبار تجار حلب، وكنت قد كتبتُ إليه كي يُعلمني عندما يكون ثمّة قافلة جاهزة للسفر إلى بغداد. وفي لحظة علمتْ المدينة بأسرها بقدوم هذا الرجل، رغم أن الوقت كان ليلاً. الكلّ قال بأنه آتٍ في طلب جميع الفرنجة، لكن في صباح اليوم التالي سَرَت شائعة تقول إنه آتٍ فقط من أجل هذا الإفرنجي الواسع الثراء! وقال لي أحد الأتراك إن الجنون بلغ بأحدهم ليقول إنني شقيق ملك فرنسا.

---

(1) عملة نقدية ذهبية قديمة كانت مستخدمة في البندقية وفي الشرق.

باعتبار أن كل هذا الشرف ساءني جداً، ولعلمي بقافلة مستعدة للرّحيل، فقد عقدت صفقة مع مكاري ليأخذني إلى حلب وينقل أسمالي ويدفع الإتاوة، واتفقنا على سعر وقدره ثلاثة عشر بوكيل boquelles وهو سعر رخيص جداً، كان هذا لأجل السفر مع قافلة تنقل خزنة البارود من القاهرة إلى القسطنطينية، وفيها مئة وخمسين شحنة وتتراوح كل واحدة منها ما بين سبعين إلى ثمانين أقّة (أوك) oques، محمّلة على ظهور الجمال والبغال. يقود هذه القافلة آغا، ويجب أن يحرسها خمسون أو ستون فارساً؛ حتى عندما علمت أنه سيكون فيها مئتا شخص، سواءٌ من السّادة أو الخدم، كنت مرتاحاً تماماً للقائها.

بعد أن حمّلتُ أمتعتي، ذهبت لأستأذن الأب المحترم جورج بالرحيل، ولاحظتُ عند خروجي من المنزل أن الشرفات تغصّ بالنسوة اللواتـي اجتمعن ليروني ماراً، ثم ذهبت للقاء السيد ميشيل طوبجي لأشكره على كل اللباقة التي أبداها تجاهي في دمشق ولأودّعه، أراد هذا الرجل المهذب أن يكمل فضله معي حتى النهاية، فأعطانـي رسالتين واحدة بالغة العربية والأخرى بالتركية على شكل جواز سفر، موجهتين إلى كل السّلاطين والحكام من دمشق إلى بغداد. ويقول في الرسالتين إنني شقيقه ويُسمّيني باسم «فرانسوا لوكانونيه» (المدفعي) François le Canonier، لا أدري إن كنت أستطيع تحمُل مسؤولية هذه الرتبة لو سنحت لي الفرصة. وبما أنه كان يخاف أن يعتقلوني أو يكيلوا لي إهانة أخرى، فلقد أصرّ أن أمتطي الحصان على بابه، رغم رجائي له بأن يدعني أذهب سيراً على الأقدام، لأن المسيحيين لا يجرؤون على ركوب الأحصنة في المدينة، لكنه أراد ذلك وسيّر معي فارسين ليقوما على حراستي وأمرهما أن يسيرا في المدينة، أحدهما أمامي والآخر خلفي، وأن يرافقانـي بعد ذلك إلى أول مرحلة لي، وهذا ما فعلاه بكل أمانة. كتبوا إلي في ذلك الحين وأخبرونـي أنه عندما أتى عيد البَيرَم، طلب معاون الپاشا هدية من رهباننا ومن السيد بيرمون، لكن السيد ميشيل نبّهه أن الهدايا لا تُقدّم في حال عدم وجود قنصل، فقنع بذلك؛ وظنّ الجميع أن هذا الرجل طلب هديّة لاعتقاده بأنـي مازلت في دمشق.

إن طوپجي باشي هذا، ومهما قال فرانسوا، هو مواطن كانديّ Candiot قدّم خدمات جليلة للسّلطان مُراد في سلاح المدفعية عند الاستيلاء على بغداد، كافأه الأمير بقرية كبيرة كإقطاع تيمار Timar إضافة إلى العديد من الامتيازات، ومن بينها امتياز السّير في المدن على صهوة الحصان، رغم أن هذا محظور على المسيحيين، وعُدّ في منزلة كبار أسياد البلاد. كان يتوجب عليه الذهاب كل سنة ليتفقّد حصون بغداد، فيذهب إلى هناك عبر الصحراء، راياته منشورة، مصطحباً معه فرخي صقر كي يروّع العرب الذين يمكث بينهم بحذر، وفي كل مدينة يستأجر عمداً جنوداً لحراسته ليصل إلى المدينة التالية حيث يأخذ غيرهم، وهكذا إلى أن يصل إلى بغداد. كان هؤلاء العرب يضمرون له الشرّ فعلاً، وكان يتعامل معهم بقليل من الفظاظة، لكن عندما يعلم أنهم ينتظرونه في مكان ما، يذهب ليجد مأوى في مكان آخر، هذا ليس لأنهم لم يريدوا قتله، لأنّ أحد أقاربه قال لي إنه في أحد الأيام وفي معركة صغيرة خاضها ضدهم، مع أنها لم تتعدَّ بضعة ضربات بالحجارة والعصي، ورغم إطلاق بضعة طلقات نار، أتى أحد شيوخ العرب في ثلاث مرات مختلفة ووضع رمحه بين كتفيه، مكتفياً بأن يبيّن له أنه كان بإمكانه قتله. إلا أنهم لم يجرؤوا على فعل ذلك، لأنهم يعلمون أنهم سيرسلون لهم إثر ذلك جنوداً لمحاربتهم، وسيبيدونهم إن لم يغادروا البلاد تماماً. إن هؤلاء لصوص كبار ولا يختلفون عن آبائهم السّارازان Sarazins الذين لُقّبوا بذلك دون شك بسبب المهنة التي يمارسونها.

عمل هذا الرجل، الذي حمّله الرّهبان الكپوشيون من الملك رسائل القنصل إلى الفرنسيين في بغداد، على حمايتهم بقدر الثقة التي يمكن أن يحوز عليها، رغم أنه من السّهل أن يظنه الأتراك فرنسياً، لكنه متكبّر بعض الشيء، ويجب أن يأتـي الإفرنجي القادم حديثاً لزيارته إذا أراد أن يحظى بالنعم، وأن يقدّم له هدية من أوروبا، وهو يقدّر الهدية أكثر حسب جدّتها وطريقة تقديمها إليه وليس حسب قيمتها، وبعدها يكون تحت تصرفه؛ ففي حال عدم ذهابه لزيارته، يمكن أن يلقى معاملة سيئة، ويمكن أن يردّها له بعدة طرق.

وقد أثبتَ في وقتي أن حمايته ليست دونها طائل، سواءٌ بالنسبة لي عندما أرسل أحد الإنكشاريين لحراستي عندما ذهبتُ للقائه وتعرضت لخطر الاعتقال من قبل القپيقول[1]، أو بالنسبة لرهباننا؛ وبشأن القپيقول في منطقة المسيحيين الذين يطالبون في عيد الفصح من كل عام الموارنة بشيء ما، لم يعد بإمكانهم امتلاك أي شيء بسبب فقرهم المدقع، حتى أنني عندما وصلت إلى دمشق كان كاهنهم ملقى في السجن منذ مدة طويلة من أجل ثلاثة قروش، أرادوا الحصول على هذه النقود من الفرنجة لأنهم يقيمون القدّاس في نفس الكنيسة، لكن الطوپجي منعهم وكان دائما يطلق سراح الأب المحترم رئيس الرهبانية من السّجن الذي وضعه فيه القپيقول مرات عدّة؛ إلى حدّ أنه عندما وُضع الختم على منزل الكپّوشيين، أتى بالقاضي وجعله ينزعه.

والقپيقول في دمشق هم الذين يُسمّون الإنكشاريّة، ويوجد منهم من ثلاثة إلى أربعة آلاف في دمشق أحياناً أكثر وأحياناً أقل، وينتشر خمسون ألفاً في أرجاء الإمبراطورية، إثنا عشر ألفاً في القسطنطينية، وستة آلاف في بغداد ومثلها في القاهرة وفي بودا Bude، ويجب أن يُحسب هؤلاء الخمسون ألف إنكشاري من بين الثلاثمئة ألف رجل الذين يقال إن السّلطان يحوزهم على الدّوام.

قبل أن أترك دمشق نهائياً، عليّ أن أكتب بعض الملاحظات التي أخذتُها، حتى لو كانت خارج سياق الموضوع، لكن ببعض الترتيب. مثلاً: في هذا البلد وفي باقي تركية لا شيء يُكدّر كرؤية أحد يمتطي حصاناً وساقاه في جهة واحدة، كما تفعل السيدات في فرنسا عندما غادرتُها. وسبب هذا العادة الغريبة هو اعتقاد الأتراك أن العملاقين يأجوج ومأجوج اللذين عصيا الله كانا يمتطيان الخيل بهذه الطريقة، فكانوا شديدي التشبّث بهذه التقوى، فبمجرّد أن يروا أحداً ما في هذه الوضعية يرجمونه بالحجارة إلى أن يعدّل وضعيّة ركوبه.

---

(1) القپيقول كلمة تركيّة: Kapı-Kul ومعناها الحرفي: عبيد الباب، واصطلاحاً: وجاق الإنكشاريّة المؤلف من العسكر القادم من إسطنبول. وبدمشق إلى اليوم أسرة: قَبَه قولي. أمّا الوجاق الثاني في فرقة الإنكشاريّة بدمشق فهم: اليرليّة Yerli أي العسكر المحلّي من أبناء البلد.

عندما يريد المرء في دمشق وحلب أن يبيّض الجدران بالكلس، يقطع القنّب قطعاً صغيرة، ويخلطه بالكلس المنقوع، ويوضع على الحائط الذي لن يثبت دون هذا الكلس لأن الجدران مصنوعة من التراب.

لاحظتُ في دمشق أن الأتراك يتركون على قبورهم ثقباً قطره ثلاثة أصابع، حيث يوجد قناة ترابية تفضي إلى جثمان الميت، ويستخدم في ترطيب الأموات، لأن النساء يذهبن يوم الخميس للصّلاة على أرواحهم، ولا يتخلّفن عن ذلك أبدا، فيصببن لهم الماء من خلال هذا الثقب لسقايتهم وترطيبهم، ويزرعون في طرف القبر غصناً كبيراً من البقس، يجلبنه عمداً ويتركنه هناك لترطيب الجو من أجل الأموات. ولديهن أيضاً عادة لا تقلّ طرافة، فعندما تفقد المرأة زوجها لا تكفّ عن طلب النُصح منه في شؤونها. فهناك امرأة مثلاً تذهب أحياناً وبعد عامين من وفاة زوجها إلى قبره وتقول له فلان ظلمني وفلان يريد الزواج مني، وتسأله النصيحة في ما يجب أن تفعله، وعلى هذا تعود إلى المنزل وتنتظر الإجابة التي لن يتخلّف زوجها الراحل عن إعطائها في الليلة التالية، والتي تأتـي دائماً مطابقة لما ترغب به الأرملة.

هناك أيضاً أمرٌ غريب إلى حدّ ما، وهو ثياب الحداد التي تلبسها النساء في دمشق، عند وفاة أحد أقاربهنّ وحتى المسيحيات منهن. تسلّيت في أحد الأيام لما كنت في الساعة الثامنة مساء أمام منزل الكبّوشيين، لمحت عدة نساء مارونيات عائدات من منزل أحد أقربائهن الذي انتقل إلى رحمته تعالى قبل ثلاث ساعات، كان عددهن يفوق العشرين، ويحدثن ضجّة عارمة، بعضهن يغنّي والبعض الآخر يصرخ؛ وهناك رجلان يحملان شمعتين لإنارة الطريق، أياديهن مضمومة ويضربن صدورهنّ. وعندما وصلن مقابل الكنيسة المارونية الواقعة أمام منزل الكبّوشيين، توقفن ووقف عددٌ منهن بشكل دائري وأخذن يطرقن أنوف بعضهن البعض، ولمدة طويلة، بأصابع اليد اليمنى على طريقة الصنجات، وعلى إيقاع الأغانـي التي يرددّنها خلال القداس، والغبطة بادية عليهن، في حين كانت بعضهن تصرخ من وقت لآخر على طريقة كاهنات باخوس.

في الختام، وبعد عزف هذه الموسيقى لفترة لا بأس بها من الزمن، يقدّمن عدّة تحيات باتجاه الشرق، وذلك برفع اليد اليمنى على الرأس ثم على الأرض مع الانحناء في نفس الوقت، بعد ذلك يتابعن مسيرهنّ ترافقهن الموسيقى ذاتها.

في دمشق وفي كافة بلاد تُركية[1]، لا يُدرس القمح، إنما بعد حصاده يُكوّم في مكان ما فوق بعضه، وحول الكومة يفرشونه بشكل دائري على عرض أربعة أو خمسة أقدام وسماكة قدمين، بعد ذلك، لديهم شكل من أشكال الزلاجة مركبة من أربع قطع خشبية مربعة، تُستخدم اثنتان منها كمحاور لها لفيفتان، تدخل أطرافها في هاتين القطعتين الخشبيتين، بحيث تدوران بسهولة. وحول كل لفيفة من هاتين اللفيفتين يوجد ثلاثة مسننات (تروس) حديدية، سماكتها نصف قدم تقريباً وقطرها قدم واحد، ولها أسنان مثل أسنان المنشار، وهناك مقعد موضوع على قطعتي الخشب الرئيسيتين، يجلس عليه رجل يسوق الأحصنة التي تجرّ باستمرار هذه الآلة بشكل دائري فوق الكومة التي ترتفع بعلوّ قدمين، وهذا يساعد على تقطيع القش بشكل بالغ الدقة، وإخراج الحبة من السنبلة دون كسرها لأنها تنزلق ما بين الأسنان الحديدية. وعندما يُطحن القش جيداً يضعون غيره، من ثم يفصلون الحبة بواسطة هذا القش المفروم، ويذرون كل شيء في الهواء بواسطة مجرفة خشبية، لأن الرّيح تجرف القش إلى مسافة أبعد بقليل فيقع القمح وحده؛ ويقدّمون هذا القش المقطّع طعاماً للأحصنة.

تختلف هذه الآلة من مكان إلى آخر: فكما رأيت في بلاد ما بين النهرين، بدلاً من المسنّنات المحيطة باللفائف، ثمّة عدّة قطع حديدية طولها ست بوصات وعرضها ثلاث، على شكل سكك تقريباً لكنها أعرض بقليل من الأسفل أكثر من الأعلى ومغروزة لا على التعيين في اللفائف، بعضها بشكل مستقيم والبعض الآخر بشكل موارب؛ ويغطي الحديد في هذه الآلة الأخيرة ألواح خشبية يجلس عليها الشخص الذي يسوق لأنه لا يوجد مقعد سواه.

---

(1) أكتب اسم تركية هكذا لأنه يلفظ في اللغة التركية بإمالة الياء Türkiye وليس تركيّا.

وهي الآلة ذاتها في بلاد فارس، إلا أنه في بعض المناطق لا يقطّعون القش أبداً، إنما يجعلون الثيران أو الأحصنة تسير فوقه كي يُخرجوا الحبّة ويفصلوها مثلما ذكرت.

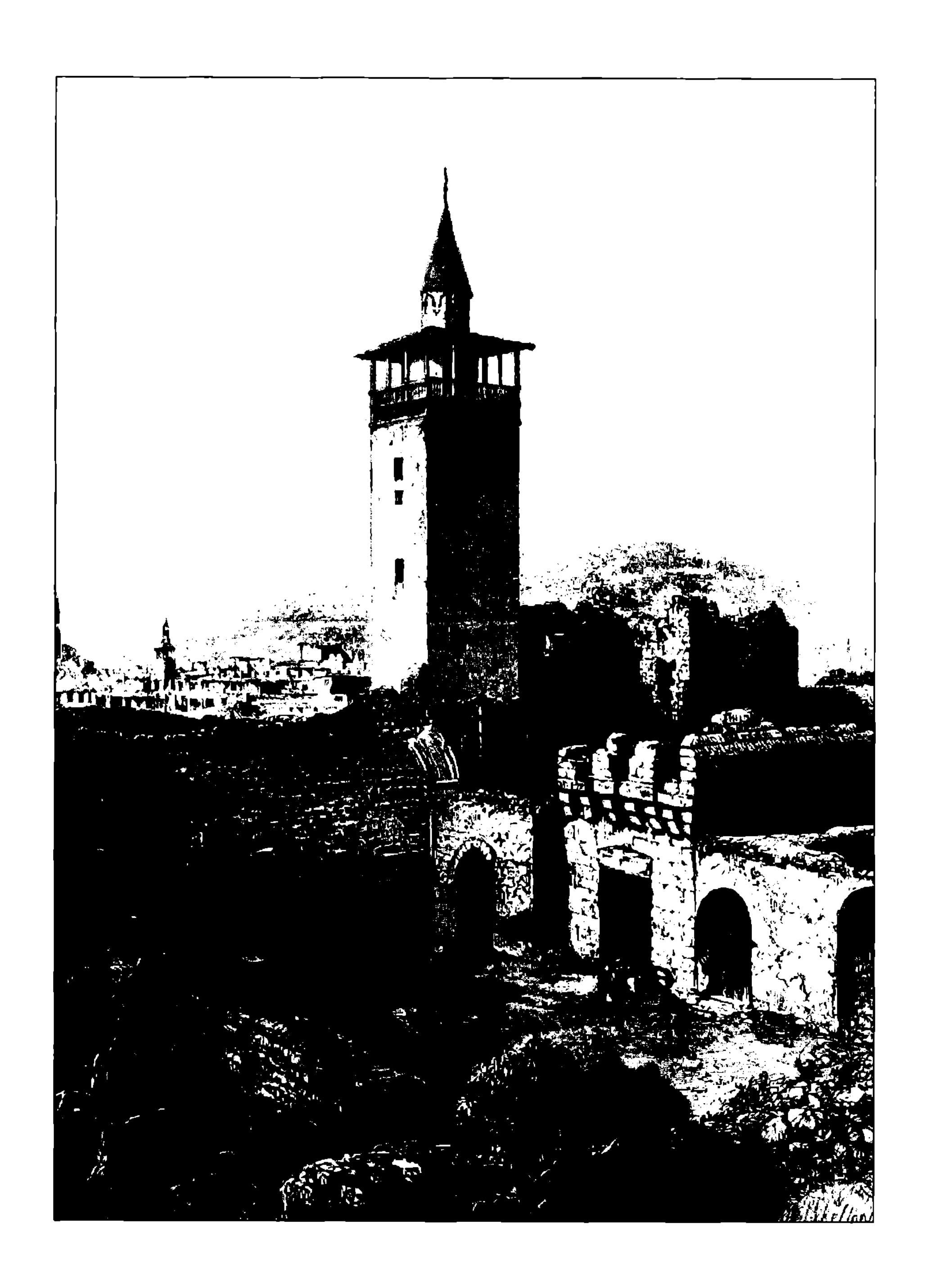
ومن بين جميع الحبوب التي يستخرجونها بهذه الطريقة، يستخدمون الشعير كغذاء لجيادهم، فيقدّمون لكل حصان في الصباح oque (أقّة) حزمة من هذا الشعير، وفي المساء أربع حزم ممزوجة بالقش المُقطّع، ولا يقدّمون لها أي شيء آخر طوال النهار. أما في بلاد فارس فلا يقدّم الشعير إلى الأحصنة إلا مساء، لكن خلال النهار تُقدّم إليها مخلاة من التّبن.

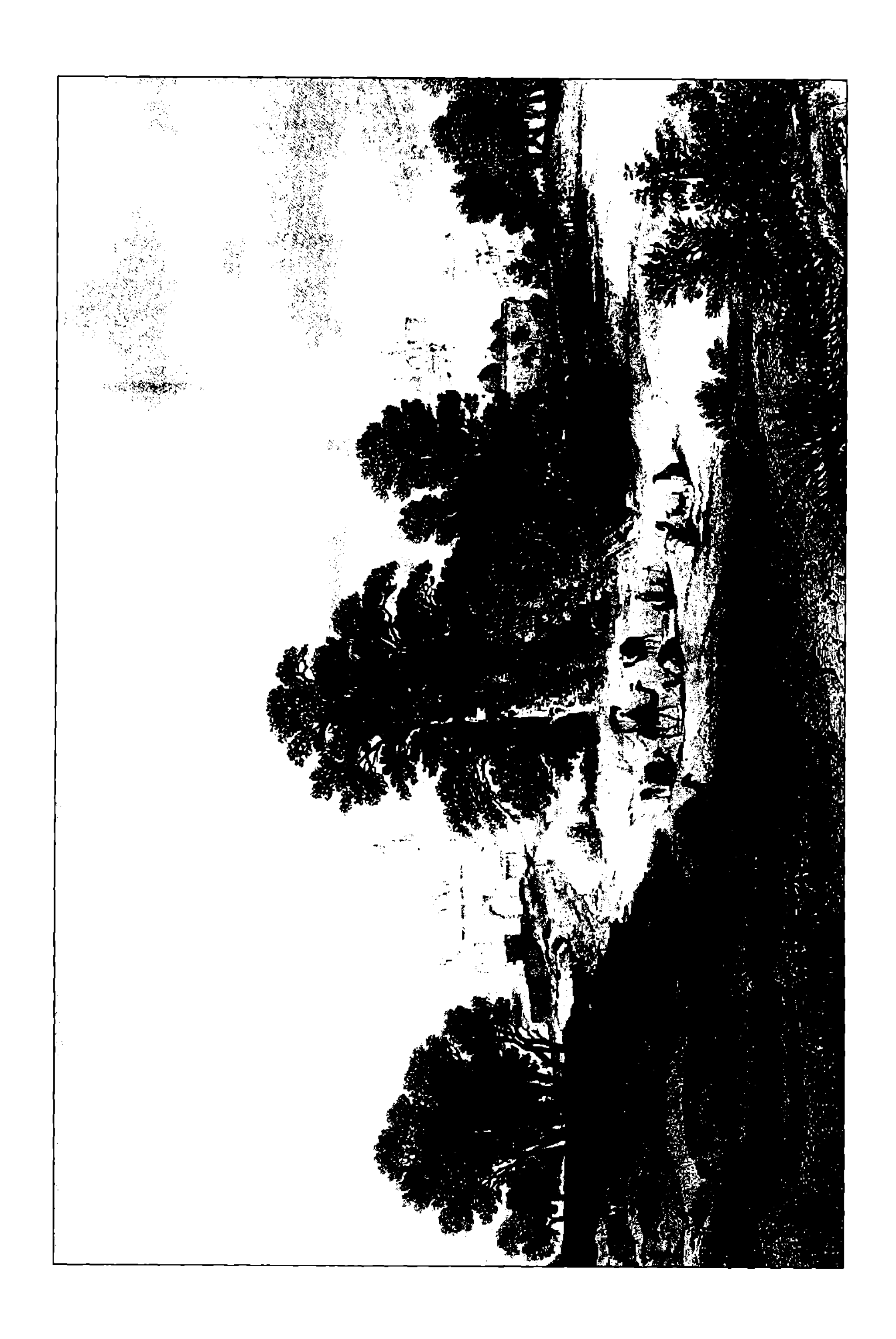
لنرَ بأية طريقة تُصنع الزبدة في دمشق، وهي نفسها في باقي تركية. تُعلق عصا من طرفيها في الزاويتين الخلفيتين لقِربة، أيّ كل طرف من أطراف العصا في إحدى الزاويتين، وكذلك الأمر بالنسبة للزاويتين الخلفيتين كي تستخدم هذه العصي كمقابض. ثم يُسكب الحليب في القِربة، بعد ذلك يغلقونها بإحكام، يمسكونها بالعصي ويحرّكونها، وبعد فترة من الزمن يضيفون إليها قليلاً من الماء ويستمرّون في تحريكها إلى أن تتشكل الزبدة عندئذ يفرغون منها الماء أو المخيض ويسمونه لبناً ويشربونه. وعندما يريدون أن يكون طعم هذا اللبن ألذّ، يضيفون إلى الحليب بعد تسخينه ملعقة صغيرة من اللبن الحامض، الذي جعلوه يحمّض بإضافة المنفحة؛ وعندما يصبح الحليب مع هذا الخليط لبناً، يتركونه حتى يبرد ويأكلونه؛ وإذا أرادوا أن يحتفظوا به يضيفون إليه الملح ويضعونه في كيس من القماش ويربطونه بإحكام لعصر محتواه ويتركونه يسيل، حتى لا يبقى فيه أي شيء يخرج. بهذه الطريقة لا يبقى في الكيس سوى نوع من الزبدة أو من الجبن الأبيض. وعندما يريدون الحصول على اللبن، يأخذون قطعة منه ويمزجونها بالماء ويأكلونها بشهية كبيرة؛ ويستهلكون منها كميات كبيرة للشعور بالانتعاش، وبشكل رئيسي في القوافل التي تجد فيه دائماً مؤونة جيدة. وهذا اللبن شديد الحموضة، وخاصة اللبن المتبقي بعد استخراج الزبدة.

وأنهي ملاحظاتي عن دمشق بهذا التحذير، بأنّ النّبيذ بها حاذق ويغدر بشاربه. وكذلك أشير إلى أن نبات السّميرنيوم كريتيكوم ينمو في هذه المدينة على كافة أسطحة المنازل.

* * *







الفصل السادس

حول الرّحلة من دمشق إلى حلب

غادرتُ دمشق في صباح يوم الاثنين في 21 أبريل برفقة فارسَيْ الطوبجي على النّحو الذي ذكرته. مررنا عبر الباب الذي يدعى باب توما وذهبنا بشكل مستقيم نحو الشرق، وفي ثلاث ساعات وصلنا إلى القْصَير Essaïr، وهي قرية صغيرة يمر منها نهر ينقسم في الأعلى إلى نهرين، وهنا يوجد خان وفيه باحتان. وجدنا هناك كامل القافلة التي يجب أن تحمل البارود، خيّمت معها والمكاري أيضاً. ستغادر اعتباراً من الغد في الساعة الخامسة والنصف صباحاً وسنسير نحو الشرق في سهل مترامي الأطراف، رغم أننا كنا قريبين من جبال من الصخر الأبيض تقع على يسارنا. وفي حوالي الساعة الثامنة، بدأت تحيط بنا الجبال من الجانبين يفصل بينها سهول قاحلة. وبعد ثلاث ساعات، أي حوالي الساعة الحادية عشرة، وصلنا إلى القُطَيفة وخيّمنا بها مقابل الخان.

والقُطَيفة قرية كبيرة، يوجد بقربها خانٌ كبير متقن البناء، أسواره جميلة وعالية، حجارتها منحوتة وفيها فتحات، ويوجد باب كبير في الجنوب وآخر في الشمال وبابان صغيران على الجانبين. يُعدّ باب الجنوب بداية مدخل طويل، تعلوه القباب، وعلى جانبيه تصطفّ المحال المزوّدة بكل ما يمكن أن يكون ضرورياً للقافلة، وهناك مقهى وحمام. بعد ذلك تدخلون باحة كبيرة مربعة، محاطة بمصاطب أو نُزل حجرية لإيواء القافلة. ويوجد في داخل هذه الباحة أبواب ضخمة، باب واحد في كل واجهة، وبابا جهتيّ الشرق والجنوب مكسوّان بالحديد.

لدى دخول الباحة، تجدون باباً يفضي بكم إلى المسجد الذي تعلوه قبّة مغطاة بالكلس، ومئذنة جميلة. وعند الخروج من المسجد عبر الباحة تدخلون من باب الشرق: أولاً إلى ممرّ مقبّب على جانبيه مساكن، ومن هنا إلى باحة أخرى، متطاولة بعض الشيء ومبلطة جيداً، ويوجد في وسطها خزان ماء مربع الشكل مبني بالحجارة المنحوتة ويستخدم في سقاية الدواب، تسيل المياه من قناة صغيرة تملأ الحوض بالمياه على الدّوام، وأظنها آتية من ساقية تجري خلف الخان من جهة الشرق، عند أسفل أسواره تقريباً. وفي هذه الباحة مساكن تحت رواق مقبّب ممتدّ على المحيط ومدعّم من كل جهة بأحد عشر قوساً طولاً وتسعة أقواس عرضاً. ويوجد خلف هذا الرواق إصطبل مقبّب، ممتدّ أيضاً حول السّور، ويوجد في هذا الإصطبل أيضاً مساكن مخصّصة لإقامة الرجال بعيداً عن الدواب، تُقسم هذه المساكن إلى عدة شقق لكل منها مدفأته الخاصة والدخول إليها يتم من باب موجود في منتصف كل جهة. كل هذا مبنيّ بالحجارة المنحوتة وريعه جيد؛ ولقد أسّسه أحد الوزراء. أمّا الحصن الذي قال پييترو دِلاّ ڤالّه *Pietro della Valle* إنه موجود في هذه البلدة مع حامية قوية فهو غير موجود ويبدو أنه لم يكن موجوداً في يوم من الأيام؛ إلا إذا كان يقصد البرج الدائري الضخم الموجود في القرية، والذي يمكن رؤيته بسهولة من الخان وحتى من الطريق، لأنه أعلى بكثير من كافة أسوار القرية التي لم أدخلها أبداً، لأنني لم أقرّر الذهاب إليها، فضلاً عن وجود مسافة كبيرة من الطريق بين الخان والقرية. قال لي أحد سكان البلد إن هذه البلدة أُخذت من الفرنجة، ولذلك فيها كنيسة جميلة منذ ذلك الوقت في المكان الذي يوجد فيه الخان حالياً.

غادرنا القرية يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من بزوغ الفجر، وكانت مغادرتنا سريعة، فبعد إيقاظي مباشرة ركبنا عربة المسافرين، وغادرنا للحاق بالقافلة التي باشرت المسير قبل أن نتمكن من البدء بتحميل حاجياتنا. كنت أظن أن القمر لا يظهر إلا قبيل طلوع النهار، فانتظرناه ولكننا سرنا على ضوء قنديل استعرته.

كل ما استطعت أن أراه في هذه الظلمة هو أننا كنا نسير باتجاه gregal[1]، وأننا ندخل في جبال دون أن نصعد مع ذلك إلا قليلاً جداً، لكن كانت فقط قريبة منا، من الجهتين، وكلها عبارة عن كتل صخرية مدبّبة. مررنا أيضاً بحافة هاوية، لكن لم يستمر ذلك طويلاً. بعد ذلك بقليل وجدنا أنفسنا أمام خان، دون أي شيء آخر، كنت أعانـي من البرد معاناة شديدة في تلك الليلة، رغم أنني كنت ألبس غطاءً واقياً، لكن الريح كانت تخترق كل شيء. عندما بدأ النهار بالإشراق، لاحظت أنه كلما تقدمنا ابتعدت عنا الجبال من الجهتين وتناقص ارتفاعها. ألفينا أنفسنا نهاراً في سهل كبير يغطيه تماماً نبات الخلنج والأبروتونوم فامينا، التي يوجد منها كميات كبيرة على الطريق من دمشق إلى حلب، لكنها شديدة القصر. تابعنا مسيرنا في هذا السهل إلى النَّبْك، حيث يُدفع عادة عشرة قروش أجرة البغل، وكنا قد سبق أن مررنا أمام قرية فيها خان.

وصلنا النَّبْك حوالي الظهر، وهي قرية جميلة مبنية على مرتفع يجري تحته نهر صغير، يعلوه جسر له ثلاث قناطر، خيّمنا بقربه، كان هناك خان لم يعد له وجود منذ حين. وكلها مشيّدة بالحجارة المنحوتة المستخرجة من مقالع مجاورة ومتوفرة في هذا المكان تقدّم قدر ما يريدون من الحجارة. في هذه القرية كثير من اليونان، ويحفّ بضفاف النهر كثير من الحدائق المزروعة بالكروم.

غادرنا النَّبك يوم الخميس في الرابع والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار سرنا شمالاً ومررنا عند الفجر في قارة، وهي بلدة جميلة ويمرّ بقربها جدول. ويوجد فيها آثار تدل على أنه كان لها شأن في الماضي. في الواقع يقول أهل البلد إنه عندما كان المكان مُلكاً للمسيحيين، كانت مدينة عظيمة. ما زال يوجد بضعة يونان، ولهم كنيسة مزيّنة بلوحات جميلة. بعد ذلك وجدنا قافلة من بضعة مئات من الجمال والبغال المُحملة بالرجال والنساء والأطفال وأسمالهم، الذاهبين إلى دمشق كي يسافروا إلى مكة.

---

(1) كذا ترد العبارة بالأصل، ولا معنى لها، ولا يبدو حتى أنها اسم مكان فلعلها مصحفة.

مررنا في حوالي الساعة التاسعة قرب حصن مربع الشكل يدعى البريجة[1] El Bouraïdgé، أبوابه مكسوّة بالحديد، ورأيت على الأسوار فرخيّ صقر أو منجنيقين بارزين بين كوّات السور. بعد ذلك توجهنا نحو ماسترال mastral لأكثر من ساعة بين جبال صغيرة، ودخلنا حوالي الساعة العاشرة والنصف بين جبال صغيرة، ودخلنا حوالي الساعة العاشرة والنصف إلى سهل كبير لا يوجد فيه إلا الخلنج والأبروتونوم فامينا. ما إن دخلنا إلى هذا السهل حتى اكتشفنا حسيا التي وصلنا إليها حوالي الساعة الواحدة والنصف.

خيّمنا قرب حسيا، وهو حصن صغير وهزيل جداً، لكنه متصل بخان مبنيّ بالحجارة المنحوتة، وتحت بابه يوجد السّوق، على غرار سوق القطيفة. على طول إحدى جهاته وبالتحديد الجهة المقابلة للغرب، يمتدّ نُزل مغطى بعدّة قباب مقنطرة مخصّص لإقامة الأشخاص، وكذلك الأمر بالنسبة لنصفي الجهتين المقابلتين للشمال وللشرق، ونصفا الجهتين الآخران تشغلهما الأبواب والمحلات والمقاهي. ويوجد في منتصف الجهة الرابعة المقابلة للشرق بابٌ يُدخل منه إلى الباحة التي مازالت تضمّ عدة أجنحة ترتفع عن الأرض قدمين أو ثلاثة أقدام، كي يستقلّ الأشخاص عن الدّواب، وكل شقة منها لها مدفئتها، ويوجد منها على المحيط، خلف قناطر الباحة الأولى، وفي نهاية المطاف فهو تقريباً مثل خان القطيفة، لكنه ليس على نفس القدر من الجمال.

في وسط الباحة يوجد مسجد صغير مربع الشكل، مغطى بقبّة مكسوّة بالكلس، وبقربه يوجد مورد ترويه بشكل مستمرّ ثلاثة أحواض بماء رقراق يجري في مكان قريب إلى حدّ ما من الخان. ومن الباحة الثانية، يتمّ الدخول إلى مكان يقال إنه القصر وهو مبني من حجارة الدّبش، لكن ليس له شكل قصر، فهو مجرد ميدان محاط بأسوار منخفضة إلى حدّ ما، ومع ذلك فالكثير من العائلات ومعظمها من اليونان (الرّوم) تقطن فيه.

---

(1) تُعرف هذه القرية اليوم بالبريج، صيغة تصغير البرج.

وتقع على بعد خمسين خطوة من هذا الحصن المزعوم قرية صغيرة، لا تُرى إلا بالمصادفة، مثلما حدث معي عندما كنت أتمشى، لأنه يوجد عشرون منزلاً تقريباً، يبلغ ارتفاعها مقياساً واحداً، ومبنية بالتراب في حفرة مربعة وعميقة، لدرجة أن أسطحة المنازل وشرفاتها بحاجة إلى أكثر من مقياسين أو ثلاثة لتصل إلى مستوى القرية، وعندما أقف على حافة هذه الحفرة، تبدو المنازل منخفضة إلى حدّ أنني أظن في البداية أنها مقلع حجارة.

غادرنا حسيا يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار، عند الفجر، والتقينا بقافلة من البغال تنقل إلى دمشق حجّاجاً يريدون الذهاب إلى تلك المدينة من أجل السفر إلى مكة. بعد ذلك بقليل مررنا قرب قصر يدعى شمسين.

من ثم تابعنا مسيرنا باتجاه الشمال في سهل واسع مليء بنبات البروق والرانونكول وشقائق النعمان ونبات السّرمج والزّوفا وأوراق الليتيو ونبات الأنارف الكبير، والعديد من أنواع الزهور الأخرى، التي يجعل منها تنوعها وكثرتها مُتعة للنظر. نجد أيضاً في هذا البلد كمية من الهارمولان، الذي رأيت الكثير منه في كل مكان من الأمكنة التي مررت فيها في آسيا. وصلنا إلى حمص قبل الظهر وخيّمنا في ساحة على طول المدينة قريباً من المدفن. يظن السكان أن هذه المدينة كانت مدينة أيّوب، وعندما مررتُ رأيت القصر المتربّع على هضبة بيضاوية الشكل، تضيق كلما اقتربنا من القمة، ومغطاة بالعشب، لكنها شديدة الانحدار لدرجة الظّن أنه ليس هناك سوى طريق واحد يمكن تسلقها منه، وفوق الهضبة بُني أيضاً عن قصد قصر متصدّع في بعض الأمكنة، وكل القصور في هذه المناطق مبنية على الهضاب. رأيتُ بوضوح أن المدينة طويلة، لكن هذا كل ما تمكنت من ملاحظته؛ لأن المكاري جعلني أقيم في خيمة أحد أصدقائه لتجنّب دفع الإتاوة البالغة عشرين قرشاً، حتى أنه أراد أن أضع عمامة بيضاء قبل الوصول إلى المدينة كي أوهم الناس أنني تركيّ، لكنني لم أكن أريد أن أفعل شيئاً من ذلك.

يضم هذا السّهل الذي خيّمنا به العديد من الأضرحة القديمة، على شكل هرم ومن بينها ضريح أظن أن بولون Belon وپييترو دِلاّ ڤالِّه لاحظا وجود نقوش عليه، لكن بما أنني لم أذهب سوى بعد غروب الشمس، لا أستطيع أن أقول شيئاً. ويوجد في هذا المكان كاشف Cachef عيّنه پاشا دمشق.

غادرنا حمص، يوم السبت في السادس والعشرين من شهر أبريل، بعد منتصف الليل بقليل وتابعنا المسير باتجاه الشمال، عبر السّهل ذاته الذي سرنا فيه البارحة، وحوالي الساعة الثامنة صباحاً مررنا قرب قرية صغيرة اسمها الرَّسْتَن يتوسطها مسجد مغطى بقبّة مكسوّة بالكلس. وعلى بعد بضعة مئات من الخطوات وجدنا وراءه جسراً حجرياً جميلاً، مبلطاً بحجارة ضخمة، وللوصول إليه مررنا من أمام خان ممتدّ على طول النهر ويحيط به من كل زاوية برج دائري، ويوجد في الوسط مسجد مغطى بقبة مكسوّة بالكلس.

مررنا بعد ذلك بالجسر المسمى جسر الرَّستن Dgeser Restan. أظن أن هذا الجسر سُميّ على اسم القرية، لكن قيل لي إنّ النهر أيضاً يسمى الرَّستَن، رغم أن اسمه أصلاً العاصي Asi، أي المتمرّد، لأنه حسب ما قاله لي أحد ركاب القافلة، مياه هذا النهر سريعة جداً وبشكل رئيسي في هذا المكان. لهذا الجسر عشر قناطر عرضها أكثر بقليل من مقياس، وأكثر ارتفاعاً بقليل، ويمرّ تحته نهر العاصي (الأورونت Oronte قديماً)، وقبل الوصول إليه ثمّة جزيرتان صغيرتان على شكل حدائق بالغة الجمال. ويوجد مقابل نصف الجسر، من جهة الخان بناء مربّع ضخم وسط المياه، تخترقه في الجهة المقابلة خمس قناطر من الجسر، مما يسمح بمرور المياه من هناك، وعند خروجها من الجهة الأخرى تُشكّل شلالات جميلة، بحيث تبدو وكأن في قلبها بضعة طواحين، لكنني لا أسمع ضجيجها أبداً. يشغل النهر في هذا المكان عرض الجسر، لكنه يضيق بعد ذلك بمقدار ستة أو سبعة مقاييس، وكما في السابق وأقل أيضاً، يمرّ متعرجاً بين الجبال ويروي سفوحها، لكن المياه فيه موحلة.

بعد أن اجتزنا الجسر غادرنا هذا النهر كي نتجه نحو الشمال، ورأينا عدّة رقاع من الأراضي الجرداء؛ وبعد ساعتين لمحنا حماة التي بلغناها بعد الظهر.

حماة هي أفاميا السّورية القديمة[1]، وهي مدينة كبيرة تقع على منحدر هضبة ولها پاشا وقصر. ومسايرةً للمكاري Moucre، أقمتُ مثل اليوم السابق في خيمة صديق، وراء المقبرة حيث تُخيّم القافلة، وذهب هو ليخيّم في جهة أخرى من أجل أن يكسب الكفّارة caffare. واستدعانـي بعد غروب الشمس، فاجتزتُ الجسر حيث توجد النواعير التي تحدّث عنها پيير بولون Pierre Belon وپيترو ديلاّ ڤالّه Pietro della Valle والتي تجرّ المياه وتحملها إلى كافة أرجاء المدينة، ونهر العاصي هو الذي يمر من هنا أيضاً، لكني لا أعرف كم هو عدد القناطر الموجودة، لأن الوقت كان ليلاً عندما وصلت. كان المكاري يخيّم في مكان قريب لدرجة أننا كنا نستمع طوال الليل إلى موسيقى النواعير التي بدت عندما امتزجت بموسيقى أجراس بغالنا التي تصدرها عندما تأكل، كموسيقى أجراس كنيسة أجهر صوت فيها صوت النواعير.

غادرنا حماة يوم الأحد 27 أبريل عند الفجر، تاركين قافلة البارود في حماة، حيث تنفصل الطريق الموصلة إلى القسطنطينية عن تلك المؤدية إلى حلب، تابعنا المسير باتجاه الشمال، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى نهر العاصي، لكننا غادرناه فوراً واتجهنا يميناً بين الجبال، وما إن سرنا فيها مدة نصف ساعة حتى دخلنا في سهل مترامي الأطراف على مدّ النظر، غزير بالمراعي النضرة. وفي الساعة الثامنة مررنا مقابل قرية تدعى طيّبة حماة Taïbit el Hama وعند الساعة العاشرة عبرنا بقرية أخرى اسمها Lacmi، لكنها مهجورة بسبب أعمال الغزو. ثم عند الساعة الحادية عشرة عثرنا على بضعة أشجار، ولم أرَ منها قدماً واحداً من دمشق وحتى هنا، باستثناء حدائق المدينة والقرى، والخشب أيضاً غالٍ جداً على هذه الطريق. من المؤكد أن الجمال في هذا البلد ليس أجرد لهذا الحدّ.

(1) ليس هذا بصحيح، فأفاميا القديمة Apamea ما تزال موجودة ومعروفة في محافظة حماة.

بعد ذلك بقليل وحوالي الظهر، وصلنا إلى خان شيخون وخيّمنا مقابلها، وجدنا أنه من الأفضل لنا البقاء خارجاً تحت خيمة بدل الإقامة في الداخل، ورغم أن هذا هو الخان الوحيد، فهو مبني بشكل جيد إلى حدّ ما. يتم الدّخول إليه عبر باب مواجه للغرب، وعند الدخول نجد في باحة كبيرة مربعة باباً صغيراً في الجهة اليمنى، يؤدي إلى إصطبل، يقسمه عرضاً إلى قسمين صفٌّ من القناطر الممتدة على كامل الطول، إنما لا يوجد أي سقف. وفي الطرف الآخر من الباحة، مقابل هذا الباب تقريباً، هناك منزل مسكون، وفي جهة اليسار يوجد في وسط الجدار باب كبير، ندخل من خلاله إلى باحة أخرى تضاهي الباحة الأخرى في كبرها، ويوجد فيها نُزل لإيواء النّاس. ونرى فوق باب الباحة الثانية بناءً ضخماً مربع الشكل مبنيّ إلى حدّ ما على شكل برج، ويوجد حصن في الأمام، وقبّة الجامع في الوسط حيث يعيش الآغا، لأن هذا المكان تابع لپاشا حلب.

وبالتوجه شمالاً، توجد خلف تلة، على بعد بضعة مئات من الخطوات، قرية تحمل نفس اسم الخان. غادرنا هذا المكان في اليوم ذاته، في الساعة العاشرة مساءً، ووجدنا على طريقنا أثناء الليل كمية من صهاريج قليلة العمق محفورة على تلال صغيرة لتلقّي مياه المطر، وعلى سفح التلة يوجد جُبّ آخر يُنزل منه مسافة ثلاث أو أربع خطوات للوصول إلى الماء من أجل استخراجه، وسبق أن وجدنا بعضاً منها في اليوم السابق، ويستخدمها العرب والرُّعاة.

في اليوم التالي، الاثنين 28 أبريل، مررنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل أمام خان مهدّم يدعى خان حرتة Han Hherte، وعند بزوغ النهار وصلنا إلى مدينة المعرّة، وخيّمنا أمام الخان بالضبط. لا تستحق هذه المدينة أن تكون قرية جيدة، فقد وجدنا صعوبة في الحصول على الخبز، ولا يوجد في كافة أرجائها سوى مقاهٍ وقباب مهدّمة، وأجمل ما فيها الخان المبني بحجارة منحوتة. إنه باحة كبيرة مربعة يحيط بها رواق ذو مصاطب، وبما أنني مراراً ما أستخدم هذه العبارة، وهي كلمة خاصة بهذه البلد، يبدو لي أنني سبق وشرحت معناها، فإنني ومن أجل التبيان للقارئ سأشرحها هنا أيضاً:

فالمصطبة نوع من المنصّة، أي أن البلاط يرتفع قدمين أو ثلاثة أقدام عن الأرض، وهنا يقيم السّيّارة. وفي منتصف هذا الفناء يوجد مسجد له قبّة مغطاة بالرّصاص، وفي طرفه فناء صغير مربّع الشكل يمتدّ حوله رواق يستند سقفه من كل جهة إلى قنطرتين يفصلهما عمود يقع بينهما، وفي مكان قريب جداً يوجد حمّام ذو قبّة ضخمة مكسوة بالرّصاص، لكنه مغلق ولا فائدة منه لعدم وجود الماء. تجدون بعد ذلك شارعاً مغطى فيه مقهى، وخمسة أو ستة محلات في كل جهة، وفي طرفه نرى أربع قناطر وهي ما تبقى من مجرى مياه يُشكّل تقريباً زاوية قائمة في قناطره الأربع، وقد سيقَ من مسجد موجود في الرّيف على بُعد بضعة مئات من الخطوات، حيث توجد ناعورة تجرّ المياه من جدول يمرّ هناك، وهذا الجدول آتٍ من أنطاكية. يجرّ هذا المجرى المياه من خلف أعلى الشارع المغطى إلى الحمّام المتصل بالدّرب من جهة وبالخان من جهة أخرى، وهو مبنيّ بالدّبش كالقناطر المتبقية أيضاً، المتصلة من الجهة الأخرى بالجامع الكبير، ولهذا الجامع ست قباب صغيرة مكسوّة بالكلس، وفي طرفه مئذنة جميلة نوعاً ما.

وكل ما تبقى من المدينة تعيس، وما زال يوجد خان لم يتبقَّ منه سوى الباب وبضعة قناطر تتلاشى يوماً بعد يوم بسبب عدم إضافة بعض الحجارة إليها. المنازل مبعثرة هنا وهناك مثل قصور مهجورة، ترتفع أسوارها مسافة قدمين أو ثلاثة أقدام، مركبة من عدّة حجارة موضوعة الواحدة فوق الأخرى دون أي شيء اصطناعي، ونرى في جميع الجهات الكثير من الحجارة المنحوتة الكبيرة والضخمة جداً، وأجزاء من أعمدة مازال البعض منها يحمل قطعاً منقوشة. وما بين هذه الحجارة القديمة رأيتُ باباً، يبلغ ارتفاعه تقريباً أربعة أقدام، وسماكته نصف قدم، نُقشت عليه صلبان وورود، وصُنع من قطعة واحدة، وله مفصّلات تدخل في ثقوب حُفرت عمداً في الأعلى وفي الأسفل. والباب من الحجر الضارب إلى اللون الرمادي، شديد الصّلابة، على غرار العضادة التي يُرتج عليها، ولا يمكن إلا لرجلين أن يفتحاه أو يغلقاه؛ وما زال حتى الآن على حاله ويستخدم باستمرار.

من المؤكد أن المعرّة كانت في الماضي مدينة جيدة، لكن الطغيان التركي كان سبب خرابها؛ يقولون إنه مازال يوجد بقية كنيسة بناها المسيحيون في العصر الذي كانوا فيه أسياد هذه المدينة لكن لبُعدها عن القرية لم أذهب إليها أبداً. يدفع الفرنجة في هذه المنطقة إتاوة قدرها أربعة قروش، وتوقفنا طيلة هذا النهار لأن الأتراك كانوا يحتفلون بالبَيرَم، باعتبار أن القمر ظهر مساء أمس.

لم نغادر إلا في يوم الثلاثاء في 29 أبريل في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، مررنا عند طلوع النهار أمام خان يسمى خان مرعي Han Meraï، يوجد بقربه قرية جميلة، وبعد ساعة تقريباً وجدنا واحداً آخر اسمه خان حربة Han Herbe، وقرية قريبة جداً منه، وغير بعيد عنه خان ثالث. وعند الساعة الثامنة صباحاً، خيّمنا قرب خان آخر يدعى خان سراقب. الخانات الثلاث الأخرى، بالإضافة إلى هذا الخان جميعها تدعى خان سراقب، وتعني خانات الآبار، بسبب وجود عدة آبار في القرية قرب هذه الخانات، وفتحات هذه الآبار على مستوى القرية؛ لكن الخان الأخير سُميّ بشكل خاص خان سراقب. وهو في حالة سيئة، ومعظم القباب مهدمة، يوجد بلدة قريبة منه. وقد رأينا في هذا الطريق كميات من شجر الزيتون، وهي المرة الثانية التي نصادف فيها شجراً من دمشق.

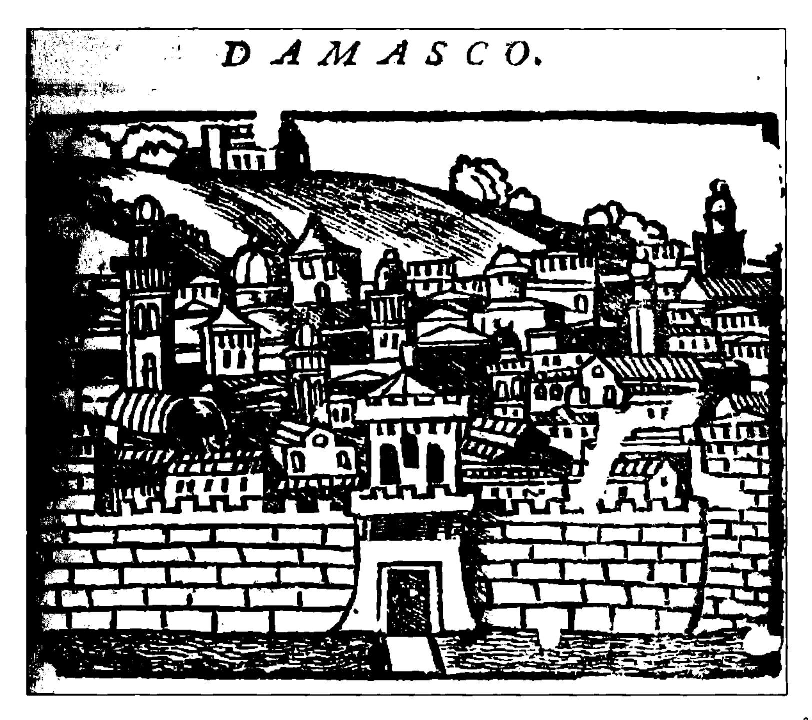
غادرنا هذا المستراح في نفس اليوم فور غياب الشمس، وعند الساعة العاشرة مساء مررنا من أمام قرية اسمها زربل Zarbel وفيها خان. وفي هذا المكان تلقينا إنذاراً، لأن الشخص الذي يسير في المقدمة حاملاً القنديل، صرخ قائلاً بأنه رأى فرساناً، مما يدعو للاستعداد من أجل استقبالهم كما يجب، لكنهم لم يأتوا أبداً. ويوم الأربعاء في الثلاثين من شهر أبريل، مررنا عند الفجر أمام خان تومان، وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى مدينة حلب، وما إن وطئت قدماي أرضها، حتى صرت داخل الخان الكبير، مقيماً لدى المسيو بيرتيه Bertet، أحد أشرف الرّجال الذين يمكن أن يلقاهم المرء، ومن أكثرهم حميّة لخدمة أصدقائه على غرار ما يفعل السّادة إخوته الموجودون حالياً في مرسيليا، والذين كان لهم جميعاً عليّ أفضال جُلّى.

لقد سرّني المسيو بيرتيه Bertet، الذي يعيش في حلب، بآرائه واهتمامه. ولقد قدّمتُ الشكر للمسيو بارون[1] Baron الذي تكرّم بإعطائي مسكنه. كان المسيو بارون آنذاك قنصل فرنسا في تلك المدينة، وقد مارس مهامه باستقامة، وذلك بشهادة جميع الناس[2].

* * *

(1) ظل هذا الاسم معروفاً حتى أيامنا، فثمّة فندق شهير وعريق بحلب يدعى فندق بارون.

(2) يلي هذا النص الفصل السّابع الذي يضم ملاحظات تيڤنو عن حلب، لكننا سنؤجله إلى الترجمة الكاملة لتتمّة رحلات جان دى تيڤنو، ضمن هذه السّلسلة بإذن الله.



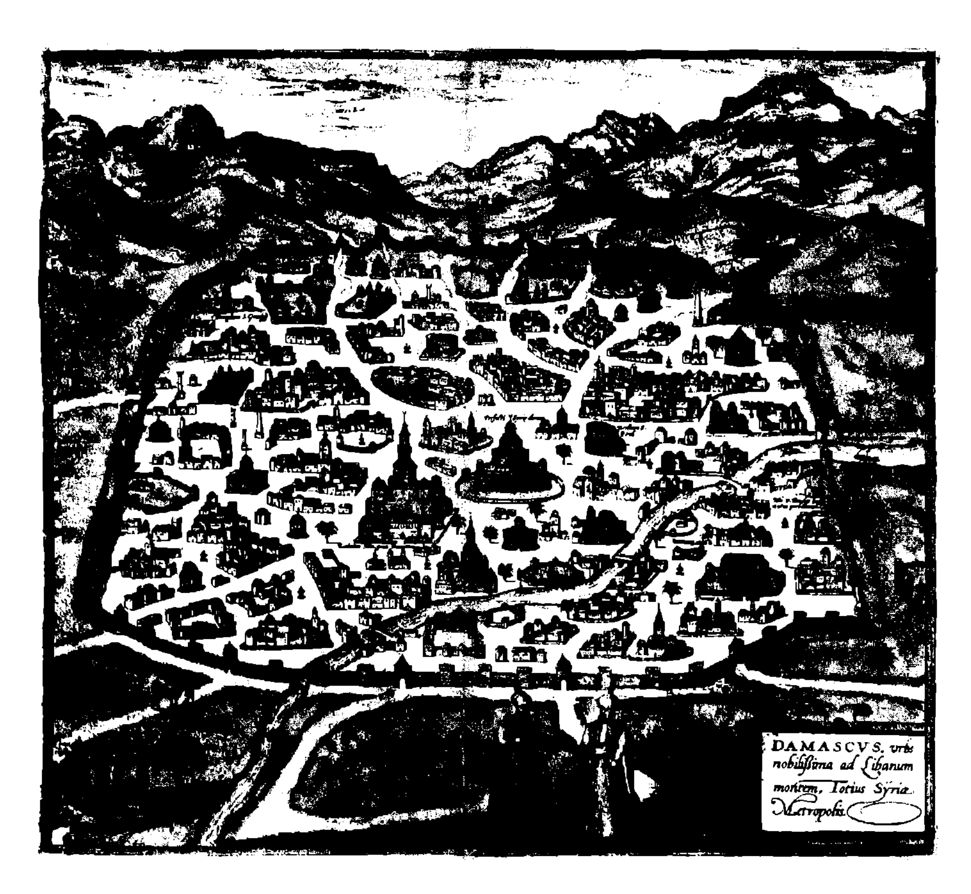
نُقيشة خشبيّة لريمونديني G. A. Remondini تمثل مدينة دمشق عام 1675

عن كتاب: «رحلة من ڤينيسيا إلى كنيسة القيامة وجبل سيناء»

للإيطالي الأب نويه بيانكي، طبعة باسّانو Bassano ڤينيسيا عام 1791

Viaggio da Venetia al Santo Sepolcro et al Monte Sinai

R. P. F. Noè Bianchi, dell'Ordine di San Francesco, Venetia 1791



صورة منظورية نادرة تمثل خريطة لمدينة دمشق عام 1572 م
نقيشة نحاسية من كتاب باللاتينية لبراون وهوغنبرغ Braun & Hogenberg

دمشق في أواخر القرن السّابع عشر

نص للرحالة الإنكليزي «هنري موندرل»

Henry Maundrell

1697 م

هنري موندرل (1665-1701 م) أكاديمي بجامعة أوكسفورد، أضحى من رجال الإكليروس في كنيسة إنكلترا. ولد عام 1665 في بلدة كومتون باسيت Compton Bassett بمقاطعة ويلتشاير. درس في كليّة إكستر بأوكسفورد وفي عام 1691 رُسم كاهناً. ثم في عام 1695 وبإيعاز من خاله مدير بنك إنكلترا سير وليَم هيدجز Sir William Hedges، عُيّن كاهناً في معمل تابع لشركة «المشرق» The Levant Company التجاريّة في حلب بشمال سوريا.

في مطلع عام 1697، قرّر موندرل ومجموعة من رفاقه تبلغ 15 شخصاً (من أصل 40 يعملون في المعمل) القيام برحلة حجّ إلى القدس. وفي شهر فبراير انطلقوا باتجاه اللاذقية على السّاحل السّوري، وتابعوا طريقهم على طول ساحل لبنان حتى بلغوا عكّا في ساحل فلسطين، ومنها اتجهوا براً إلى القدس الشريف، حيث حضروا قدّاس عيد الفصح المقام وفق الطقس اللاتيني. وبعدها عادوا إلى حلب مارّين بدمشق وبعلبك وطرابلس، فوصلوا في 18 مايو.

دوّن موندرل وقائع الرحلة في كتاب أطلق عليه: «رحلة من حلب إلى القدس» *Journey From Aleppo to Jerusalem at Easter A.D. 1697* إنما لم يُنشر إلا عام 1703 بأوكسفورد، بعد وفاته في حلب عام 1701. ننقل هنا وصفه لدمشق عن طبعة 1832، ونعد بنشر رحلته بأكملها قريباً.

ter'd into a narrow cleft between two rocky mountains, passing thro' which, we arriv'd in four hours at Demass, gently descending all the way. At Demass a small caphar* is demanded; which being dispatch'd, we put forward again, but had not gone above an hour and a half, when it grew dark, and we were forc'd to stop at a very inhospitable place, but the best we could find; affording no grass for our horses, nor any water, but just enough to breed frogs, by which we were serenaded all night.

Tuesday, April 27.—Early the next morning we deserted this uncomfortable lodging, and in about an hour arriv'd at the river Barrady; our road still descending. This is the river that waters Damascus, and enriches it with all its plenty and pleasure. It is not so much as twenty yards over; but comes pouring down from the mountains with great rapidity, and with so vast a body of water, that it abundantly supplies all the thirsty gardens, and the city of Damascus.

We crossed Barrady at a new bridge over it, called Dummar. On the other side our road ascended, and in half an hour brought us to the brink of a high precipice, at the bottom of which the river runs; the mountain being here cleft asunder to give it admission into the plain below.

At the highest part of the precipice is erected a small structure, like a sheck's sepulcher, con-

* Quarter per head.

نموذج لطبعة لندن 1832، ص 163 الرحلة إلى دمشق



نُقيشة عنوان الطبعة الفرنسية الصادرة عام 1706

Voyage d'Alep à Jérusalem

رحلة هنري موندرل
إلى دمشق عام 1697

الإثنين 26 أبريل:

في الصباح التالي تابعنا تابعنا مسيرتنا المتعرّجة في وادي البقاع Bocat. وفي ظرف ساعة واحدة مررنا قرب من قرية صغيرة تدعى جبّ جنين Jib Jeneen، وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى سفح جبال لبنان الشرقية. وهنا كان الارتقاء سهلاً، ثم في غضون نصف ساعة مررنا على جهة اليمين بقرية تدعى عزّة Uzzi. وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى عيتا Ayta، وهي قرية للمسيحيين من مذهب الرّوم. وبدأ الطريق في هذا المكان الأخير يصبح صخرياً وشاقاً للغاية، فسرنا عليه لمدة ساعة، ووصلنا إلى غدير صغير يسمى عين ينطا Ayn Yentloe. وهنا دخلنا صدعاً ضيقاً بين جبلين صخريين، وبعد اجتياز هذا الصّدع وصلنا في غضون أربع ساعات إلى الدّيماس Demass وكنا ننحدر برفق طوال الطريق. وعند الدّيماس يفرض تحصيل رسم صغير caphar (مقداره ربع على كل فرد) حيث دفعناه وتابعنا طريقنا مجدداً، ولكننا لم نمضِ أكثر من ساعة ونصف حتى حلّ الظلام، فاضطررنا للتوقف في مكان قاحل جداً، ولكنه كان أحسن ما استطعنا العثور عليه، ولم يكن فيه أي عشب لخيولنا، أو أي ماء سوى ما يكفي لتكاثر الضفادع، التي راحت تتحفنا بنقيقها طوال الليل[1].

---

(1) استخدم الكاتب هنا تعبيراً لطيفاً للوصف: by which we were serenaded all night أي: تغنّينا السّيريناد، وهي أغانٍ عاطفية تصاحبها القيثارة، تغنى تحت شباك المحبوبة.

الثلاثاء 27 أبريل:

في الصباح التالي باكراً غادرنا هذا الموضع غير المريح ، ووصلنا خلال ساعة تقريباً إلى نهر بردى Barrady، وبقي طريقنا ينحدر نزولاً. وهذا هو النهر الذي يسقي دمشق ويضفي عليها النضارة بكل وفرتها ورونقها. ولا يبلغ عرضه أكثر من عشرين ياردا، ولكنه ينصبّ نازلاً من الجبال بسرعة كبيرة وبكميّة وافرة من المياه، التي تمدّ بغزراة جميع البساتين الظمأى، ومدينة دمشق.

قطعنا فوق نهر بردى عند جسر جديد مقام فوقه يسمى دُمّر Dummar. وعلى الجانب الآخر راح طريقنا يرتقي صعوداً، وخلال نصف ساعة أفضى بنا إلى أعلى حافة خانق عال يجري النهر في أسفله، والجبل هنا منفرج في أسفله ليوفر له مدخلاً إلى السهل في الأدنى.

هذا ويوجد على ذروة الخانق بناء صغير يشبه ضريح شيخ[1]، يروي حوله الأتراك القصة التالية: أن نبيهم عندما أتى إلى دمشق توقف في ذلك المكان لبعض الوقت لكي يرى المدينة، وبتأمله لجمالها الخلاب ورونقها لم يركن إلى دخولها، لكنه عاد عنها ليقينه بأنّ ثمّة جنة واحدة أعدّت للإنسان، وبالنسبة له فإنه لن يرضى بالجنة الأرضيّة هذه.

ولا ريب حقاً أنك من هذا الخانق بوسعك رؤية أروع مشهد لدمشق. وبالتأكيد لا يمكن لاي مكان في العالم بأن يقدّم للناظر عن بُعد مشهداً أبهى ولا أروع. ودمشق تقع في سهل مستوٍ فسيح الامتداد، بحيث أنك بالكاد تستطيع رؤية الجبال التي تحيط بها في الأفقّ البعيد. والمدينة تقع في الجانب الغربـي من السهل، على بُعد لا يتجاوز الميلين من المكان الذي ينبثق فيه نهر بردى من بين الجبلين[2]. وتمتد جنائنه إلى المدينة ذاتها تقريباً.

---

(1) المقصودة قبّة السيّار المعروفة إلى اليوم بأعلى عقبة دمّر. ومنظر دمشق من القبّة جميل جداً. وهذا الدرب كان يسلكه الرّحالون الأجانب دوماً إلى دمشق، فطريق الربوة لم يكن سالكاً.

(2) أي عند خانق الرّبوة، في الجهة الغربية من دمشق. وهذه المنطقة تعرف بالمقسم، حيث ينقسم فيها النهر إلى فروعه السبعة: بردى والقنوات وبانياس وثورا ويزيد والمزاوي والدّيرانـي.

وأمّا المدينة ذاتها فلها شكل طويل مستقيم، ونهاياتها تتجه تقريباً إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي. وهي نحيفة جداً في الوسط، ولكنها تتفلطح في نهايتيها وخاصة عند النهاية المتجهة نحو الشمال الشرقي. وبالنسبة لطولها حسبما أمكنني أن أقدّر بنظري، فهي تمتد حوالي الميلين. وهي مكتظة بالجوامع والقباب، التي هي الطابع المألوف للمدن التركية. وتحيق بها البساتين التي تمتد حسب التقدير العام لا أقل من ثلاثين ميلاً، وهذا يجعلها تبدو كمدينة فخمة في غابة فسيحة. والبساتين تحفل بكثافة بأشجار الفاكهة من جميع الأنواع، و التي تحافظ على نضارتها ويناعتها مياه نهر بردى. وتلحظ فيما بينها كثيراً من القباب والدّور الصيفية التي تطلّ مراراً من بين الأجمات الخضر، وهي تضيف للمنظر رونقاً وبهاءً غير قليل. وعلى الجانب الشمالي لهذه الغابة الفسيحة مكان يدعى الصالحية Solhees، حيث توجد أجمل الدّور الصيفية والبساتين.

إن الجانب الأعظم من هذه النّضرة والخصوبة ناتج كما أسلفت عن مياه بردى التي تمدّ كلاً من البساتين والمدينة بوفرة كبيرة من المياه. وهذا النهر حالما ينبثق من خانق الجبل المذكور أعلاه إلى السهل، ينقسم مباشرة إلى ثلاثة جداول يجري الأوسط والأكبر منها مباشرة إلى دمشق عبر حقل كبير مكشوف، يدعى [باللاتينية] «مرج دمشق» Ager Damascenus ويتمّ توزيعه إلى جميع صهاريج المدينة وسبلانها، وأما الفرعان الآخران (اللذان أظنهما صنعيين) فيتمّ سوقهما، أحدهما إلى الجهة اليمنى، والآخر إلى الجهة اليسرى، على حواف البساتين حيث يُجريان إليها لدى مرورهما بسواقٍ صغيرة، وهكذا يتمّ توزيعهما في جميع أرجاء الغابة الواسعة[1]، بحيث لا يوجد حديقة واحدة إلا ولها ساقية لطيفة جارية تنساب خلالها، وهذا لا يخدم ليس فقط لسقاية المكان، ولكنه يتحوّل أيضاً إلى نوافير وأشغال مائية أخرى بهيجة جداً، بالرغم من أنه غير مبتدع بتلك النوعية من الفن الراقي الذي يشيع في العالم الغربي.

---

(1) هذه الغابة التي يذكرها ما هي إلا غوطة دمشق الممتدة في جهتها الشرقيّة، وأراضي المرج في جهتها الجنوبية الشرقية، وبساتين الصالحية والنّيرب في جهتها الغربية.

من خلال وصف نهر بردى على هذا النحو، فإنه يتمّ استهلاكه بشكل كامل تقريباً بين أرجاء المدينة والبساتين. وأما الجزء البسيط الذي يفضل منه فإنه يتجمّع كما قيل لي في قناة واحدة مرّة أخرى في الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة، وبعد حوالي مسافة ثلاثة أو أربعة ساعات يتلاشى في مستنقع هناك[1]، دون أي يصل أبداً إلى البحر.

هذا ولقد كان اليونان، ومن بعدهم الرّومان، يطلقون على هذا النهر اسم «خريسورواس»[2] Chrysorrhoas. أمّا حول اسمي «أبانا» Abana و«فرفر» Pharpar نهري دمشق، كما هما مذكوران في العهد القديم (سفر الملوك الثاني، 5: 12) فلم أستطع العثور على من يعرفهما، أو على تسمية باقية تنطبق عليهما[3]. وينبغي بدون شك أن يكونا مجرد فرعين لنهر بردى، وربما كان واحد منهما نفس النهير الذي يجري الآن عبر Ager Damascenus، ويتجه رأساً إلى المدينة، ويبدو من جريانة المتعرّج أنه قناة طبيعية. أمّا بالنسبة للآخر فإنـي لا أعرف تماماً أين يوجد، ولكن لا عجب لكونهم قد حرفوا مسار النهر على هواهم.

تابعنا فوق الخانق لمدة من الوقت لمشاهدة منظر المدينة، وإنه حقاً لأمر عسير ترك مكان يقدّم لك منظراً طبيعياً فتاناً. فهو يصوّر لك الجنة في الأسفل كمكان جميل وبهيج للغاية. ومع أنه لا يتركك تنصرف عنه للذهاب إليها، فهو يدعوك حالاً إلى النزول إلى المدينة، وذلك من خلال البهجة التي يبدو بأنه يعدك بها، ثم يمنعك عن النزول بسبب جمال المنظر من فوق.

---

(1) هي بحيرة العتيبة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وجنوبيها بحيرة المرج مثوى الأعوج.
(2) ومعنى هذا الاسم باليونانية: مجرى الذهب.
(3) لا ريب أنّ تسمية نهر أبانا التي ينفرد بذكرها العهد القديم تدلّ على فرع نهر بردى الذي يختصّ بمعبدها الوثني القديم، وهذا الفرع سمّاه الإغريق بانّاس Βαννας (أي نهر الحمّام) نسبة إلى معبد حوريّات الماء الذي لا تزال آثاره ماثلة إلى جنوب الجامع الأموي اليوم. وأما تسمية نهر فرفر التي ينفرد أيضاً بذكرها العهد القديم فهي (كما أعتقد) التسمية الكنعانية القديمة פרפר لنهر الأعوج الذي ينبع من سفح جبل الشيخ. وثمّة جبل يعرف بجبل بَربَر. ومعنى التسمية الكنعانيّة: الفراشة، كناية عن تواثب ماء هذا النهر عند منبعه.

لدى نزولنا التلة إلى السهل تلقانا إنكشاري من الدير أُرسل ليصحبنا إلى المدينة. ولقد رأى أنه من غير المناسب بأن يُدخلنا من البوابة الغربية (التي كانت الأقرب وبمتناول اليد) لكي نعبر المدينة بكاملها إلى دير اللاتين[1] حيث من المفروض أن نقطن هناك، وذلك خوفاً من أن ينزعج الدمشقيون الذين يكثر فيهم الناس المتعصبون وذوو العنجهيّة، عند رؤية عدد كبير من الفرنجة كما كنا. ولتجنب هذا الخطر اقتادنا حول البساتين قبل أن نصل إلى البوابة، وجدران[2] البساتين ذات بناء غريب جداً، فهي مبنية من قطع كبيرة من التراب، ومصنوعة على شكل لبنات مقسّاة في الشمس. وأبعاد هذه القطع تبلغ ياردين لكل قطعة طولاً وتقريباً أكثر من يارد واحد عرضاً وبسماكة نصف يارد. وصفان من هذه القطع موضوعان على حفتيهما واحد فوق الآخر ليصنعا جداراً رخيصاً وسريعاً، ومستديماً في هذا البلد الجاف.

ولدى مرورنا بين البساتين لاحظنا أيضاً طريقتهم في تنظيف أقنية الماء، فهم يضعون غصن شجرة كبير في الماء ويربطون عليه فداناً من الثيران، ويجلس على الغصن هناك شخص جيد الوزن وذلك ليضغطه إلى الأسفل وليسوق الثيران، وبهذا الجهاز فإن الغصن يُجرّ على طول القناة ويخدم حالاً لكل من تنظيف قاع القناة ولتعكير الماء بالطمي وذلك لزيادة نفعه للبساتين.

دخلنا الباب الشرقي وذهبنا مباشرة إلى الدّير، فتمّ استقبالنا بحفاوة كبيرة من قبل الحارس الأب رافائيل الذي يعود أصله إلى مايوركا Majorkine بالولادة، بالإضافة إلى شخص آخر بالرغم من أنه خصص نفسه لحياة التأمل، فهو مع ذلك قادر على أيّ شأن من شؤون الحياة.

* * *

(1) يقع دير اللاتين بداخل جادّة باب توما.

(2) تعرف هذه الأسوار القديمة بالدّك، جمعها دكوك.

الأربعاء 28 أبريل:

خرجنا في هذا الصباح لنأخذ نظرة للمدينة، وكان أول مكان ذهبنا لزيارته بيت رجل تركي[1] رفيع الشأن. إن الشوارع هنا ضيقة، كما هي العادة في البلدان الحارة، وجميع البيوت مبنية من الخارج بمواد ليست خيراً من الآجر محروق بالشمس أو جدار فلمنكي، مليّس كلياً بطريقة خشنة كما هو الحال في أقبح الأكواخ. ومن هذه الطريقة الوسخة للبناء فإن لهم هذا من بين انزعاجات أخرى بحيث لدى سقوط أية أمطار غزيرة تصبح كامل المدينة بسبب غسيل البيوت كما لو كانت أرض مغراق.

ومن المستغرب ماحمل الناس بأن يقوموا بالبناء بهذه الطريقة الأساسية، في حين لديهم في الجبال المجاورة كمية كبيرة من الحجر الجيد لبناء أجمل، وغني لا أستطيع أن أعطي سبباً لذلك، إلا أن أولئك اللذين استوطنوا هنا أولاً وجدوا الوضعية لذيذة جداً، فكانوا بعجلة ليصلوا إلى الاستمتاع بها، ولذلك أقاموا بسرعة تلك المساكن المؤقتة، لكونهم كانوا غير راغبين بتأجيل سرورهم لمدة طويلة، بينما كان بإمكانهم أن يقيموا أبنية أروع لتكون مثالاً مبدئياً لخلفائهم حيث اتبعوها منذ ذلك الحين.

ولكن وعلى كل حال فإنك تجد في هذه الجدران الطينية البوابات والأبواب مزيّنة بفتحات رخامية محفورة ومنزّلة بجمال وتنوع كبيرين، إنه لشيء مفاجئ حقاً بأن ترى الطين والرخام، الأبّهة والحقارة ممتزجين سوية.

أمّا في الداخل فتكشف لك البيوت وجهاً مختلفاً جداً مما تراه في الخارج، فتجد هنا عموماً باحة مربعة كبيرة، مجملّة بعديد من الأشجار العطريّة، ونوافير رخامية، وهي محاطة بغرف وأواوين رائعة. والأواوين مبلّطة ومزينة الجوانب بتشكيلة من الصدف ممزوجة بعقد من الموزاييك والخطوط المتشابكة.

---

(1) سبق أن ذكرنا في نص دارفيو أعلاه أنّ الرحالين الأوروبيين آنذاك كانوا يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السّلطنة، سواء كانوا من التّرك أو العرب أو غيرهم.

أمّا السقوف والأقواس فمدهونة ومذهبة بغنى وفق الطريقة التركية، ولها بصورة عامة نوافير اصطناعية تفور أمامها في فسقيّات رخامية، أما بالنسبة للسجاد والوسائد فهي مفروشة إلى أعلى درجات الرفاهية. وهناك من هذه الأواوين بصورة عامة عدد على جميع جوانب الباحة مقامة باتجاهات مختلفة، بحيث أنه يمكنك دائماً في أحدها أو سواه الحصول على الظل أو الشمس أيهما يسرك.

على هذا النّحو الذي وصفته كان البيت الذي ذهبنا إليه لنراه، وقيل لي بأن باقي البيوت لها الوصف ذاته.

* * *

أمّا المكان التالي الذي ذهبنا لرؤيته فكان كنيسة القديس يوحنا المعمدان St. John Baptist التي حوّلت الآن إلى مسجد[1]، ويحظّر على النصارى دخوله، أو حتى النظر إلى داخله. لكن على أيّ حال ظفرنا بثلاث نظرات قصيرة إليه وذلك من خلال أبوابه الثلاثة. وأبوابه كبيرة بشكل واسع ومكسوّة بالنحاس ومختّمة بالكامل بكتابات عربية وفي عدة أماكن بكأس، من المفترض أن يكون الرّمز أو الشعار القديم للمماليك[2].

ويوجد في الجانب الشمالي للمسجد باحة فسيحة والتي لم أستطع أن أخمّن بأنها أقل من مئة وخمسين يارداً طولاً وثمانين أو مائة يارد عرضاً. وهذه الباحة مبلطة بأكملها، وفي الجهة الجنوبية منها حرم المسجد، وفي الجهات الثلاث الأخرى أروقة مزدوجة، تقوم على صفّين من الأعمدة الغرانيتية ذات الطراز الكورنثي، وهي مرتفعة وجميلة جداً.

---

(1) يعني الجامع الأموي بالطبع، وقد بنى الكنيسة الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول الذي حكم بين 379-395 م.

(2) هذا صحيح، فالكأس على أبواب الأموي رنك السّلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق. وله أيضاً مثال آخر على الواجهة الشمالية للقلعة، وعلى قنطرة قريبة من مسجد الصحابي أبي الدّرداء في الجهة الشمالية من القلعة. انظر صورها بآخر هذا المبحث.

أمّا في الجانب الجنوبي فإنّ المسجد يحاذي الأسواق، ومن هنالك تمكّنا من الفرجة إلى داخله. وهو في الداخل فسيحة وعالية، ومبني بثلاث أروقة يوجد بينها صفوف من الأعمدة المصقولة ذات جمال مدهش، هذا ما لم نكن بالغنا في تقييمنا قليلاً لما كان ممنوعاً علينا استطلاعه.

ويحفظ في هذا المسجد رأس القديس يوحنا وبعض البقايا الأخرى التي تعدّ مقدسة جداً، حيث أنّ من يتجرأ بالدخول ولو كان تركياً إلى الغرفة التي تُحفظ فيها، يكون عقابه الموت. وروى لنا أحد الأتراك كلاماً متواتراً بأنّ المسيح ينزل على هذا المسجد عند قيام السّاعة، كما ينزل محمّد على مسجد القُدس. أمّا ما هو أساس هذا الاعتقاد فلا أدريه.

*****

ذهبنا من المسجد إلى القلعة، التي تقع على بعد حوالي ربع ميل نحو الغرب. إنها بناء جيد على الطريقة الريفية، ويبلغ طولها ثلاثمائة وأربعين خطوة وعرضها أقل بعض الشيء. تمّ إدخالنا إنما فقط عند البوابة[1]، حيث رأينا مخزناً لأسلحة ودروع قديمة وغنائم من المسيحين في العصور السالفة. ومن بين قطع المدفعية يوجد منجنيق روماني قديم. ولكن هذا المكان لا يجوز إطالة النظر فيه من قبل أشخاص مثلنا[2].

وفي النهاية الشرقية للقلعة تتدلى في منتصف الجدار سلسلة قصيرة محفورة في الحجر، ولا أعلم ما الفائدة منها غير التفاخر بمهارة الصانع.

وبمغادرة هذا المكان ذهبنا لنرى الأسواق التي وجدناها مكتظة بالناس، ولكنها خالية من أي شيء آخر جدير بالملاحظة.

---

(1) وهي البوابة الشرقية، التي يُفضى إليها عبر جسر متحرّك فوق الخندق. انظر وصف مانريك ودارڤيو أعلاه. وهي ماثلة اليوم قبالة سوق العصرونيّة.

(2) من الملاحظ تشابه نص موندرل مع نص دارڤيو الذي سبقه في زيارة دمشق بمدة 37 سنة، فيبدو أن الشائع آنذاك بخصوص السيّاح الأجانب زيارة تلك الأماكن. ولا يمكن أن نفترض كونه نقل عن دارڤيو أو اطلع عليه، لأن كتابه لم يُنشر إلا في عام 1735 م.

الخميس 29 أبريل:

ذهبنا باكراً جداً في هذا الصباح لرؤية الموكب الفخم الكبير السنوي للحجاج الذين ينطلقون في حجّهم إلى مكة. ولقد عيّن أوسطان باشا حاكم طرابلس أميراً لهم أو محافظاً لهذا العام. وللحفاظ على أمننا من غائلة المتشدّدين، استأجرنا دكاناً في أحد الأسواق التي سيمرّون عبرها.

وفي هذا الركب الذائع الصيت أتى أولاً ست وأربعون دليلاً أي أولياء، يحمل كلّ منهم راية حريرية مختلطة الألوان إما أحمر وأخضر أو أصفر وأخضر، وبعد هؤلاء أتى ثلاث فرق من السّكبان[1] Segmen (الذي هو صنف من العسكر لدى الأتراك)، وأتى بعدهم بعض جنود السپاهية Spahees (وهو صنف آخر من العسكر)، وتبعهم ثمانية فرق من المغاربة Megrubines (وهكذا يسمّي الأتراك البربر Barbaroses)، مشياً على الأقدام. وهؤلاء ذوو مظهر رائع جداً، وهم معدّون للتمركز في حامية للأتراك في مكان ما في صحراء جزيرة العرب، ثمّ يسرّحون كل سنة مقابل رجال جدد. وفي وسط المغاربة مرّت ست قطع صغيرة من المدفعيّة.

وفي أعقابهم أتى جنود قلعة دمشق مشاةً، مسلحين بشكل مذهل بدروع ورانات وقطع أخرى من الدّروع القديمة. وتبعهم جنود من الإنكشاريّة مع الآغا العائد لهم، وكانوا جميعهم على صهوات الخيل. وبعد ذلك مرّ طوخا[2] الپاشا بصحبة آغا البلاط العائد له[3]. وبعد الطوخين مرّت ستة خيول مقودة، وجميعها ذوات هيئة بديعة ومجهزة بفخامة، وكان فوق السّرج لكل حصان حزام ومجنّ فضي مذهب.

---

(1) السّكبان صنف من العسكر الأدنى شأناً في أنظمة العسكرية العثمانية، ومصدر التسمية من الفارسية: سك - بان، أي ماسك الكلب.

(2) الطوخ في التركية ذيل الحصان، وكان بمثابة شعار يدلّ على رتبة الپاشا، فمنهم من كان له طوخان ومنهم ثلاثة. أما السلطان ذاته فكانت له سبعة أطواخ.

(3) أي الكيخيا (الكتخدا) في المصطلح الإداري العثمانـي لذلك العصر.

بعد هذه الخيول أتى المَحمَل ، وهو سُرادق كبير من الحرير الأسود مركوز على ظهر جمل كبير جداً وتمتد ستائره من جميع أنحاء الجمل فتصل إلى الأرض. والسّرادق مزيّن في الأعلى بكرة ذهبية وبكنابيش ذهبية. و الجمل الذي يحمله لا ينقصه أيضاً تزيينات المسابح الكبيرة والأصداف وذيول الثعالب، وزينة أخرى خيالية كهذه معلقة فوق رأسه ورقبته وقوائمه.

وجميع هذا مصمم لمقام القرآن Alcoran الذي يوضع باحترام كبير تحت السُّرادق، حيث يركب باحتفال إلى مكة ثم يعود منها. ويرفق بالقرآن ستور جديدة نفيسة كالسجّادة يرسلها السّلطان كل عام لكسوة ضريح محمد[1]، ويستردّ السجادة القديمة عوضاً عنها، والتي تُقدّر بثمن لكونها لمدة طويلة مجاورة لجسد النبي. والبعير الذي يحمل هذا الحمل المقدس له ميزة إعفائة من أيّة حمولات أخرى طوال حياته.

وأتى بعد المحمل جنود آخرون ومعهم الپاشا نفسه، كما أتى آخر الجميع عشرون جمل موسقاً بالأحمال، حيث انتهى بهم الموكب الذي استغرق مروره ثلاثة أرباع الساعة.

وبعد مشاهدتنا ما استطعنا من هذا العرض (الذي ربما لم يشاهده الفرنجة من قبل)، ذهبنا لدى بعض الأمور الأخرى اللافتة للانتباه. وكان المكان الأول الذي وصلنا إليه المرج الذي فيه مجرى النهر Ager Damascenus وهو مرج[2] طويل جميل، يقع بظاهر المدينة مباشرة، على الجانب الغربـي منها. وهو منقسم في الوسط بذلك الفرع لنهر بردى الذي يمد المدينة. وله شهرة كبيرة بسبب مقولة شائعة هنا، هي أنّ آدم قد خُلق من تراب هذا المرج.

* * *

---

(1) معلومات موندرل مغلوطة، فالكسوة ترسل إلى الكعبة المشرّفة، وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلمّ) ليس فيها كما يظن، بل بالمدينة المنوّرة.

(2) هذه التسمية اللاتينية تنطبق على ما عُرف في تاريخ دمشق الإسلامي بالميدان الأخضر أو المرج، أو حتى عام 1951: مرجة الحشيش. ثم قام مكانها معرض دمشق الدولي.

و جوار هذا المرج مستشفى[1] كبير، بداخله باحة مربعة ممرعة، يحدّها في الجانب الجنوبـي مسجد جليل، ومحاطة على جوانبها الأخرى بأروقة ومساكن ذات بناء مُعتبر ليس بالقليل.

لدى رجوعنا من هنا نحو مسكننا، أرونا على الطريق حماماً جميلاً جداً، وغير بعيد عنه مقهى يستوعب أربعمائة أو خمسمائة شخص، وأعلاه مظلل بالأشجار أو الحصر عندما تقصر الأغصان عن التظليل. وله جانبان لاستقبال الضيوف، أحدهما مناسب للصيف، والآخر للشتاء. والمخصّص للصيف بينهما عبارة عن جزيرة صغيرة يحفّ بها جدول كبير سريع الجريان، وهي مظللة من الأعلى بالحُصر والأشجار. وجدنا هنا جمعاً كبيراً من الأتراك على الدواوين يمتّعون أنفسهم في هذا المكان المبهج، إذ لا شيء يمتعهم بقدر الخُضرة والماء، اللذين إن أضيف إليهما وجهٌ حسن، اكتمل بذلك لديهم قول مأثور يشير إلى أنّ هذه العناصر معاً تشكّل خير توليفة ضدّ الحزن.

بعد الظهر، ذهبنا لزيارة البيت الذي يقولون بأنه كان مسبقاً بيت حنانيا Ananias الذي أعاد البصر إلى القديس بولس (سفر أعمل الرّسل، 9: 17)، والمكان الذي بيّنوه لنا (وفق المقولة القديمة) هو كهف أو قبو صغير ليس فيه ما يستحق الملاحظة، ما عدا أنه يوجد فيه مذبح مسيحي ومُصلّى تركي موجودان قرب بعضهما بشكل لا يتوافق مع طبيعة أماكن كهذه.

مشوارنا التالي كان الخروج من الباب الشرقي لكي نرى المكان الذي يقال بأنه مكان رؤيا القديس بولس[2]، والأماكن الأخرى الجديرة بالملاحظة في ذلك الجانب. يبعد مكان الرؤيا حوالي نصف ميل من المدينة شرقاً، وهو قريب من جانب الطريق وليس له بناء لتمييزه، ولا أعتقد أن كان له قديماً. لا يوجد سوى صخرة صغيرة أو كومة من الحصى تفي بالإشارة إلى المكان.

---

(1) يعني بذلك تكيّة السّلطان سليمان القانونـي، التي بنيت في القرن العاشر الهجري 962 هـ.

(2) في قرية كوكب التابعة لجديدة عرطوز قضاء قطنا، إلى الجنوب الغربـي من دمشق.

وعلى بعد حوالي ربع ميل أقرب إلى المدينة يوجد بناء خشبي يشبه قفص بلدة ريفية، ويوجد في داخله مذبح مقام، ويقال بأن الحواري المقدس استراح هناك لبعض الوقت في طريقه إلى هذه المدينة بعد رؤيته (أعمال، 9: 8).

ولدى رجوعنا إلى المدينة، أرونا البوابة التي أُدلي عندها القديس بولس بسلّة (أعمال، 9: 25). وهذه البوابة حالياً مسدودة، بسبب قربها من الباب الشرقي الذي يجعلها ذات فائدة قليلة.

وبدخولنا ثانية إلى المدينة، ذهبنا لنرى البطريرك الكبير القاطن في هذه المدينة. كان شخصاً يبلغ من العمر حوالي أربعين عاماً، ومسكنه زريّ، وشخصيته وحديثه لم يتميّز بأي شيء غير عادي. ولقد أخبرنـي بأنه يوجد أكثر من ألف ومئتي نسمة من طائفة الرّوم في تلك المدينة.

الجمعة 30 أبريل:

ذهبنا في اليوم التالي لزيارة البساتين ولقضاء يوم هناك. ويبعد المكان الذي وصلنا إليه حوالي ميل خارج المدينة. وفيه دارة صيفية ممتعة ذات جدول غزير من الماء يجرى خلاله. وكان البستان مزروعاً بكثافة بأشجار الفاكهة، إنما بغير أيّ فن أو ترتيب. وهكذا كهذه الحديقة كان وضع جميع الحدائق في هذه النواحي. وبهذا الاختلاف فقط فإن لبعضهم دارات صيفية أبهى من سواها، ذات مياه مهيئة بنوافير ذات تنوّع أكبر.

لدى زيارة هذه البساتين، يُجبر الفرنج على المشي أو على ركوب الحمير، لأن عنجهيّة الأتراك لا تسمح لهم بأن يركبوا على ظهر الخيول. ولخدمتهم في هذه الظروف يوجد هنا حمير للأجرة تقف دائماً جاهزة ومجهزة للاكتراء. وعندما تركب فإن صاحب الحمار يلحق حيوانه إلى المكان الذي ترغب بالذهاب إليه، وينخسه من الخلف بعصا مدببة حادّة تجعله ينطلق بسرعة أكبر.

وقد يعمد أحياناً إلى إعطاء بعض الإشمئزاز للمسافر الكريم، بأن يكيل له أفعال ازدراء كهذه[1]، إنما لا حلّ لهذا. وإذا كان المسافر يأخذ بنصيحتي فإن خير ما يفعله هو أن يمتطي حماره بقناعة ورضى، وأن يحوّل الإساءة إلى دافع للفكاهة كما فعلنا. وبعد قضاء يومنا في البستان رجعنا مساءً إلى الدير.

السبت 1 مايو:

قضينا اليوم التالي في بستان آخر ليس بعيداً عن سابقه، ولكنها تتجاوزها كثيراً في جمال دارتها الصيفية والتنويع في نوافيرها.

الأحد 2 مايو:

ذهبنا مع عدد منا كانوا ميالين للذهاب إلى صيدنايا، وهي دير للرّوم يبعد حوالي أربع ساعات من دمشق باتجاه الشمال أو الشمال الشرقي. إن الطريق جيد جداً ماعدا ارتفاعين قاسيين، وفي هذا المشوار مررنا على قريتين، الأولى تدعى التل Tall والثانية منين Meneen. وعلى مسافة لا بأس بها على اليمين توجد تلة عالية جداً يقال بأنها هي التي قدّم عليها قابيل وهابيل قرابينهما، وأيضاً حيث قتل الأول أخاه ووضع أول مثال لإراقة الدم في العالم.

تقع صيدنايا Sydonaiia في الجانب الأبعد لوادٍ كبير على رأس صخرة، وهي منحوته بدرجات على كامل المسافة إلى الأعلى، وبدونها لا يمكن الوصول إليها. وهي محاطة على جميع جوانبها في الأعلى بجدار قوي يحيق بالدير. وهو مكان ذو بناء هزيل جداً ولا يحوي شيئاً غير عادي، سوى الخمر المصنوع هنا والذي هو فعلاً رائع جداً. ولقد أسّس هذا المكان أولاً وأوقفه الإمبراطور جوستينيان Justinian.

---

(1) أي أن ينخس الفرنجي أحياناً بالعصا، وأهل دمشق كانوا مغرمين بتعذيب الرحّالين الفرنج.

والدّير حالياً في عهدة عشرين راهباً من الرّوم، وأربعين راهبة، يبدو أنهم يعيشون معاً بشكل مختلط، دون أيّ نظام أو فصل فيما بينهم.

هنا وعلى هذه الصخرة وضمن محيط صغير حولها يوجد ما لا يقل عن ست عشرة كنيسة أو مصلّى مكرّسة لعدة أسماء: الأولى للقديس يوحنا، والثانية للقديس بولس، والثالثة للقديس توما، والرابعة للقديس بابيلاس، والخامسة للقديسة بربارة، والسادسة للقديس خريستوفر، والسابعة للقديس يوسف، والثامنة للقديس إلعازر، والتاسعة للعذراء المباركة، والعاشرة للقديس ديميتريوس، والحادية عشرة للقديس سابا، والثانية عشرة للقديس بطرس، والثالثة عشرة للقديس جرجس، والرابعة عشرة لجميع القديسين، والخامسة عشرة للصعود، أمّا السادسة عشرة فلتجلّي سيدنا المسيح. ويمكننا أن نستنتج من كل ذلك بأن هذا المكان قد حظي قديماً بشهرة غير قليلة من القدسيّة. ولقد زرت فعلاً كثيراً من هذه الكنائس، لكنني وجدتها مخربة ومهجورة بشكل لم يحمّسني على الذهاب إليها جميعاً.

وفي القلاية التي يستخدمها أهل الدّير لصلاتهم اليوميّة، يزعمون بأنّ أعجوبة عظيمة حصلت منذ عدّة سنوات، هذا وصفها نقلاً عنهم:

يقولون بأنه كان لديهم في الكنيسة قديماً أيقونة للعذراء المباركة، يقصدها المؤمنون بالزيارة، وتشتهر بشفاء الكثير من الأمراض وببركتها تلقاء زيارتهم ودعائهم. وحدث أنّ شخصاً خبيثاً تجرّأ على سرقة هذه الصورة العجائبية، لكنه لم يكد يحتفظ بها مدّةً حتى وجدها تستحيل لحماً حياً. فروّعته هذه المعجزة واستبدّ به النّدم فحمل الأيقونة الثمينة إلى أصحابها، معترفاً بذنبه وطالباً المغفرة على ما جنته يداه. فلمّا استردّ الرّهبان هذه الدرّة الثمينة، ولخوفهم من كارثة ضياعها في المستقبل، فلقد رأوا إيداعها في صندوق حجري صغير. ثم قاموا بوضعها في فجوة صغيرة بالجدار خلف المذبح الكبير، وجعلوا أمامها شبكاً حديدياً، بغية حمايتها من أية محاولة دنيئة لسرقتها.

وعلى الشبك عُلّق العديد من الدُّمى والحلى الصغيرة، هي تقدمات من المؤمنين عرفاناً بقبول صلواتهم عند هذا المقام. وتحت الصندوق الذي أودعت فيه الأيقونة المتجسّدة، يحتفظون على الدّوام بحوض صغير من الفضة، بغية جمع قطرات زيت مقدّس يزعمون أنه صادر عن الصّورة المخبوءة، وأنّ له مفعولاً عجيباً في شفاء الآفات، وبخاصّة ما يصيب منها العيون[1].

وعلى الجانب الشرقي من الصخرة مدفن قديم مجوّف في الحجر الصلب، وتبلغ مساحة الغرفة حوالي ثمانية ياردات مربعة، وتحوي على جوانبها (كما أذكر) اثني عشر ناووساً. ويوجد فوق المدخل ستة تماثيل محفورة بالحجم الطبيعي[2]، تقبع في ثلاث كوى في الحائط، كل تمثالين في كوّة واحدة. وعلى قواعد التماثيل يمكن رؤية بضعة كلمات باليونانيّة، ها هو ذا بيانها كما تمكنت من نقله في وضعها الحالي ضمن الظلمة:

ΕΤΟΥCΙΦ--	Ι[ΟΥ]Α [illegible] ΦΙ[ΛΙ	ΙΟΥΛ [illegible] ΔΗΜΗ
ΙΟΥΛ [illegible] ΑΡΤe	Π] ΠΙκΟC	ΤΡΙΟC ΚΑ[Ι Α[ΡΙ]
ШΙΔΙΡΟC ΚΑΙ	[Κ]ΑΙ ΔΟΜΝCΙΝΑ	ΑΔΝΗ ΓΥ[ΝΗ]
ΠΡeΙΓΚΥ ΓΥΝΗ	ΓΥΝΗ	ΠΑΝΤΑC ϵΠΟΙΟΥ[Ν]
Under the first.	*Under the second.*	*Under the third nich.*

كان لي ولرجل برفقتنا سبب وجيه لتذكّر هذا المكان، وذلك لنجاتنا فيه من الموت. كان ثمّة جندي إنكشاري ثمل يمرّ تحت النافذة حيث كنا، فصادف أنّ وقعت نقطة خمر على سترته، ومن جرّاء هذه الفورة العصبيّة إذا به يوجّه مسدسه تجاهنا عبر النافذة.. فلو قام بإطلاقه لكان ذلك مميتاً لأحدنا أو لكلينا، وكنا بالضبط في مواجهته. لكن الله قدّر بأن يكبح غضبه.

وفي هذا المساء رجعنا ثانية إلى دمشق.

* * *

---

(1) راجع ما ذكره الرحّالة الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي عام 1384 م (نشرناه مؤخراً).
(2) هناك في صيدنايا كثير من الآثار الوثنية القديمة، منها اكتشفتُ في 2002 نقشاً للإلهة عشتار.

الإثنين 3 مايو:

ذهبنا هذا الصباح لنرى الطريق المستقيم (أعمال، 9: 11). ويبلغ طوله حوالي نصف ميل[1]، وهو يمتدّ من الشرق إلى الغرب عبر المدينة. ولكونه ضيقاً والبيوت تبرز في عدّة أماكن على جانبيه، فلا يمكنك بأن ترى منظراً واضحاً لطوله واستقامته. ويظهر في هذا الطريق بيت يهوداه[2] Judas حيث سكن معه القديس بولس، وفي نفس البيت يوجد ضريح قديم يقال بأنه ضريح حنانيا Ananias، ولكن كيف حدث بأن يدفن هنا، لم يستطيعوا بأن يخبرونا ولا نحن فهمنا، إذ أرونا بيته الخاص في مكان آخر[3]. وعلى كل حال فإن الأتراك يجلّون هذا الضريح ويحافظون على قنديل يشعل دائماً فوقه.

بعد الظهر، وبعد أن دفعنا رجال الدير عشرة لكل منهم لحسن أستقبالهم لنا، غادرنا دمشق وبدأنا اتجاهنا نحو طرابلس، وصمّمنا بأن نرى على الطريق بعلبك وأرز لبنان. ولأجل ذلك رجعنا بنفس الطريق التي أتينا منها، وباختراقنا نهر بردى ثانية عند جسر دُمَّر Dummar، وصلنا بعد قليل إلى قرية بنفس الاسم وبتنا فيها الليلة، ولقد سافرنا بعد ظهر هذا اليوم ثلاث ساعات.

* * *

---

(1) بل يبلغ امتداده مب باب الجابية إلى الباب الشرقي 1500 متر، أي قرابة الميل.

(2) حول يهوداه وحنانيا انظر ما علّقنا به بالتفصيل على رحلة دارڤيو أعلاه.

(3) ذاك قرب الباب الشرقي مصلاه وليس كنيسته، وأما وجود قبره في بيت يهوداه فهو أمر منطقي. وينبغي ألا يخلط القارئ بين يهوداه هذا والحواري الخائن (يهوذا بالعربية نقلاً عن الآرامية)، فيهوداه صاحب البيت كان كما يتضح من أعمال الرُّسل واحداً من أفراد المجتمع النصراني التوحيدي العائد إلى كنيسة القدس التوحيديّة الأولى، التي كان من أهم أركانها إخوة المسيح (عليه السلام) أنفسهم: يعقوب وشمعون ويهوداه، وكان منهم بارنَبا اليهودي القبرصي. وثمّة فرضيّة لي أقول بها إن لمجتمع دمشق النصراني التوحيدي الأول كل الأهميّة في توضيح العقيدة النصرانية الصحيحة، بعيداً عن التثليث البوليني والنيقاوي. وما شاع في أوروبا على يدي بولس وقسطنين غريب عن عقيدة المسيح.
ومن الغريب أنّ بيت يهوداه هذا وقبر حنانيا المفترض قد زالت آثارهما تماماً من أذهان مسيحيي دمشق، وقد فصّلت موقعه أعلاه بمحلّة مئذنة الشحم ضمن نصّ الرحّالة الفرنسي دارڤيو.

الثلاثاء 4 مايو:

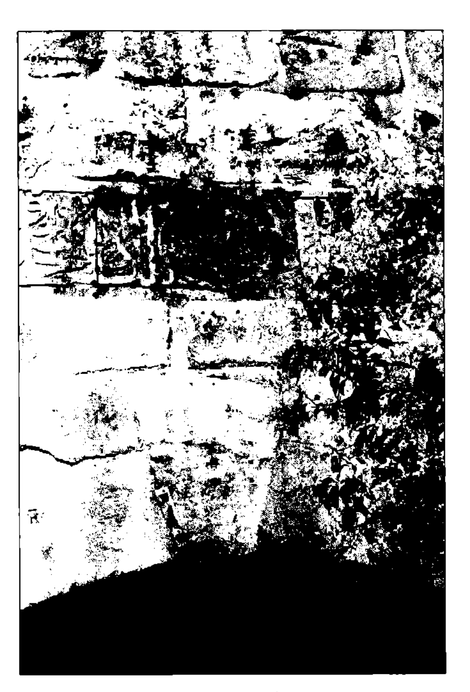
تركنا هذا الصباح طريقنا القديم وأخذنا طريقاً آخر يتجه شمالاً أكثر. وخلال ساعة ونصف أتينا إلى قرية تدعى بسّيمة Sinie، ويوجد قريباً منها بناء قديم على رأس تلة عالية يُفترض أن يكون ضريح هابيل، وبأنّ المنطقة المجاورة قد حملت في الأزمنة القديمة اسم آبيلا Abilene لهذا السبب. ويقال أيضاً على ذمّة البعض بأن قتل الأخ قد ارتُكب في هذا المكان.

ويبلغ طول الضريح ثلاثين ياردًا، ومع ذلك فإنه من المعتقد هنا بأنه كان متناسباً مع قامة الشخص الذي دُفن فيه. وهنا ولجنا في قناة ضيقة بين جبلين صخريين منحدرين، ونهر بردى يجري بينهما في الأسفل. وكان على الجانب الآخر من النهر عدّة أعمدة طويلة أثارت فضولنا لنذهب ونتمكن من رؤيتها عن كثب. فوجدناها جزءاً من واجهة صرح قديم ورائع جداً، لكننا لم نستطع أن نخمّن ماهيّته.

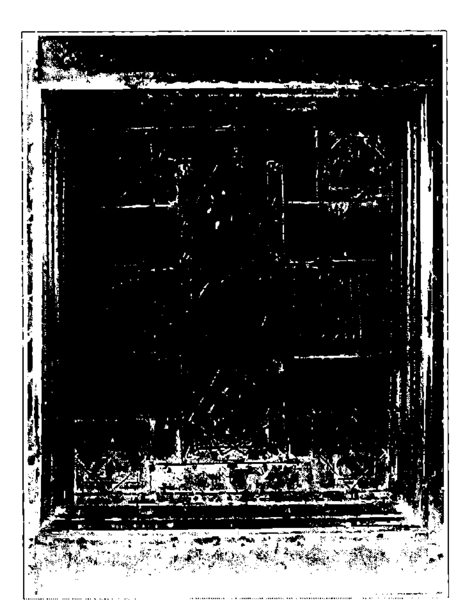
تابعنا طريقنا على ضفاف بردى Barrady، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى قرية تدعى مضايا Maday، ثمّ بعد ساعتين وصلنا إلى نبع يدعى عين حور Ayn il Hawra، حيث بتنا هناك. وكان كامل مشوارنا نوعاً ما أقل من سبع ساعات، وكان اتجاهنا قريباً من الشمال الغربي.

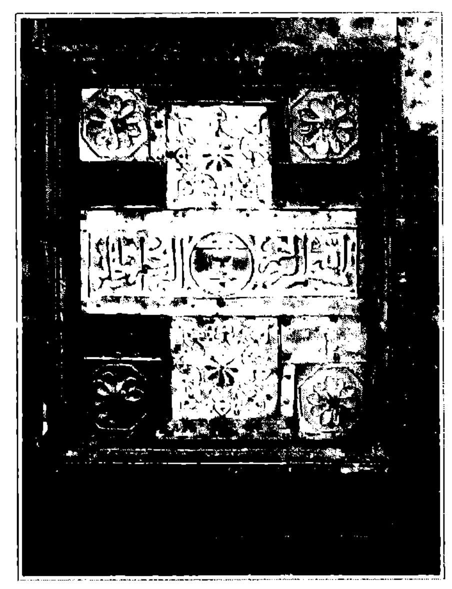
* * *





نموذجان لرنك الملك الناصر فرج بن برقوق، قلعة دمشق الواجهة الشمالية





نموذجان لرنك الملك الناصر فرج في أبواب الجامع الأموي الكبير بدمشق



The Prospect of Aleppo. Pag. 1.

نقيشة نادرة تمثل مدينة حلب عام 1703

من الطبعة القديمة لكتاب موندرل



DAMASCUS.

فهرس الكتاب

* * *

رحلات في برّ الشام

في القرن السّابع عشر الميلادي

تُعدّ رحلات الأثريين والسيّاح الأوروبيين في بلادنا مصدراً هاماً لدراسة تاريخ مدننا وآثارها، وأحوالها الاجتماعية والعمرانية، وتتميّز هذه الرحلات عن مصادرنا التاريخية المحليّة بتدوينها لبعض النواحي التي أغفلها مؤرّخونا، وخاصة فيما يتصل بحياة الناس اليوميّة وعاداتهم الاجتماعيّة، إذ نجد فيها ملامح عن حياة بلادنا قديماً وعادات شعوبها وتقاليدها وأزيائها وحياة أهلها اليومية في أحيائهم وأسواقهم ومقاهيهم، ووصفاً للمناسبات الخاصة كالأعياد ومواكب الحج ومواكب الولاة والحكام.

نطالع في هذا الكتاب رحلات منتقاة لخمسة رحالين أوروبيين، تضمّ نصوصاً نادرة لثلاثة رحالين فرنسيين هم: (جان باتيست تافرنييه، لوران دارڤيو، جان دى تيفنو) ورحالة برتغالي (سيباشتياو مانريك) ورحالة إنكليزي (هنري موندرل) قاموا برحلات منفردة في برّ الشام بين مدينتي دمشق وحلب وما بينهما من مدن وقرى ومراحل سفر، فقدموا لنا صوراً شائقة وممتعة عن بعض مدن الشام وسكّانها وصنائعها وأوابدها الأثريّة القديمة، وحياة عامّة الناس في الدّور والمساجد والتّكايا والأسواق.

السعر 40 درهماً


9 789948 171591



